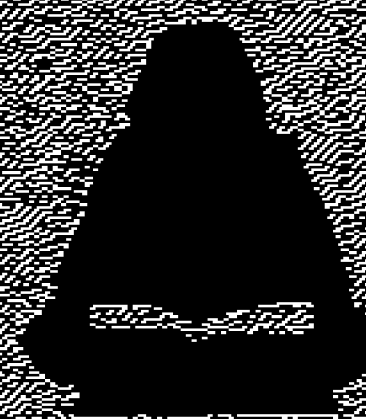


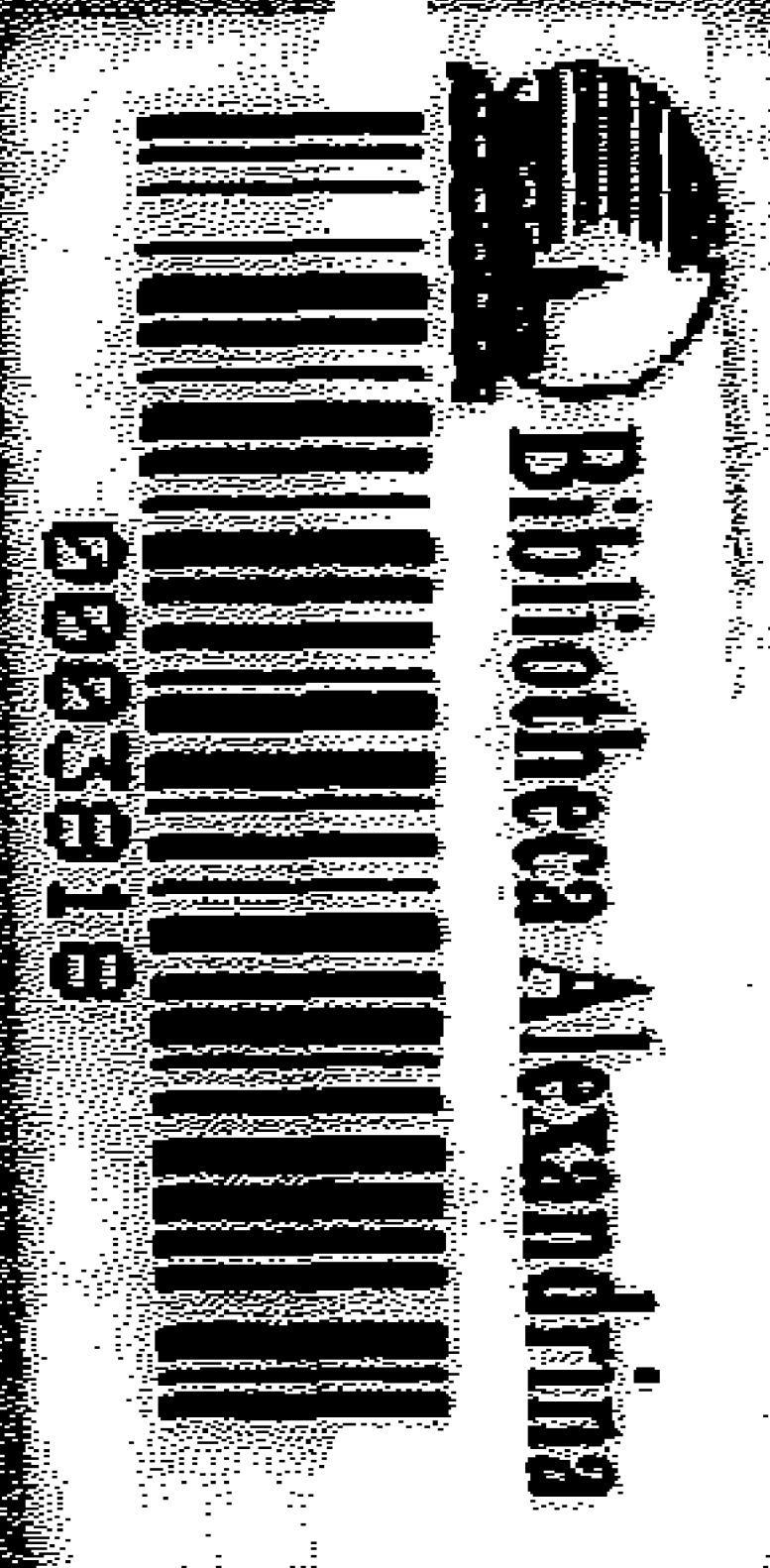
الألف كتاب (الثاني)

كتاب غَيَّرَ الفكر الإنساني

أحمد محمد الشنواني



الهيئة العامة للكتاب



كتب
غيرت الفكر الإنساني

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرحان

رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمسحى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

كتب غَيَّرَ الفكرَ الإنساني

أحمد محمد الشنواني



الهيئة القومية للمكتبات

١٩٩٠

● الإخراج الفني :

● فائق أحمد رضا

كتب غيّرت الفكر الإنساني

- | | |
|-------------------|------------|
| ● الكتب الخمسة | لكونفوشيوس |
| ● الجمهورية | لأفلاطون |
| ● أصول الهندسة | لاقليدس |
| ● القانون | لابن سينا |
| ● المقدمة | لابن خلدون |
| ● الأمير | لميكافيلي |
| ● التأملات | لديكارت |
| ● المبادئ | لنيوتن |
| ● روح القوانين | لمونتسكيو |
| ● ثروة الأمم | لآدم سميث |
| ● أصل الأنواع | لداروين |
| ● رأس المال | لماركس |
| ● النظرية النسبية | لاينشتاين |



بقلم الأستاذ / صبرى أبو المجد

● أبدت الكتب قوة هائلة من أجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى ، هذه مناقشة فاحصة لثلاثة عشر كتابا من أهم المؤلفات فى جميع العصور ، كان لها تأثير عظيم على الفكر الانسانى من أقدم العصور الى يومنا هذا .

وصفت هذه الكتب وصفا دقيقا واضحا فى هذا الكتاب الممتع سهل القراءة ، ومؤلفه هو ابنى وتلميذى أحمد محمد الشنوانى الكاتب الصغفى بدار الهلال ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب .

وها نحن ذا نقدم هذا الكتاب الذى قدم عرضا موضوعيا لكتب من عدة عصور تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة وأثرها على التقدم البشرى .

والغرض من هذا المؤلف الذى بين أيدينا هو توضيح القوة العاتية للكتب عن طريق مناقشة أمثلة معينة ، ولم تكن فى نية مؤلفنا تقديم قائمة « بأحسن الكتب » أو « أعظم الكتب » ولكن كان هدفه هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظم الأثر وأعظمه على الفكر الانسانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا .

والمؤلفات الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كثيرة ومتنوعة ، وفى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الانسانى نجد كتباً كان لها فضل الارتياح فى ميدانها ، وفضل المبادرة الى التأليف فيها ، على مدى التاريخ الانسانى الطويل .

ورواد المؤلفين منذ ظهر أول انتاج فكري مسطور مدون لا يحصى عددهم ولكل واحد منهم مجال اشتهر به ، ونبغ فيه ، وكان فيه أولا . جاء بعده أخلافة فزادوا عليه ، وءقوا أفكاره ووسعوا مجالاته ، ولكن فضل الكتاب الرائد بقى كما هو لم يحجبه من جاءوا بعده ، وساروا فى الدرب الذى سار فيه .

وكما قلنا ليس المجال مجال احصاء وحصر لهذه المؤلفات الرائدة ، فان هذا العمل تنوء أثقاله بالعصبة أولى القوة ، ولكنى عشت فى هذا الكتاب مع ثلاثة عشر من الكتب الرائدة تمثل عصورا مختلفة من تاريخ الفكر الانسانى وتمثل ألوانا مختلفة من الثقافة والفكر .

وعندما يستعرض المرء هذه الكتب الثلاثة عشر المحملة بالحركة ، يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل الكتاب الذى أحدث أثرا هائلا كان بسبب ما فيه أم لأن الوقت كان أرضا خصبة له ؟ ويغلب على الظن ان الزمن عامل هام فى صنع القوة المؤثرة للكتاب .

وبين أيدينا كثير من الأمثلة : فقد وضع ميكافيلي كتاب « الأمير » لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الأجنبى ، وكانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها التجارى والصناعى الى أقصى حدود تستطيعها عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب « ثروة الأمم » ولولا الأحوال القاسية السائدة فى الصناعة الأوروبية ولاسيما نظام المصانع الانجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر لما أحدث كتاب « رأس المال » لكارل ماركس كلى هذا الدوى .

وهناك كتب لم تحدث تأثيرها الكامل الا بعد سنوات وسنوات من نهرها ، فمثلا كان آدم سميث وكارل ماركس فى عداد الأموات عندما أدرك العالم أهمية كتابيهما !

ويتردد فى ذهنى سؤال عندما أتأمل قائمة الكتب التى اختارها مؤلفنا ، ألا وهو : كيف يمكن قياس التأثير ؟ ولما كان هدف المؤلف اختيار الكتب التى يمكن للحكم على آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة أو الأفعال ، فالقياس الصحيح لمدى التأثير هو ما أحدثه الكتاب من قوة معارضة أو قوة تأييد ، فاذا أثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا مماثلا من التأييد لوجهة نظره ، فالاحتمالات انه قد أثر تأثيرا عميقا فى تفكير الناس .

وأیضا عندما يستعرض المرء الكتب الثلاثة عشر بحسب ترتيبها التاريخى ، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف - حلقة الاتصال التى

تربطها معا . حقيقة لقد عبر عن هذا « هيتشينز » بقوله : يوجد هنا تقدم « المحادثة العظمى » وقد أخذ كوبرنيكوس الايحاء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيسوتن بدوره (وقف على أكتاف العمالقة) كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر وغيرهم ، وبدونهم ما كان لأنيشتاين أن يحدث أثرا . أما داروين فقد أعلن في صراحة أنه مدين الى عدد كبير من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس .

ان فائدة هذا الكتاب الذى بين أيدينا ان به تعريفا لأهم الكتب والكتاب يغرى جمهور المثقفين بقراءة الأصول ، ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل البهمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الملم جيدا وكذلك يسعف ذاكرة قارئ الأصول على تذكر ما وعى منها ودرس .

ان القارئ العربى فى حاجة ماسة الى هذا الكتاب الذى يقدم عصيرا مفيدا لكل تلك الكتب التاريخية ، كما يقدم زبدة المعارف الانسانية التى لا غنى عنها فى تكوين المثقف الذى يعيش فى القرن العشرين وما بعده ، ونأمل أن المؤلف الشاب يتحفنا بجولات أخرى مع كتب أخرى أحدثت فى التاريخ آثارا قوية .

وبعد ..

فهذا كتاب هو فى ذاته كتب جمعها المؤلف من خزائن الدنيا بنية الخدمة والنفع . وما أحوج المكتبة العربية الى كتب تصدر من أمثال هذا المؤلف الموضوعى المفيد ...

فليكن هذا الكتاب أول بذرة تلقى فى هذه الأرض الطيبة . وأقصى ما أتمناه أن يتلقاه القراء بالقبول لينتفعوا بقراءته . وأملى كبير فى أن يتلقف القراء هذا الكتاب الذى نجح فى أن يقدم ألوف الصفحات من الكتب التاريخية فى هذه الصفحات . وللمؤلف الشاب منى فى النهاية كما فى البداية كل شكر وتقدير لهذا الجهد البناء المخلص الذى أريد به الخير للناس ..

المقدمة

● ● كانت الكلمة بداية الانسان ، لانه بالكلمة أصبح الانسان انسانا... فاللغة... هي التي جعلت الانسان يتميز على بقية الكائنات ، فهي أعظم آلة ذهنية اخترعها الانسان أو يمكن أن يبتكرها في أي يوم من الأيام ، فهي أداة التخاطب والمعرفة والتفكير ، التي مكنت الانسان من أن يتعلم ويعلم ، ويتذكر ويتخيل ، ويبدع ويبتكر ، فنحن نقوم بهذه العمليات كلها من خلال اللغة التي تتألف من كلمات كل منها تسمى من المسميات المادية أو المعنوية .

هذه اللغة بكل هذا الجلال والخطر في حياة الانسان أي انسان هي واحدة من تراث الانسانية .

ولكى يعرف الانسان لابد أن يقرأ ، والمطبعة هي أم المعرفة : لها ثمانية وعشرون جنديا هي حروف من الرصاص ، تنفذ الى المعاني ، فتنتفض مغاليق الجهالة . وهذه الحروف تذوب في كتاب ، ثم ترسل اشعاعها عن طريق العين الى العقل والقلب ، فاذا الاشعاع نور الدنيا ، ولألاء الحضارات .

والكتاب في تحديده المادي هو مجمع الحروف والكلمات ، وفي تحديده المعنوي هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هذا الى ذاك عصارة الفكر ، ويجعل بين الكاتب والقارئ مشاركة روحية يختلف أثرها باختلاف قوة طرفيها .

وأقدم الكتب هو هذا الكون الذي ألفه الخالق وما برح الناس على

مدى الأزمان يقرءون سطورهم ويتملون معانيه ويتلقون عنه الوحي يسمو
بارواحهم الى عبادة ربهم الذى علم بالقلم .

وشاء الله بعد ذلك أن يوحى الى عباده بآيات الهداية والرشاد فكان
الكتاب مجموعة وصاياهم اليهم خطوها على ألواح من الحجر وعلى رق الحيوان
... ثم خطوا على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم

ان - وما زال - للكتاب شأن واى شأن فى جميع العصور
فهو حرز لا يتداوله الا الكهنة وخدام المعابد ، ثم هو شىء نفيس لا يقتنيه
الا الأمراء والزعماء . ثم هو أداة للتثقيف والتهديب تزخر به المكتبات
العامة والخاصة ويحتفى به طلاب العلم أولئك الذين تضع الملائكة
أجنحتها لهم .

وبالكتابة أخذ الانسان يدون على الحجر وعلى جلد الحيوان وعلى أوراق
النبات وعلى ما صنعت يده من نسيج صوف أو كتان ، محصولة من
المعرفة : ما تلقاه مشافهة ، وما تعلمه من تجربته ، وما هداه اليه تفكيره ،
وبالقراءة لم يعد فرضا على كل انسان (أو كل جماعة من البشر) أن
يبدأ معرفته من الصفر ، بل أصبح بوسعهم أن يستأنف من حيث انتهى من
سبقة . وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجا متصلا عبر القرون ،
يتعاقب النساجون وتتفاوت مهاراتهم ويتباينون تقليدا وإبداعا ، ولكن
النسيج لا ينقطع أبدا ما دب على سطح البسيطة بشر .



وهناك العديد من الكتب الهامة فى تاريخ الفكر البشرى والتي كان
لها أكبر الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللعالم من حوله ، بل كان
لبعض هذه الكتب أكبر الأثر فى ظهور ثورات غيرت الفكر الانسانى ،
كما كانت أيضا بمثابة اضافات للحضارة الانسانية .

ومن بين هذه الكتب نجد الثلاثة عشر كتابا التي نتحدث عنها فى
هذا الكتاب والتي كان لها تأثير كبير على التاريخ والاقتصاد والثقافة
والفكر العلمى ... عبر العصور ، وهناك بالطبع العديد من الكتب
الأخرى ذات الأهمية الفكرية الا اننا اخترنا عينات من هذه الكتب الهامة
التي ألقت أضواء جديدة على الانسان وعلى الكون .

فمن خلال هذه المؤلفات الكبيرة والتي ظهرت في أوقات متباينة
تتجسد القوى الهائلة لعالم الفكر والرأى على تقدم البشرية .

فكم من كتاب غير مسير الانسان
وكم من عظة أنجت أمة من ورطة
وكم .. وكم ..

ولهذا عمدت الى جمع بعض هذه الكتب النافعة للبشرية في هذا
الكتاب .

والله المستعان أن يحقق به الفوائد وهو حسبي وكفى .



(١) الكتب الخمسة

كونفوشيوس

الكتب الخمسة

لكنفوشيوس

٥٥١ ق م - ٤٧٩ ق م

● صاحب المدرسة الأخلاقية التي ساد نفوذها الشعب

الصيني أكثر من خمسة وعشرين قرنا !

يعد كونفوشيوس واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا في التاريخ البشرى بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم .
فقد كان حكيما وفيلسوبا سياسيا وأخلاقيا ودينيا ، وكان مؤسسا لمدرسة دينية ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا أو منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن العشرين .

ولا يمكن تفسير حقيقة ظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ على مسرح التاريخ البشرى تفسيرا كاملا ، ولكن بفحص ظروف حياتهم نستطيع على الأقل أن نزيد من قدرتنا على فهمهم .

ومما يصعب محاولتنا فهم كونفوشيوس هو ضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة التي تجمعت حول اسمه طوال القرون حتى صار من الصعب أن نعرف الحقيقة . وتنبعث مثل هذه التعقيدات . ان لم نقل

التحريفات ، عن عاملين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ، فمن ناحية يلاحظ ان المؤمنين به رغبوا في أن يمجّدوه ، ومن ثم قاموا بتلك الأعمال المخلصة مثل وضع تاريخ دقيق لتسلسل نسبه يرجعه الى الأباطرة . ومن ناحية أخرى فقد عمل أولئك الذين كانوا يرون أن مصالحهم مهددة من جانب هذا المفكر الثائر على احباط هجماته على الامتيازات الحصينة بتحريف وتمويه ما كان عليه أن يقوله ، وقد نجحوا في ذلك نجاحا جزئيا ، ومن ثم فان سبيلنا الآن هو أن نتغاضى تماما عن القصة التقليدية عن حياته وعن فكره وأن نثق في الأدلة القليلة التي يمكن انتزاعها من الوثائق التي يمكن اقامة الدليل على انها قديمة ويمكن الاعتماد عليها .

● سيرة كنفوشيوس وبيئته الاجتماعية والثقافية

يتكون اسم كنفوشيوس وهو الاختصار اللاتيني Confucius لاسم الحكيم الذي نتحدث عنه ، من لفظين : كنج Kung وهو اسم القبيلة التي ينتمي اليها الحكيم ، ثم فوتسي Fu-tze ومعناه الرئيس أو الفيلسوف ، فاسم كنفوشيوس اذن يعنى رئيس قبيلة كنج وفيلسوفها أو حكيما ، ولقد ولد هذا الحكيم سنة ٥٥١ قبل الميلاد في ولاية « لو » Lu وكانت الصين في ذلك الوقت تسير على النظام الاقطاعي ، فكانت منسمة الى ولايات وعلى رأس كل ولاية دوق أو وال يخضع للامبراطور كما كانت كل ولاية مقسمة الى مقاطعات على رأس كل منها نبيل . وكانت المقاطعات تؤلف كل ولاية في تطاحن مستمر فيما بينها ، فكل منها كانت تحاول التوسع على حساب الأخرى ، وكذلك كانت الحال بين الولايات : عراك مستمر بين الولاة الذين كان يحاول كل منهم التوسع على حساب الآخرين . وكانت الحوادث تؤرخ بالنسبة لحكم الولاة والنبلاء ، فمثلا ولد كنفوشيوس في السنة الثانية والعشرين من حكم هسيانج أمير ولاية « لو » ، وهي تقابل سنة ٥٥١ ق.م . ونشأ كنفوشيوس فقيرا في خدمة أحد الأمراء الذي كلفه برعى الأغنام . وتفانى كنفوشيوس في هذه الحرفة مما أدى الى زيادة انتاج الثروة الحيوانية في الولاية ، ومن ثم رقى بعد ذلك الى منصب مشرف على الحقائق العامة بالولاية ، ثم اضطر الى ترك مسقط رأسه لكي يتنقل في بعض الولايات المجاورة لانه شعر ان هذه الأعمال لا تناسب مواهبه ، وأخيرا أنشأ في سن الثانية والعشرين مدرسة لتعريف الشبان ذوى المواهب الخاصة بأصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية .

وكان تعليمه في تلك المدرسة كتعليم سقراط شفهي لا يابجا فيه الى الكتابة ، ولهذا فان أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وقد ترك الى الفلاسفة مثالا قل أن يعبأوا به - وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب اليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله في هذا المعنى : « اذ لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى في هذا ؟ فاني لا أستطيع أن أفعل له شيئا » . « اني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالافصاح عما يمكنه في صدره . واذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على انسان ، ولم يستطع مما عرضته أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فاني لا أعيد عليه درسا » . ولم يكن يشك في أن صنفين اثنين من الناس وهما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبي الأغبياء ، وان لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الانسانية بأمانة واخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد انسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح انسانا صالحا » .

وسرعان ما التف الناس حوله حتى استطاع أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا مدرسته ليشغلوا مراكز خطيرة وليصبحوا من قادة الفكر والسياسة في الصين القديمة ، كما كانوا هم الذين نقلوا آراءه فيما بعد . ولقد اتصل بفضل بعض تلامذته حوالي سنة ٥٢٤ ق.م بفيلسوف صيني آخر كان معاصرا له وهو « لا أوتسي » laotze وهو من أشهر فلاسفة الصين القدامى وهو الذي يعزى اليه المذهب أو الدين التاوي Taoism الذي يقوم على وجود Tao وهو القانون السماوي الأعظم ، وأصل الحياة والنشاط والحركة في السماء والأرض وهو الذي يبعث الحياة في الموجودات . ثم عاد كنفوشيوس الى « لو » مسقط رأسه ليستأنف التدريس هناك .

وكان كنفوشيوس معلما من الطراز القديم يعتقد أن التنائي عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما في وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح انه كان يزكي نفسه في بعض الأحيان . ويروي عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقالة فيها بعض التواضع : « قد يوجد في كفر من عشر أسر رجل في مثل نبلي واخلاصي ولكنه لن يكون

مولعا بالعلم مثلي ، . وقال مرة أخرى : « قد أكون في الأدب مساويا لغيري من الناس ، ولكن « خلق » الرجل الأعلى الذي لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل اليه بعد ، . « من وجد من الأمراء من يوليني عملا لقيت في اثني عشر شهرا بأعمال جلييلة ، ، ولبلغت « الحكومة » درجة الكمال في ثلاث سنين » . على أننا نقول بوجه عام انه كان متواضعا في عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرا من أربعة عيوب ، كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم في الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيدا أو أنانيا » . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ » . وكان يدعى ان كل ما يفعله هو أن ينقل الى الناس ما تعلمه من الامبراطورين العظمين « يو » و « شون » وكان شديد الرغبة في حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراعى على شيء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصبا رفيعا عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الانسان أن يقول « لست أبالي مطلقا اذا لم أشغل منصبا كبيرا ، وانما الذي أعنى به أن أجعل نفسى خليقا بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ولكننى أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفنى الناس ، .

وواتته الفرصة حين عين في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة جونج - دو وتقول الرواية الصينية ان المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان اذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد الى صاحبه . ولما رقا الدوق دنج دوق « لو » الى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة وأدخل اصلاحات جمة في الشئون الزراعية ، ويقال انه لما رقى بعدئذ وزيرا للجرائم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافيا لقطع دابر الجريمة . وفي ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استتحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والاخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودمائة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى . وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب » .

ان هذا الاطراء سواء كان خليقا به أو لم يكن فانه كان أرقى من أن يعمر طويلا . وما من شك في أن المجرمين قد يأترون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للايقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : ان الولايات القريبة

من « لو » دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو »
الناهضة . ودبر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفرق بها بين دوق
« لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشي بأن يبعث الى تنج بسرب
من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جوادا تفوق الفتيات جمالا .
وأمرت الفتيات والحيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (« وكان
قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة ») ،
فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة اهمالا معيبا واضطر كنفوشيوس
للاستقالة حاقدا على النساء اللاتي أدین الى القضاء على مجهوداته في اصلاح
الولاية ، اذ قال فيهن في كتاب الأغاني قبل تركه « لو » :

احذر لسان المرأة

انك لا شك ستلدغ منه ان عاجلا وان آجلا

واحذر زيارة المرأة

انها ستصيبك ان عاجلا وان آجلا

هى هو !! هى هو !! (علامة على التاوه من ألم ما أصابه من
النساء)

اننى سأرحل الى مكان آخر

ثم بدأ كنفوشيوس فى الارتحال والتجوال بين الولايات الصينية ،
وبدأ يتصل بالولاة ويقدم النصائح ويدرس للناس وينظر العلماء والأدباء .
ولما بلغ التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش
« لو » وأرسل ثلاثة من موظفيه الى الفيلسوف يحملون اليه ما يليق من
الهدايا بمقامه العظيم ويدعونهم الى موطنه . وقضى كنفوشيوس الأعوام
الخمس الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززا مكرما ، وكثيرا
ما كان يتردد عليه زعماء « لو » يستنصحوه ، ولكنه أحسن كل الاحسان
بأن قضى معظم وقته فى عزلة أدبية منصرفا الى أنسب الأعمال وأحبها اليه
وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين . وكان يسلى
نفسه فى وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع
عقله ، ومن أقواله فى ذلك الوقت : « لقد كنت فى الخامسة عشرة من
عمرى مكبا على العلم ، وفى الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع ، وفى سن
الأربعين زالت عنى شكوكى ، وفى الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء ،
وفى الستين كانت أذننى عضوا طيعا لتلك الحقيقة ، وفى السبعين كان فى

وسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك الى تنكب طريق
الصواب والعدل ، .

ولم يكد كنفوشيوس يختم حياته - توفى عام ٤٧٩ ق.م - حتى
انتشر تلاميذه فى أحياء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه ، التى لم تلبث
أن أخذت طابع القداسة وأصبحت دينا للصينيين .

❶ مؤلفات المدرسة الكنفوشية

لقد كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة فى الصين
فى القرن السادس قبل الميلاد . ذلك ان الصين كان بها حضارة يانعة
مزهرة فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية فى القرن العشرين
قبل الميلاد . وحدث بعد ذلك ان انحطت الأحوال فى الصين ابتداء من
القرن العاشر ، كما تغيرت اللغة الصينية تغيرا كبيرا فى تلك الفترة بحيث
أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة
الصينية العتيقة ، مما أدى الى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة
وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد ، لذلك ركز كنفوشيوس جهوده فى
نقل هذا التراث القديم الى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفا اليه أجزاء
لا شك فى أصالتها من الحكمة والمعرفة . وعلى ذلك درس كنفوشيوس
وعلم كتب السابقين عليه فى التاريخ والتغيرات التى طرأت على الأرض
وما عليها منذ أقدم العصور . . اعتمد فى هذا على الكتاب القديم المسمى
Yiking أو كتاب التغيرات ، واستمر سنين عديدة يدرس هذا الكتاب
الذى يرجع لسنين سحيقة ولا يعرف مؤلفه . ان جهد كنفوشيوس الأكبر
يظهر فى نقله التراث الصينى السحيق فى لغة بسيطة سهلة حتى يفيد
منها الصينيون فى عصره ويعيدوا مجد أسلافهم القدامى . لذلك كان
يتنقل ويرتحل باحثا عن الآثار والوثائق القديمة ومنقبا عن كل ما عسى
أن يساعده فى تقديم معلومات جديدة عن التاريخ الصينى السحيق . كان
يدرس التقاليد والعادات الدينية فى ولايات الصين المختلفة محاولا أن يصعد
بها الى أصولها الأولى ، ولقد أدت مجهوداته فى النهاية الى تأليفه للكتب
الخمسة أو الكلاسيكيات الخمسة Five classics . وهى مؤلفاته
التى يعرض فيها تاريخ الصين القديم وأصول ديانات الأسر الصينية القديمة
وعشائرها وأصول الحكم السياسى فيها والمبادئ التى كان يقوم عليها

النظام السياسى . كما درس ونقل مجموعات الأغنيات التى صدرت عن تشى اس ثم هو تشى ، وهما يمثلان الأجداد الخرافيين لأباطرة دولة تشو الصينية . كما درس فروع المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره ، وهى التى كانت تسمى بالفنون الستة وهى : الطقوس والموسيقى والرماية، قيادة العربات والجياد ، والقراءة وأخيرا الرياضة والحساب . وكان تلاميذ كنفوشيوس يلقبونه باسم « معلم الجنس البشرى » بل كانوا يعدونه أعظم معلم « أنجبته العصور » . وكانوا ينقلون آراء أستاذهم ويعلقون عليها ويشرحونها . وتألف عن ذلك مدرسة كبرى هى المدرسة الكنفوشوسية التى خدمت الصين أكثر من ألفى عام . لذلك تنقسم مؤلفات المدرسة الكنفوشوسية الى قسمين : قسم يسمى « الكتب الخمسة » وهى الكتب التى كتبها كنفوشيوس نفسه أو نقلها عن العصور السحيقة وأضاف إليها اضافات أصلية وهى كتب تحتوى على مذاهب السابقين على كنفوشيوس فى السياسة والفلسفة والدين والموسيقى . أما القسم الثانى ، فهو مؤلفات تلاميذ كنفوشيوس فى حياته أو بعد وفاته ، وفيها يعرض هؤلاء التلاميذ لآراء أستاذهم وفلسفته مع شرح وتعليق . وهذه الكتب الأخيرة مهمة جدا لأنها تعد المرجع الرئيسى للفلسفة الكنفوشية وان كانت معظم أجزائها منقولة عن الكتب التى ألفها كنفوشيوس . ولكن أهميتها ترجع الى أنها تهتم بآراء كنفوشيوس أكثر من اهتمامها بالآراء والتقاليد التى كانت سائدة فى العصور السحيقة . كما أنها تشرح الفلسفة الكنفوشية بشكل مبسط سهل يرقى اليه تفكير الرجل العادى .

وسنعرض فى شىء من التفصيل لهذه المؤلفات ثم ننتقل الى شرح منهجه وأسلوبه فى هذه الكتب والمؤلفات وبعد ذلك نتعرض لنواحي فلسفته كما وردت على لسانه فى كتبه الخمسة .

أولا : الكتب الخمسة القديمة التى ألفها كنفوشيوس بنفسه وهى المسماة باسم الكلاسيكيات الخمسة :

١ - كتاب الأغاني أو الشعر : وهو يحتوى على ثلاثمائة وخمسة من الأغنيات والتواشيح الدينية ، وذلك بجانب ستة تواشيح تغنى بمصاحبة الموسيقى ، وهى تعطى فكرة عن الأديان التى كانت سائدة فى الصين والفولكلور أو المرددات الشعبية الصينية فى العصور السحيقة .

٢ - كتاب التاريخ : وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها السحيقة ولا سيما الأوامر والمراسم الملكية والامبراطورية . وقد جمع كنفوشيوس فى هذا الكتاب أهم وأرقى ما وجدته

فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقايصى التى تسمى بها الأخلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين امبراطورية موحدة الى حد ما ، وحين كان زعماءها ، كما كان يظن كنفوشيوس ، أبطالاً يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

٣ - كتاب التغيرات : وهو يبين فلسفة تطور الحوادث ، وقد ألف فى الأصل للفادة منه فى التنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلية ، ولكن كنفوشيوس استطاع أن يحول « علم » التنجيم الى دراسة علمية للسلوك الانسانى وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن عن طريق هذه الدراسة التنبؤ علمياً بسلوك الفرد فى المستقبل . وكان كنفوشيوس يرى فى هذا الكتاب خير ما أهدهه الصين الى ذلك الميدان الغامض ، ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه فى فلسفته .

٤ - حوليات الربيع والخريف : وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة ، اذ قد عالج كنفوشيوس فى هذا الكتاب تاريخ الصين بالتفصيل أثناء قرنين ونصف من الزمان أو فيما بين سنتى ٧٢٢ و ٨٤١ قبل الميلاد .

٥ - كتاب الطقوس أو التقاليد : وهو يعالج النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر الملكية الشهيرة التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الصين فى العصور السحيقة ، كما يعالج عدداً كبيراً من العادات والتقاليد الدينية والسياسية الهامة فى حياة الصين فى العصور التاريخية البعيدة وذلك لاعتقاده ان هذه التقاليد والقواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس القديمة التى لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام .

ثانياً : الكتب التى كتبها تلاميذ كنفوشيوس :

١ - فصول من كتاب الطقوس « الأخلاق والسياسة » .

٢ - فصول من كتاب الطقوس « الانسجام المركزى » .

وهذان الكتابان عبارة عن أقوال مأثورة عن كنفوشيوس وأتباعه ومرجعهما الأساسى كتاب الطقوس مع تفسير هذه الأقوال .

٣ - المنتخبات وبه ملخص لأقوال كنفوشيوس فى المناسبات المختلفة كما سجلها تلاميذه .

٤ - منسيوس Mencius وهو مؤلف كبير يحتوى على سبعة كتب تعالج مذهب كنفوشيوس . ومن المحتمل أن يكون مؤلف هذه الكتب السبعة منسيوس نفسه وهو تلميذ روحى لكنفوشيوس وقد تتلمذ فعلا على تزيتس حفيد كنفوشيوس .

ولما كان كتاب المنتخبات يشتمل على ملخص لفلسفة كنفوشيوس بشكل أوضح منه نسبيا من الكتب الأخرى فقد انتشر بين تلاميذ المدرسة وأتباعها حتى عرف باسم انجيل الكنفوشية .

● منهج كنفوشيوس فى كتبه الخمسة

واذا رجعنا الى مؤلفات كنفوشيوس والمدرسة الكنفوشية ، الى الكتب الكلاسيكية الخمسة ثم الكتب الأربعة التى كتبها تلاميذه ، لوجدنا انها فى الجزء الأكبر منها مكتوبة على صورة أمثلة سائرة وحكم ومواعظ منفصلة بعضها عن بعض ولا تربطها أية رابطة . وهذا هو الفرق الجوهرى فى أسلوب الكتابة بين كنفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة ، فافلاطون مثلا يكتب على طريقة المحاورات ويستطيع القارئ لمحاورة منها كالجمهورية أن يتبين آراءه ومذهبه ، وأرسطو يكتب على طريقة المحاضرة فيعالج موضوعا أو عدة موضوعات متكاملة . أما كنفوشيوس فهو يذكر أمثلة وقصصا مسرودة الواحدة بعد الأخرى ولا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب . لذلك قد عرف كثير من العلماء كنفوشيوس بأنه الرجل الذى لا يتكلم الا بحكم وأمثال قصيرة منفصلة ، كما كان بعضهم يرى استحالة استخلاص مذهب ناسفى أو اجتماعى من تلك الكتب التى هذه حالها . ولكن العلماء الصينيين فى كل عصر من العصور ، ثم العلماء الأوروبيين قد استطاعوا بعد دراسة هذه الكتب استخلاص المذهب الفلسفى الكنفوشى واتجاهاته فى السياسة والاقتصاد والدين . . . وفى غيرها من المجالات الأخرى ، تلك هى السمة الأولى من سمات كنفوشيوس فى كتبه وسنورد بعضا من حكمه وأمثاله .

« الرجل الذى يخطئ ولا يصلح خطاه يرتكب خطأ جديدا ، الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق ، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول للحق أفضل مما يعشق الحق ، اذا وجدت شخصا يستحق

أن تتحدث معه ولم تخاطبه فانك تكون قد افتقدته ، وإذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فانك تكون قد أضعت كلامك سدى .

والرجل العاقل هو من لا يفتقد الرجال ولا يضيع كلامه سدى ، وسئل الحكيم مرة عن حكمه على شخص يحبه كل أفراد القرية ، فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم سئل عن رأيه في شخص يكرهه كل أفراد القرية فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم أضاف « ان الشخص الفاضل هو من يحبه الصالحون من أفراد القرية ويكرهه منهم الطالحون » .

« ان الانسان هو الذى يجعل الصدق عظيما ، وليس الصدق هو الذى يجعل الانسان عظيما » . وقال عن الكلام الجيد « ان الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول الا كلاما جيدا ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائما ذا أخلاق كريمة » . أى قد يكون منافقا . ويقول « ان الرجل العاقل لا يمدح الناس على أساس أقوالهم (بل على أساس أفعالهم) ولا ينكر الحقيقة اذا كانت صادرة عن شخص لا يرتاح اليه ، اذ الحقيقة جميلة أيا كان مصدرها » وسئل مرة عن صفات الحكم المثالى فأجاب « بأنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافيا ، وجيشا جرارا يحميهم ، وثقة عظيمة فى حكمهم » وسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة اذا دعت ضرورة الى ذلك فقال « أفضل أولا الاستغناء عن القوة أو الجيش » ثم سئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك فأجاب « أفضل الاستغناء عن الطعام ، اذ ما أكثر من ماتوا جوعا من الأفراد فى كل جيل منذ أن وجد الانسان ، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة فى حكمائها » . ويقول عن الفضائل وما يعترىها من نقائص « حب الانسانية بدون حب للدراسة يولد الجهل ، وحب العلم بدون حب الدراسة يؤدى الى الضلال وعدم الثبوت ، وحب الاخلاص بدون حب للدراسة يؤدى بصاحبه الى أن يكون ضحية الخداع ، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدى الى الرعونة التى لا حدود لها ، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدى الى التمرد ، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهى بصاحبه الى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة » . ويقول عن ثقافة الشعب : عندما أدخل قطرا من الأقطار أستطيع أن أعرف بسهولة نوع الثقافة السائدة فيه ، اذ عندما أجد فى الناس رقة الطبع والشفقة والبساطة فان هذا يدل على تعلقهم بالشعر ، وعندما يكون الناس واسعى الأفق ، عارفين لماضيهم فان هذا يدل على تمسكهم بالتاريخ . أما اذا كانوا كرماء متفاهمين بعضهم مع بعض ، فان هذا يدل على سيادة الموسيقى .

وإذا كان الشعب هادئا مفكرا ذا قوة وملاحظة فان هذا يدل على سيادة فلسفة التعبير . ولكن اذا ساد التواضع والاحترام والقناعة فى عادات الأفراد فان هذا يدل على سيادة تعاليم الله » .

أما السمة الثانية في أسلوب كنفوشيوس فهي استخدامه نوعاً من القياس المسمى بالقياس المتتابع ، اذ اتضح أنه ليس أرسطو هو أول مفكر استخدم منهج القياس المنطقي المتتابع ، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التي انتهى إليها القياس السابق عليه . وهذا المنهج يسيطر على جزء كبير من كتاباته ، ومن أمثلة ذلك القياس قوله : « اذا فهم الانسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فانه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردى والأخلاقى ، واذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردى فانه سيفهم كيف يحكم الناس ، واذا فهم كيف يحكم الناس فانه سيفهم كيف يحكم الأمم والامبراطوريات » . أو قوله عن الصدق : « ان الحق المطلق غير قابل للتخطيط ، ولما كان غير قابل للتخطيط فهو خالد ، ولما كان خالداً فانه موجود بذاته ، ولما كان موجوداً بذاته فهو لا نهائى ، ولما كان لا نهائياً فهو واسع وعميق ، ولما كان واسعاً وعميقاً فهو متعال وروحى . . . » . ويصف الطريق السليم الذى يجب أن يسلكه الحاكم حتى يكون فاضلاً بقوله : « لا مناص للرجل الذى ينتمى لطبقة الحكام من أن يكون ذا سلوك منظم فاضل ولكن لكى يكون ذا سلوك فاضل عليه أن يؤدى واجباته نحو ذوى القربى ولكى يؤدى واجباته نحو ذوى القربى عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الانسانى والقواعد التى يقوم عليها التنظيم الاجتماعى ، ولكى يفهم طبيعة المجتمع الانسانى عليه أن يفهم القوانين الالهية » .

● جوهر الفلسفة الأخلاقية عند كنفوشيوس

الأخلاق – فيما يرى كنفوشيوس هي المبدأ الرئيسى الذى يجب أن يكون أساساً لى نظام اجتماعى وسياسى مستقر ، فلا يتحقق نظام سليم الا اذا كان الأفراد الخاضعون له متحلين بالأخلاق الكريمة . ولا يستطيع حاكم أن يقيم نظاماً اجتماعياً كاملاً الا اذا عمل أولاً على تكميل أخلاق الأفراد أنفسهم ، فاذا شعر كل انسان بالانسجام الداخلى والراحة النفسية تسيطر على ذاته عمل على تثقيف نفسه وتجميلها بالمعارف التى تجعل منه مواطناً يفهم العادات والتقاليد والقوانين التى تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم يعامل مواطنيه وفق هذه القوانين ويسود الانسجام بين الناس . ولا تتم الأخلاق الكريمة للفرد الا بالتعليم والتربية التى تخلق منه مواطناً صالحاً والتى يكون عليها الاعتماد الأكبر فى تهذيب الأخلاق . وثمة شرط ثان

لانتشار الأخلاق الفاضلة التي هي عماد الحكم الصالح ، وهو أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة لأنه مثال لمواطنيه ، فاذا وصلت أخلاق الأفراد الى الكمال قامت الأخلاق مقام القانون ، لذلك كان الكنفوشيون يمتنون التشريعات والقوة كأساس للحكم السياسي . فهم يرون أن تهذيب أخلاق الناس عن طريق التعليم يجعلنا نستغني عن القوة وعن القانون والتشريعات والقضاء . ويقول كنفوشوس : « انك اذا قدت الناس وفق قوانين اجبارية وهددتهم بالعقاب ، فقد يحاولون اتقاء العقاب ، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف ، ولكنك اذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شئونهم بالتربية فان علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام » . وبذلك خالفوا المدرسة القانونية التي كانت ترى ان القوة لازمة لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، كما خالفوا المذهب الطاوي وهو مذهب « لا أوتسى » الذي كان ينادى بالسلبية المطلقة ، أى أن يعيش الفرد لنفسه وبأنفسه بدون أدنى تفكير في الآخرين . وسنرى كيف استخدم كنفوشوس الموسيقى والفنون في علاج نفسيات الأفراد وفي تقريب مشاعرهم بعضهم من بعض ، كما اهتم بالطقوس الدينية والعادات والتقاليد لأنها تقرب بين الأفراد وتؤلف بينهم وتجعلهم يشعرون بوحدتهم وتضامنهم . . . وكل ذلك يؤدي الى وجود الحب والانسجام بين المواطنين ، مما يؤدي بهم بدوره الى الاستغناء عن القوة وعن القانون في فض المشكلات وفي الزام الأفراد بالقانون الأخلاقي .

ولكن ما هو القانون الأخلاقي في فكر وفلسفة كنفوشوس ؟

ان هذا القانون هو قاعدة السلوك السليم القويم ، وهي القاعدة التي يلتزمها كل انسان في سلوكه ، ومصدر هذه القاعدة هو الله أو السماء فهو الذي شرعها ونظمها ، ومن ثم فهي لا تقبل التغير والتبدل . ولقد وضعت السماء جوهر هذه القاعدة في كل بناء بشكل كامل . ذلك ان الله قد منح كلا منا طبيعته العقلية ، وهي الطبيعة التي تجعلنا أحياء مفكرين . والقاعدة الأخلاقية ليست شيئاً آخر الا توجيه أفعالنا الانسانية بما يتفق وطبيعتنا العقلية الالهية . ومجموع القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوكنا وهي ما نسميها باسم الواجبات موجودة فينا ، ونشعر بها عندما نريد فعلا من الأفعال اذ نشعر انه أخلاقي ونغيز أخلاقي ، فالانسان اذا رجع الى نفسه عرف القانون الأخلاقي بكل جلاء ، ولكن قد يخطئ بعض الناس لجهلهم التفرقة بين الخير والشر ، لذلك كان التعليم ضروريا حتى يتقن الانسان الخلط بين الخير والشر اذا رجع الى نفسه يستشف منها القواعد الأخلاقية .

والقواعد الأخلاقية عند كنفوشيوس هي وسط بين الافراط والتفريط ، لان الطبيعة الانسانية تقوم على عنصرين : الذات الانسانية الحقة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقي كما يسميه كنفوشيوس ، ثم الانفعالات التي تستيقظ في النفس الانسانية . وهذه الانفعالات اذا استيقظت ونمت في الانسان بحيث لا تتعدى حدا معيناً في شدتها فانها تصل مع الذات الانسانية المحضنة الى حالة من الانسجام والاستقرار النفسى ، فالشخص قد يخشى الرذيلة ويبالغ في هذا الى حد التريث حتى يصل الى درجة تعلو على مستوى القانون الخلقى ويقع فى الرذيلة ، فالقانون وسط بين المغالة والتهاون . وهنا نجد كنفوشيوس قريباً مما سيقوله أرسطو عن الفضيلة وانها وسط بين رذيلتين .

والحياة الأخلاقية عند كنفوشيوس أشبه شئ بسفرة طويلة يقطعها الانسان بادئاً بأقرب نقطة فيها ، وعلى ذلك فالأخلاق الفاضلة تبدأ بين أبناء الأسرة الواحدة حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التي كان ينتظرها من والده . وكذلك تكون معاملة الأبناء للآباء والأمهات ، فالأسرة هي المكان الأول للتجربة الأخلاقية وهي النقطة الأولى التي تبدأ منها الأخلاق الفاضلة . وكما يقول كنفوشيوس فى كتاب الشعر :

**عندما تسود الألفة بين الزوج والأولاد والزوجة
فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تألفت أنغامهما !
وعندما يعيش الاخوة فى تألف وسلام
فحينئذ يظل المنزل الى الأبد فى وحدة وانسجام .**

فاذا حسنت أخلاق أفراد الأسرة ، ومعاملاتهم حسنت أخلاق المجتمع لأن المجتمع ليس الا امتداداً للأسرة ، ولاننا « اذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فان المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق » ، واذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على الشفقة والعطف ، واذا عملت كل أمة على اصلاح حالها فان الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الانساني بأسره . »



اذن كانت الأخلاق مطلب كنفوشيوس وهمه الأول ، وكان يرى ان الفوضى التي تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الايمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة الى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث

الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان من كتبه تعبران أصدق تعبير وأعماقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى :

« ان القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الامبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب نفوسهم ، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم الى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون الا بالبحث عن حقائق الأشياء . »

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الامبراطورية كلها هادئة وسعيدة . »

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الانسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » ، وأكمل مرشد للحياة الانسانية . ويقول كنفوشىوس : « ان العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ، والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لان الناس ينسون انهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا نفوسهم ، وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لانهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ، وقلوبهم غير طاهرة لانهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ، وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لان أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم الى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثا منزها عن الأهواء ، فليسع الناس الى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ، وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ، ولتطهير قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ، ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ، وليس

الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحت على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة صامته ، ولتنظيم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والاخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيا للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعى يتييسر معه قيام حكم صالح .

● طريقة الرجل الأعلى

واذن فالحكمة فى فلسفة كنفوشيوس تبدأ فى البيت ، واساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ، ولما سأله تزه - لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » فأجابه بقوله : « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام » ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءا جزءا - والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منها الحكيم . والانسان الكامل الاسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونيثشه والمسيح كما يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها ، وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر . . . وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة . . . وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح » .

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحبا للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ، « فاذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، واذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ، أما اذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة » . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الاخلاص ، « وليس الاخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى » . « انه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل » . ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك ان الرامى اذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليرى فيها عن سبب عجزه » .

« ان الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ، أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يذكر اسمه بعد موته » وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله . . . قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط فى انه سيصيب هدفه . . . والشئ الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه » . وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط » فى كل شئ ذلك ان « الأشياء التى يتأثر بها الانسان كثيرة لا حصر لها ، وإذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته الى طبيعة الأشياء التى تعرض لها » « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذ جميع الأجيال قانونا عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ » .



وعلى الحاكم أن يتحلى أيضا بالأخلاق لأنه مثال للأفراد ، وعليه فى هذا الصدد التزامات تسعة :

- ١ - أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق للأفراد العاديين .
- ٢ - أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه .
- ٣ - أن يتودد الى من تربطه بهم صلة القربى وأن يقوم بالتزاماته ازاءهم كاملة .
- ٤ - أن يجعل وزراء ولايته وامبراطوريته .
- ٥ - أن يعامل موظفى دولته بالحسنى .
- ٦ - أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى وأن يجعل من نفسه أبا للشعب .
- ٧ - أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها .
- ٨ - أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته .
- ٩ - أن يهتم برفاهية أمراء الامبراطورية .

ويجب ألا ينسى الامبراطور أو الوالى أن يستمع الى نصيحة الشعب لأن « ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه، وما يعتبره الشعب جديرا بالثواب والعقاب هو ما تعتبره السماء جديرا بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب . وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يرعوا ذلك ويتدبروه » . وكثيرا من العلماء وجد في هذا الكلام أساسا للديمقراطية السياسية التى نادى بها كنفوشيوس ، ونستطيع أن نقارن بين هذا القول وبين ما جاء على لسان الفلاسفة اليونان والرومان من أن صوت الشعب من صوت الله Vox Populi, Vox Dei . بل كان كنفوشيوس يعتبر أن الحكم تفويض من السماء أو الله للحاكم فهو خليفة استخلفه الله على الأرض ، وهذا التفويض ليس أبديا بل يمكن أن يسحب منه فى أى وقت لا يلتزم فيه بالقانون الأخلاقى لأن السماء لا تمنح التفويض الا للحكام الذين يتمسكون بالمثل الأخلاقية . ويقول فى هذا المعنى فى كتاب التاريخ : « ان توكيل السماء للحاكم ليس أبديا ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعا بهذا التوكيل الالهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير ، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم » . ثم يضيف الى ذلك : « ان بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة الله أو ارادته ، واردة الله هى ارادة الشعب فاذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فان الله العلى السامى ينظر اليه بعين الرضا ويوطد عرشه . أما اذا فقد حب الشعب وعطفه فان العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته » .

ذلك تلخيص الفلسفة السياسية والأخلاقية الكنفوشية ، ولكن المجتمع الذى نادى كنفوشيوس بوجوده مجتمع طبقي اذ كان يريد مجتمعا يوضع فيه كل انسان فى الطبقة التى تؤهله لها كفاياته ، فالناس مختلفون فمنهم الغنى والذكى ومنهم حسن الخلق وسيئه ، ويقتضى العدل الكنفوشى ألا يكون الناس فى منزلة واحدة . والقانون الأخلاقى يلزمنا أن نضع كل انسان فى مكانته ووفق صفاته وكفاياته وأخلاقه لأن « الله اذ وهب الحياة لمخلوقاته لا شك وهبها من النعم ما يتناسب مع صفاتها فهو ينمى الشجرة الممتلئة بالحيوية ، على حين انه يطيح بتلك التى قد يتطرق اليها الفساد . . . » ولكن طبقات كنفوشيوس ليست طبقات مقفلة على أصحابها بل هى طبقات مفتوحة يستطيع كل انسان أن يصل اليها ما دامت أخلاقه تؤهله لذلك . ولكل طبقة طقوس وعادات وتقاليد خاصة بها وأنواع من الاحترام والتبجيل خاصة بها ولها وضعها فى السلم الاجتماعى وذلك هو ال (لى) أو النظام الاجتماعى الذى نادى كنفوشيوس بتحقيقه .

● أهمية الموسيقى عند كنفوشيوس

ولقد اهتم كنفوشيوس بالموسيقى وكان يعتبرها من العمد الرئيسية التي يقوم عليها نظامه الاجتماعي ، وكان يستخدمها في علاج الأمراض النفسية كما فعل كثير من الفلاسفة القدامى وكما يفعل كثير من العلماء اليوم . فالموسيقى خاصة والفنون عامة ليست ترفا عقليا ، بل هي تلعب دورا اجتماعيا فعلا في اصلاح الحياة الاجتماعية . فالنفس الانسانية (والنفس والقلب عند كنفوشيوس شيء واحد) اذا تأثرت بالعالم الخارجي وما به من ظواهر طبيعية واجتماعية فانها تعبر عن هذا التأثير بأصوات تختلف في درجتها ونوعها حسب كل حالة على حدة ، أى تعبر عن التأثير بصوت ، واذا رتبت الأصوات بشكل معين نتج عنها النغم ، واذا رتبت الأنغام نتجت عنها الموسيقى . وفي القلب الانساني أوتار مختلفة كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وترا في القلب فان الانسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود في القلب يكون بائسا حزينا ، والنغم الذى ينتج عن وتر الاطمئنان يكون هادئا والنغم الذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشنا ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقا وهكذا . وهذه الأنغام تنتج اذن من التقاء الحوادث بالقلب الانساني ، فالموسيقى اذن تعبر عن النفس الانسانية وما يعترىها من انفعالات . ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهدى النفوس أو نشيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية ، وعلى ذلك نستطيع اصلاح النفوس بالموسيقى وترقيق مشاعر الأفراد وتحسين علاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض عن طريقها ، ومن ثم استطاع تدعيم التضامن الاجتماعي بين الأفراد عن طريقها ودراسة نفسية أى شعب ومدى تقدمه وتأخره ، اذ أن موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام موسيقى هادئة ، وبالعكس نجد موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى موسيقى مضطربة صاخبة . تؤدي الى القلق وعدم الاطمئنان ، وموسيقى الشعوب المغلوبة على أمرها موسيقى حزينة كثيبة مليئة بالمرارة والأسى . ولا تعكس الموسيقى النفس الانسانية فحسب ، بل هي تعكس النظام الكونى كله .

وقصارى القول هنا ان الموسيقى تمثل بأنغامها المختلفة كل شيء فى الوجود والمجتمع ، ويستطاع عن طريقها اصلاح ما اعتل من شئون هذا العالم سواء الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية أو الفردية . لذلك - كما

يقول كنفوشيوس - يجب على الأفراد أن يتعلموا الموسيقى لأنها تؤدي بهم الى مداواة أنفسهم من الأدواء وتجعلهم أقرب الى فهم القانون الالهى والقانون الأخلاقى ومن ثم تجعلهم أقرب الى الفضيلة .



تلك لمحة سريعة عن كتب كنفوشيوس الخمسة وما أدت اليه من كتب أربعة كتبها تلاميذه ومحتويات هذه الكتب ، وهكذا نرى أن كنفوشيوس يعتبر من أعظم من كتب فى سياسة الأمم والجماعات ووضع القواعد التى يراها مؤدية لسعادة الجنس البشرى . فقد رسم بكل تفصيل ودقة كل ما ينبغى للفرد ، كل فرد ، أن يحصله ويتعلمه ويجيده لكى يجعل من نفسه « الانسان الكامل » ورسم بكل دقة وتفصيل ، كل ما يلزم لتنظيم علاقات أفراد الأسرة الواحدة ، لكى تكون أسرة سعيدة وناجحة .

ورسم أيضا باسهاب وفى غير ملل أو كلل ، كل ما يلزم للحاكم وجهاز الحكم ، من مبادئ وقواعد ونظم لكى يتحقق ما نسميه اليوم مجتمع الرفاهية والعدل . ويمكننا تلخيص تعاليم كنفوشيوس التى ملأت عشرات المجلدات ومئات الكتب فى كلمة واحدة هى « الانسانية » .

فالفضيلة بالنسبة للانسان هى أن تحب الناس ، والحكمة فى أن تفهمهم . واذا كانت الأسرة هى صورة المجتمع ، فإن الجنس البشرى كله يؤلف أسرة واحدة ، ويقول أحد تلامذته : ما بين البحار الأربعة ، جميع الناس اخوة .

● « أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية »

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحا كاملا . لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حبيبتها الى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لاصرارته على تحقيقها .

واذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد الاستمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا الى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الامبراطورية بأجمعها . وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس

فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها منشيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية في الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التي تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعي في العصور المظلمة التي تلت سقوط روما .

وكانت في البلاد طائفة أخرى هي طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتا ما آراء كنفوشيوس في عالم السياسة ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها في بعض الأحيان .

ومن أقوالهم في الرد على كنفوشيوس ان نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذي تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار ، اذ ليس في التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التي تسترشد في أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون ان الحكم يجب أن يستند الى القوانين لا الى الحكام ، وان الناس يجب أن يرغموا على طاعة القوانين حتى تصبح اطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغا يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فانهم لا يصيبون الرخاء الا تحت حكم جماعة من الأشراف .

هذه الآراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت الى الظهور مرة بعد مرة في تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شي هوانج - دى صاحب الحول والطول يعاونه رئيس وزراء من طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجودا وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الامبراطور الأول » من نتيجة الا أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قديمة ، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليها . حتى اذا انقضى عهد شي هوانج - دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش امبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعين العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة « هان » ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه

الحكمة فى برامج تعليم الشبان الصينيين وفى الحكومة • وقربت القرايين
تكريما لکنفوشيوس ، وأمر الامبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة
على الحجارة ، وأصبحت الکنفوشية دين الدولة الرسمى •

ولما جلس على العرش تاي دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل
لکنفوشيوس فى كل مدينة وقرية فى جميع أنحاء الامبراطورية ، وأن
يقرب له فيها القرايين العلماء والموظفون • وفى عهد أسرة دزونج نشأت
مدرسة قوية للکنفوشية الجديدة أضافت شروحا وتعليقات لا حصر لها
على الكتب الکنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر
وما أضافته اليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى
اليابان نهضة فلسفية قوية • وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدأ قيام
أسرة هان الى سقوط أسرة منشو - أى ما يقرب من ألفى عام - تسيطر
على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها •

والفلسفة الکنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ، ذلك أن
كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس
الدولة الصينية ، يكاد كل صبي يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن
ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم
فى قلوب الصينيين ، وسرت فى ذمائمهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية
كرامة وعمقا فى التفكير لا نظير لهما فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ،
واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة
متألفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجابا شديدا بالعلم والحكمة ، وأن
تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها
من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت
بلادها •

فهل فى مقدور انسان أيا كان شأنه أن يسيطر بفكره وفلسفته على
تفكير أمة كالأمة الصينية أكثر من عشرين قرنا من الزمان كما فعل
کنفوشيوس العظيم •



(٢) الجمهورية

أفلاطون



الجمهورية

لأفلاطون

ح ٤٠٠ ق م

« البحث عن سعادة البشرية »

لقد كثر الفلاسفة المتشائمون من وصف الحياة وذمها ، فقالوا :
انها حياة شقاء أولها عناء ، وآخرها فناء ، حتى انه قيل لأرسطو مرة :
« صف لنا الدنيا ! » فقال : « ما أصف من دار أولها فوت ، وآخرها موت ؟
كأن الحياة هي سجن العاقل وجنة الجاهل وكأنها جسر نعبره ولا نعلمه ،
أو كأنها مزرعة ابليس ، والأشرار لها حراثون » . فالتشائم لا يعتقد ان
المدينة السعيدة موجودة على الأرض ، ولا يثق بصلاح الانسان بل يزهد
في الحياة لكثرة شرورها ، ويعرض عنها ، ويرغب في سعادة الآخرة ،
وعدالة ملكها القادر على فصل الخير عن الشر .

على أن طائفة من الفلاسفة المتفائلين تصوروا امكان هذه المدينة
السعيدة ، فحلموا بها ، وتخيلوها تحت تأثير الشرور والمفاسد التي

شاهدوها في زمانهم ، فعدد أفلاطون في جمهوريته شرائط الفردوس الأرضي ، ونسج كثيرون من المفكرين على منواله ، فألف الفارابي مدينته الفاضلة في القرن العاشر للميلاد ، وتصور توماس مور مدينته الخيالية في القرن السادس عشر ، واتبعهم كامبانيلا (١) في مدينة الشمس ، باحثين كلهم عن شرائط الحياة المثلى ، التي تقرب حياة الدول والأفراد من أسباب السعادة الحقيقية ، فهم يعتقدون ان في وسع الانسان أن يجد شيئاً من السعادة في هذه الدنيا ، وان في وسع الدول أن تصلح شرائطها ، وتبنى قوانينها على العدالة وتعطى كل ذي حق حقه .

ومن أوائل المفكرين الذين تصدوا للبحث عن المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية كان أفلاطون مؤلف الكتاب الذي نحن بصددده وهو كتاب « الجمهورية » .

والواقع أن أفلاطون من أنبغ نوابغ الفكر ، وأول الفلاسفة ، وأشهر الحكماء ، وهو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة فكانت الأكاديمية احدى مدارس أربع أثرت أعظم الأثر في الحضارة القديمة . وقد ظلت مدرسته قائمة في أثينا حيث أنشأها تسعة قرون حتى أغلق الامبراطور جستنيان أبوابها وطرده فلاسفتها ، ثم استمرت الأفلاطونية مؤثرة في الفكر حتى الوقت الحاضر . وقد قيل ان الفلسفة قد بنيت على يديه واكتملت في حياته ، وذلك لأنه ضرب من كل فن ، وطرق كل باب ، وبحث في كل علم ، وأرسى قواعد الفلسفة ، وشيد قوائم العلم ، وهو أول من كتب في المدينة الفاضلة ، وأول من حاول اصلاح المجتمع بتطبيق الفلسفة على السياسة ، وأول من حلل النظم الاجتماعية وعرف طبائعها .

والاجماع منعقد على أن الحضارة الغربية ثمرة الأفلاطونية ، فقد تسربت الى المسيحية وصبغت بالمثالية ، وثبتت قواعدها ، وتعلمها جاليليو فوضع علم الفلك الحديث ، وسار العلم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم على سنة التفسير الرياضي الذي ذهب اليه أفلاطون .

وكذلك تسربت الأفلاطونية الى الحضارة الاسلامية ، واتجهت في أول أمرها وجهة أفلاطونية قوية تبدو في الكندي وفي الفارابي صاحب الجمع بين رأيي الحكيمين ، والذي كتب في المدينة الفاضلة متأثراً خطى

(١) كامبانيلا : فيلسوف ايطالي (١٥٦٨ - ١٦٣٩ م) .

صاحب الأكاديمية • واليوم تجد الأفلاطونية شائعة بين الناطقين بالضاد ، فنحن نقرأ عن الحب الأفلاطوني ، والبحث الأكاديمي ، والتفكير المثالي ، وغير ذلك مما يجرى على كل لسان ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنه قد لا يعرف ما وراء ذلك في فلسفة تنادى بهذا الضرب من الحب ، أو هذا اللون من البحث ، أو هذا اللون من التفكير •

❶ حياة أفلاطون

ولد أفلاطون في شهر مايو سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ، وعاش حتى بلغ الثمانين وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ، وكان مولده في جزيرة قريبة من شاطئ أتيكا لا تبعد كثيرا عن أثينا تسمى « ايجيتا » حيث استقر فيها مؤقتا أبوه أرسطون •

ويزعم قدماء الرواة أن اسمه كان في الأصل أرسطوقليس ، ثم لقب بعد ذلك بلقب اشتهر به هو أفلاطون : أي عريض الجبهة ، أو الاكتاف ، أو الصدر ، أو الفكر والأسلوب •

وهو من ناحية الوالدين شريف النسب ، فأبوه أرسطون ينحدر من صليب قودرس آخر ملوك أثينا الأقدمين والذي حقق النصر لشعبه على الدوريين وهزمهم في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ويزعمون أنه من نسل الاله بوزيدون • أما أمه « فاريقطيوني » فهي من أسرة حكام أثينا ومشرعيها وتمت بالصلة الى صولون(٢) المشهور ، وكان أفلاطون يعتز بنسبه فسجله في محاوراته ، تعرفنا الشيء الكثير عن آبائه من هذا الطريق •

وقد عاش أفلاطون طيلة حياته مؤمنا بأن صلاح الدولة في اقتران الفلسفة بالسياسة واتصاف الحاكم بالحكمة • وقد نشأ في بيت من الحكام ، وكان أجداده من الملوك والمشرعين ، فلا غرابة أن ينسج على منوالهم ، ولكنه أضاف الى السياسة المأثورة شيئا جديدا هو الفلسفة •

(٢) صولون : مشرع أثيني ذاع صيته كشاعر حتى أصبح واحدا من حكماء الاغريق (٦٣٦ ق م - ٥٥٩ ق م) •

وينبغي أن يستقر في أذهاننا من أول الأمر أن أفلاطون لم يكن من الفلاسفة الذين كانوا يعيشون في برج عاجي ، أو يفهمون الفلسفة على أنها البحث عن الحقائق الميتافيزيقية المجردة بصرف النظر عن صلتها بالحياة العملية .

ومع أن الرواة يملكون في صمت على طفولة أفلاطون ، إلا أننا نستطيع أن نتصور أنه تعلم كثيره من صبيان الاغريق القراءة والكتابة ، وحفظ شعر هوميروس ، ومبادئ الحساب والهندسة والموسيقى ، وأنه تعلم الغناء والعزف على القيثارة وكذلك الألعاب الرياضية .

ويقال انه هوى من الفنون الجميلة ومارس في صباه النقش والتصوير والنحت وقرض الشعر وكتابة التمثيليات ، فهو في كثير من محاوراته يستعمل لغة الفنانين واصطلاحاتهم وينقدهم نقد الخبير . ويروى القديس انه حين قابل سقراط أحرق التمثيليات التي كان قد كتبها وانقطع منذ ذلك الحين الى الفلسفة .

وأهم شخصية أثرت في تفكير أفلاطون هو سقراط ، فقد كان من جملة أصحابه وأصدقائه لان سقراط لم يكن صاحب مدرسة بالمعنى المفهوم من كلمة « مدرسة » . وقد بين لنا أفلاطون مدى علاقته بأستاذه فقال : « حين كنت شابا توقعت كما يتوقع في الغالب الشباب أن أشارك في الحياة العامة للمدينة عندما أبلغ الرشد . وقد شهدت من التطورات في الموقف السياسي السخط العام على الدستور القائم . ثم حدث تغيير أدى الى استيلاء واحد وخمسين شخصا على السلطة ، بقي عشرة منهم في أثينا ، وأحد عشر في بيرايوس ، ولم تقف سلطتهم على مباشرة الحال في الأسواق فقط بل على العناية بجميع شئون المدينة كذلك . أما الثلاثون الآخرون فكانت لهم على الجميع سلطة مطلقة ، وكان منهم بعض أقربائي وأصدقائي ، فدعوني الى الاشتراك معهم باعتبار أن هذه الأعمال من جملة ما يشتغل به أمثالي ولكنني تبيننت بعد قليل أن مسلكهم جعل الدستور القديم بالنسبة الى حكمهم ذهبيا ، هذا الى أنهم أرسلوا صديقي القديم سقراط الذي لا أتردد في القول بأنه أعدل رجل في عصره للقبض على مواطن في المدينة فلما رأيت جميع هذه الأحداث وغيرها من الجرائم التي لا يمكن غض النظر عنها اشمأزت نفسي وانسحبت من شرور ذلك الزمان » .

ويذكر أفلاطون بعد ذلك كيف رغب بعد سقوط حكومة الثلاثين في المشاركة في السياسة وفي الحياة العامة لولا أن عمل بعض الحكام على تقديم « سقراط صديقي وصاحبى الى المحاكمة باتهام من أفضح الاتهامات

وأبعدها عن الانطباق على سقراط ، اذ حوكم بتهمة الالحاد ، وحكم عليه بالموت ، ونفذ الحكم فيه ، .

ويصور لنا أفلاطون الأحوال السياسية التي ساءت في تلك الأيام وموقفه منها ، واشتمزاز نفسه من مفسادها ، سواء من جهة الاحكام أم من جهة القوانين والتقاليد ، ولم تكن الحال في أثينا أحسن من غيرها من المدن فجميعها في الفساد سواء ، ولذلك فهو يقول : « لن يخلص الجنس البشرى من متاعبه الا بأن يستولى المشتغلون اشتغالا حقيقيا بالفلسفة على السلطان السياسى أو بأن يصبح أصحاب السلطان في المدن فلاسفة حقيقيين » . وهذا هو المحور الذى دارت عليه فلسفة أفلاطون وهو العمود الفقري في مدينته الفاضلة نعنى : الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم .

رحل أفلاطون بعد موت سقراط الى أقليدس(٣) في ميجارا ومكث عنده طويلا ، وتواترت الروايات على أنه رحل بعد ذلك الى مصر ، فهذا شيشرون(٤) يذكر أنه زارها مما يدل على أن الرواية قديمة وانها كانت متداولة في الاكاديمية بعد موت صاحبها بمائتي عام . ويذكر سترابون(٥) أنه زار المنزل الذى كان يعيش فيه أفلاطون في مصر ، وذلك بعد ثلثمائة عام من موته . ومما يؤكد هذه الروايات اهتمام أفلاطون بمصر بوجه خاص ، ومعرفته الشيء الكثير عنها ، ووصفه لأمر تدل على الرؤية والمعاناة ، مثل آثارها وفنونها ، ونظم التعليم السائدة فيها ، والعلوم التي اشتهرت بها وبخاصة الرياضة .

ثم رحل من مصر الى تورينا في شمال افريقيا حيث لقي ثيودورس الرياضى الذى ذكره أفلاطون في ثلاث من محاوراته ، وتوجه بعد ذلك الى تارنتوم في جنوب ايطاليا ، وكانت معقل الفيثاغوريين حيث لقي زعيم المدرسة الرياضى أرخيتاس الذى لعب دورا كبيرا في تفكير أفلاطون ، فرأى فيه الصورة العملية للحاكم الفيلسوف ، وأخذ عن مدرسته كل ما يخرج عن مسائل السلوك والأخلاق ، وهذه المسائل هي خلود النفس والرياضة بفروعها : العدد والهندسة والموسيقى . وهكذا أشبع أفلاطون رغبته في الاتصال بالفيثاغوريين والارتشاف من مناهل علومهم .

(٣) أقليدس : رياضى يونانى نشأ بالاسكندرية في عهد بطليموس . وازدهر ح

٣٠٠ ق م .

(٤) شيشرون : خطيب وكاتب سياسى روماني (١٠٦ ق م - ٤٣ ق م) .

(٥) سترابون : جغرافى ومؤرخ يونانى (٦٤ ق م) .

وفي عام ٣٨٧ ق.م وقد بلغ أفلاطون الأربعين ، أسس في أثينا أول وأقدم جامعة في العالم ، وهي الأكاديمية التي ظل يشرف عليها عشرين عاما ، وكان يبغي من تعليمه في هذه الأكاديمية هدفا سياسيا هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية في أنحاء بلاد اليونان .

ويذهب بلوتارخ أن أفلاطون لم يترك لنا مجرد مذهب نظري في السياسة بل تعدى ذلك حين أخرج سياسيين ومشرعين أمثال « ديون » من صقلية و « بتون » و « هيراقليد » في ترافيا و « أودوكس » وأرسطو اللذين شرعا قوانين لكنيدوس واسطاغيرا .

ولقد عنى الباحثون بمحاورات أفلاطون وصنفوها تصنيفات مختلفة . غير أن أهم هذه التصنيفات ما اعتمد على تطور لغة أفلاطون على مدى حياته الطويلة فرتبت الى ثلاث مجاميع ، مجموعة محاورات الشباب ويدور أكثرها حول حياة سقراط وآرائه ومجموعة النضج ومجموعة الشيخوخة وفيهما تطورت نظرياته عما كانت عليه في عهد الصبا .

أما محاورات الجمهورية فتعد أهم ما كتب أفلاطون لما تضمنته من نظريات مختلفة ارتبطت لتكون نظرة عامة لحياة الانسان والمجتمع ، وكان لها في تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم ير مثله كتاب من كتب الفلسفة .

● موضوع محاورات الجمهورية

غاية بحث أفلاطون في هذه المحاورات هو تحديد صورة الدولة المثالية التي تتحقق فيها العدالة .

ولما كانت العدالة فضيلة النفس الفردية كما هي نظام يتعلق بالدولة فقد اقتضى بحثه تفسير طبيعة الانسان وتكوين الدولة على حد سواء حتى يمكن تحديد الظروف الواجب توافرها لكي تتحقق العدالة في كل منهما .

ويجد قارىء محاورات الجمهورية ان البحث عن العدالة وشروط تحققها في المجتمع المثالي يستغرق سبعة أبواب من الأبواب العشرة التي يتكون منها الكتاب .

ثم يعرض أفلاطون لتفسير مصادر الفساد الذى يصيب الدولة والفرد ويقابل بينه وبين دولته المثالية وأخلاق مواطنها المثالى وبين الدولة الفاسدة التى تفسد فيها أخلاق المواطنين ، ويضع أفلاطون قانون تدهور التاريخ من الدولة الصالحة الى الصورة الفاسدة ، ويستغرق بحث هذا الموضوع البابين الثامن والتاسع من الكتاب .

وفى الباب العاشر والأخير من الكتاب يختتم أفلاطون حديثه عن العدالة بتأكيد قيمتها وما يترتب على وجودها من خير للمجتمع وللأفراد ويقدم نقده للفن ويبين الأسباب التى من أجلها حكم على شعراء التراجيديات وهوميروس بالطرد من مدينته الفاضلة ويصف ما ينتظر النفوس من حساب عادل فى العالم الآخر .

هذا مجمل الموضوعات التى وردت فى محاوراة الجمهورية ويمكن تلخيصها فيما يلى :

- تعريف العدالة وشروط تحققها فى الدولة وفى الفرد ويستغرق تقريبا من الباب الأول الى الباب السابع .
- مصادر الفساد فى الدولة وفى الفرد ويستغرق البابين الثامن والتاسع .
- آراؤه فى الفن وفى النفس الانسانية ويستغرق الباب العاشر .

● العدالة وشروط تحققها فى الدولة والفرد

(أ) الآراء المختلفة فى العدالة :

يعد الباب الأول من الجمهورية بمثابة مقدمة للمحاوراة ، وحين يستطرد الحديث الى السؤال عن العدالة تتضح لنا ثلاثة آراء مختلفة تعبر عن مواقف ثلاثة متباينة من مشكلة العدالة هى رأس كيفالوس الشيخ وابنه بوليمارخوس ويمثل رأى السائد عند عامة الناس ، ثم رأس تراسيماخوس السفسطائى ويمثل المذاهب الجديدة فى الأخلاق والسياسة

وهو الرأى الذى يعارضه سقراط والذى يمثل رأى أفلاطون وموقفه المثالى
الأرستقراطى فى العدالة .

ويدور الحديث فى محاوره الجمهوريه بأسلوب روايه يرويها سقراط
لمستمعين غير معروفين عما جرى فى اليوم السابق عند بوليمارخوس بن
كيفالوس حيث التقى هناك بعدد من الشخصيات بعضها معروف وبعضها
غير معروف مثل كيفالوس الشيخ الثرى وأبنائه ومنهم بوليمارخوس الذى
سيروى حديثه فى المحاوره ، ومن الحضور أيضا السفسطائى تراسيماخوس
اخوا أفلاطون أديمانتوس وجلوكون ابنى أريستون .

وحين يتطرق الحديث عن العدالة يتقدم بوليمارخوس بن كيفالوس
بتعريف استمدته من الشاعر سيمونيدس فيقول ان العدالة تقضى بأن يرد
الانسان لكل ماله .

ويوضح هذا التعريف فيقول ان العدالة هى معامله كل حسب
ما يستحق ، أو معامله الأصدقاء بالخير ان كانوا أحيارا والأعداء وهم
الأشرار بالشر .

ورغم التعديلات التى يضيفها بوليمارخوس تحت ضغط مناقشة
سقراط يرفض الجميع هذا التعريف لانه ينطوى على تناقض ، اذ كيف
يضر العادل أعداءه وبمعنى آخر كيف يقترب العادل ظلما بعدالته ؟

وسرعان ما يتدخل فى الحديث تراسيماخوس الذى يمثل الآراء
الجديدة المتطرفة فى السياسة ، فيعترض معلنا ضيقه من جدل سقراط
وتلاعبه بالألفاظ ويقدم تعريفا ثانيا للعدالة ، وهو تعريف ينطوى على
مبدأ سياسى أخذت به دولته الأثينية التى توسعت فى سياسة الاستعمار
وفرضت الحق بالقوة على جميع مستعمراتها ، فيقول : « ان العدالة ليست
سوى العمل بمقتضى مصلحة الأقوى . » ويفسر تراسيماخوس معنى الأقوى
بقوله ان الحاكم يفرض على المحكوم مصلحته والعدالة هى ما تفرضه ارادة
الحاكم أو الأقوى . لكن مثل هذا التعريف انما يفيد أن العدالة متغيرة بتغير
نظم الحكم وانها نسبية لظروف الحكام فى الدول المختلفة ، ومثل هذا
التفسير انما يقترب كل الاقتراب من فلسفة السفسطائيين معارضى
سقراط وأفلاطون وعلى رأسهم بروتاجوراس القائل ان الانسان هو مقياس
كل شيء .

وفى مقابل هذه المذاهب النسبية الواقعية من الأخلاق يأتى سقراط
وتلميذه أفلاطون بفلسفة مثالية تؤكد أن للقيم الأخلاقية وجودا ثابتا

لا يتغير من زمان لزمان أو مكان لمكان كما أنها مطلقة لا تحتمل أى تغير أو تبديل .

ويبدأ الباب الثانى بتدخل شخصية أخرى تؤيد مذهب تراسيماخوس هى شخصية جلوكون الذى يسترسل فى بيان ما يعتقده عامة الناس عن العدالة ، فيقول ان الناس لا ترغب فى العدالة لذاتها ولا يلتزمون بها الا مجبرين حتى لا يصيبهم أذى من غيرهم ان عرفوا بالظلم .

وهنا يتحفظ سقراط للرد على هذا الرأى لكى يثبت لهم العكس وهو ان للعدالة فى ذاتها قيمتها وانها الخير الوحيد للنفس الانسانية وبها وحدها يدرك الانسان السعادة .

ويحثه جلوكون وباقى الحاضرين على اقناعهم بأن العدل خير من الظلم وأليق بالانسان . وتخطر لسقراط فكرة قمينة بأن تهديه الى سبيله فى شرح رأيه فى العدالة فيقول لنفرض ان قوما من ضعاف البصر أرادوا أن يقرأوا لوحة مكتوبة بالأحرف الصغيرة وأن أحدهم وجد المكتوب فيها مكبرا فى لوحة كبيرة ، ألا يشير عليهم بأن يقرأوا الكتابة مكبرة ثم يعودون الى مقارنتها فى النقش الصغير ؟ اننى سأتابع نفس الطريقة فى بحثى عن العدالة .

أليست العدالة موجودة فى الدولة كما هى موجودة فى الفرد ؟ أليست الدولة أكبر من الفرد ؟ وما دام الأمر كذلك فسيكون من السهل علينا أن نتبين سماتها وطبيعتها عندما ننظر اليها فى الدولة وبعد ذلك تقارنها بالعدالة فى الفرد لنجد التشابه بين الصورة المكبرة والصورة المصغرة .

(ب) العدالة فى الدولة :

لنبحث أولا كيف تنشأ الدولة لنرى بأى الطرق يمكن للعدالة أن تتحقق فيها ولقد سبق ان ذكر أفلاطون كيف نشأ المجتمع الانسانى وتطور وأظهر فى محاورتى السياسى والقوانين حنينه الى العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه الانسان فى بساطة لا تعرف التعقيد ويعول على الطبيعة فى كل شيء . وفى محساوره بروتاجوراس يذكر على لسان السفسطائى بروناجوراس أسطورة يفسر بها كيف تطور الانسان من الحياة البدائية الى الحياة المدنية فيروى ان الآلهة بعد أن وزعت المواهب على أنواع الحيوان المختلفة لم تبق للانسان شيئا من المواهب والقوى الطبيعية ، ولكن الاله بروجميشيوس حامى الانسان وراعيه سرق له النار والفنون العملية وعلمه

استخدامها ليدافع عن نفسه ويستطيع البقاء . لكن المعرفة العملية لم تكفه في ضغط حياته وكان لابد لكي تنتظم حياته الاجتماعية من معرفة أخرى لذلك وهبته الآلهة معرفة العدالة والعفة لتنظم حياته الاجتماعية وترتقى علاقاته ومدنيته .

والى مثل هذا التفسير يشير أفلاطون في محاورة الجمهورية فيقول ان الفرد وحده ضعيف ومن ثم يكون الاجتماع ضرورة تحتمها الحياة الانسانية .

وينشأ عن اجتماع الأفراد الحاجة الى تقسيم العمل فيما بينهم من أجل توفير كافة حاجاتهم الضرورية ، وتكون حياتهم فى بادئ الأمر بسيطة طبيعية لأنها تتجنب المشاكل التى تنجم عن ازدياد عدد السكان والتى تؤدى الى قيام المنازعات والحروب .

وحاجات الانسان لا تقتصر على متطلبات الحياة المادية وانما ينبغى لأهل المجتمع أن يتذوقوا الفنون والآداب وبارتقائهم فى أساليب الحياة يطلبون الترف وتزيد حاجاتهم الى الكميات فتشتبك المصالح وتنشأ الحروب . ومن هنا ينبغى تكوين طبقة من المحاربين المحترفين يتولون حراسة المدينة والدفاع عنها عند الاعتداء عليها كما تحتاج المدينة الى طبقة من الحكام يوجهون الرعية الى العمل الصالح ويرشدون المدينة الى طريق الخير ويحققون لها العدالة .

فما هى شروط هذه الطبقة التى ستتولى حماية المدينة وقيادتها ؟

يقول أفلاطون ينبغى اختيار أفراد هذه الطبقة منذ الصغر ، فيختبرون اختبارات متعددة لنتبين من كان منهم ذا نفس عالية ولياقة بدنية بل يرى تخويفهم بوسائل مختلفة ليرى أيهم أثبت جنانا وأشد مراسا ، يقول لنختبرهم كما يختبر الذهب بالنار ، وبعد أن يتلقوا تربية وتعلima طويلا يختار أصلحهم ليكون حاكما أما من يلونه فيكونون مساعدين له أو حراسا وجنودا .

ولكى نتبين صفات هؤلاء الحراس يكفى أن ننظر الى كلاب الصيد والخراسة الأصيلة النوع فنجدهم أوفياء أرقاء لأصدقائهم وأصحابهم وأقوياء أشداء على أعدائهم وكذلك يكون حراس المدينة فيما بينهم ولأعدائهم . ولكنهم سيجمعون الى هذه الصفات الأخلاقية ، الروح الفلسفية التواقة للعلم والمعرفة . ولذلك يضع أفلاطون نظاما معيننا فى التربية والتعليم .

ويقول أفلاطون انه ينبغي مراقبة كل ما يصل الى آسماع هؤلاء الحكماء في طفولتهم من قصص أو فنون تؤدي الى انحراف ذوقهم وأخلاقهم، وانما ننمي فيهم القدرة على تذوق الجمال حتى يتوفر لنفوسهم التناسب والاتزان بواسطة الموسيقى والفنون الجميلة التي ترهف أذواقهم كما تقوى الرياضة البدنية أجسامهم .

وان كنا نربي حكامنا من الصغر على الصدق وباقي الأخلاق الكريمة الا أننا سنبيح كذبة نلقنها لجميع المواطنين اذ نروي لهم انهم جميعا اخوة لأن الأرض هي أمهم جميعا ، لكن الاله الذي خلقهم قد مزج في طبيعة بعضهم ذهباً ليكونوا حكاماً وأدخل في طبيعة بعضهم فضة ليكونوا حراساً وجندا وخلط الباقيين بالحديد والنحاس ليكونوا فلاحين وصناعاً منتجين حاجات الانسان المادية .

كذلك يؤكد أفلاطون انقسام المجتمع الى ثلاث طبقات متميزة بحكم الطبيعة ويرى ان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث وظيفة هيأتها الطبيعة لها ونخصتها بها بحيث لا ينبغي لها ان تتدخل في عمل الطبقة الأخرى .

ويترتب على ذلك أن تختص الطبقة الممتازة في المجتمع بالحكم ولا يشاركها فيه أحد من الطبقات الأخرى وخاصة الطبقة المنتجة لأنها لا تملك الحكمة ولا التربية ولا التعليم الذي يهيئها للاشتراك فيه ! لذلك نراه يخص كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث بفضيلة تناسب طبيعتها ففي حين يختص الحكم بفضيلة الحكمة ويختص الحراس بفضيلة الشجاعة يقول ان فضيلة الطبقة المنتجة من الشعب هي في التزامها العفة أو الاعتدال تعنى بتنظيم ملذاتها وانفعالها بحيث تتحكم دائماً في شهواتها .

هذه الفضائل الثلاث هي الشروط الواجب توافرها في طبقات الشعب لكي تتوفر العدالة في الدولة . وتعريف العدالة بناء على ذلك يتلخص في تأدية كل فرد في الدولة للوظيفة التي هيأته لها الطبيعة والتزامه بالفضيلة المناسبة بطبقته وعلى العكس يكون الظلم والشر حين يتعدى أحد الأفراد أو الطبقات على عمل غيره بعبارة أخرى تضيق العدالة في رأى أفلاطون لو شارك الاسكافي أو النجار في عمل الفيلسوف الحكيم الذي له وحده حق توجيه الحكم وبهذا يصدم أفلاطون أو مبادئ حكم الديمقراطية في عصره وفي كل عصر .

● الشيوعية فى طبقة الحكام

يقول أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » انه يتبع الطبيعة عندما ينادى بالشيوعية وبمساواة النساء والرجال فى طبقة الحكام . ألا ترى الأنثى من كلاب الصيد والرعى تشارك الذكر كل شىء ؟ كذلك ستكون نساء دولتنا يربين تربية الرجال ويتلقين تعليم الرجال ثم يولين نفس المهام فى السلم والحرب كالرجال على السواء . ذلك أن لهن ما للرجال من مهارات فى العمل أما اختلاف الجنس فليس سببا يمنعهن عن مزاولة ما هن جديرات به من أعمال .

ولما كانت المرأة ستشارك الرجل فى جميع الأعمال الخاصة بطبقة الحكام فقد ترتب على ذلك إلغاء نظام الزواج والأسرة فى طبقة الحراس . . فلن يختص أحد من هذه الطبقة بزوجة أو بولد وإنما ستكون جميع النساء والأولاد مشاعا بينهم . ويربى الأطفال فى دور حضانة ترضعهم الأمهات وتتركهم لمربيات مختصات حتى يتفرغن لأعمالهن . ويحدد للنساء والرجال فى هذه الطبقة سنا لا ينبغى لأحد منهم أن ينجب قبل بلوغه ولا بعد تجاوزه حتى لا ينشأ الأطفال ضعفاء اذ يبغي أفلاطون بهذه الفكرة المحافظة على السلالة النقية التى يوليها الحكم . ويحرم زواج الأخوة وينظم الزيجات فى الخفاء حتى يتحكم فى انجاب نسل ممتاز .

ولقد قصد أفلاطون بشيوعية النساء والأولاد ازالة أسباب الخلاف بين أفراد وطبقة الحراس ومن أجل ذلك ذهب الى تحريم الملكية الخاصة على أفراد هذه الطبقة وطالب بأن يعيشوا عيشة مشتركة تكفلها لهم الدولة .

ولا يخفى ما تنطوى عليه أفكار أفلاطون هنا من تأثير كبير بما كان يجرى فى عصره فى اسبرطة (٩) وكريت حيث كانت تحكم فى هذه البلاد طبقة من الأرستقراطية الدورية التى حافظت على نظمها الحربية لتضمن بقاءها فى أرض غزتها وبقي أهلها الأصليون مغلوبين على أمرهم زراعا يقومون على خدمتهم وكان الحكام فى هذه البلاد يربون تربية مشتركة ويعيشون فى معسكرات من سن العشرين الى الثلاثين .



(٦) أسبرطة : مدينة يونانية قديمة كانت عاصمة لاكونيا .

أما الموجة العاتية الثانية التى يلقى بها أفلاطون بعد قوله بـسـيـوعـية النساء فهى قوله :

« ما لم يتول الفلاسفة فى الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكا وحكاما الى فلاسفة حقيقيين ، وما لم نر القوة السياسية تتحد بالفلسفة وما لم تسن قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين فلن تنتهى الشرور من الدول بل من الجنس البشرى » .

لكن ما الذى يعنيه أفلاطون بالفلسفة ؟

انها عنده محبة الحكمة أو محبة المعرفة والسعى الى الحقيقة .

ونجد الأبواب الثلاثة من الكتاب - من الخامس الى السابع - استطرادا يشرح فيه أفلاطون فلسفة الميثافيزيقية فى الوجود ذلك لأنه يعد دراسة الفلسفة أهم شرط من شروط تكوين الحكام فى الدولة العادلة وهى وحدها الدراسة الكفيلة بالارتقاء بهم من القيم والمبادئ الواقعية التى يأخذ بها أكثر رجال السياسة فى عصره ومن يماثلهم من الخطباء والسفسطائيين أمثال جورجياس وبروتاجوراس وايزوقراط الى القيم والمبادئ المثالية التى ينبغى أن تقوم عليها المدينة الفاضلة .

(ج) العدالة فى الفرد :

وبعد أن يكون أفلاطون قد انتهى من تعريف العدالة فى المجتمع وشروط تحققها يقول ان العدالة فى الفرد لا تختلف عنها فى المدينة لأنها ليست الا صورة مصغرة لها .

ان العدالة فى النفس الفردية ليست سوى ائتلاف قوى النفس المختلفة لتقوم كل منها بالوظيفة الخاصة بها وتوفر لها الفضيلة المناسبة لها فالقوة الشهوانية فضيلتها العفة تلزمها حدودها وتمنعها من تجاوز حدود الاعتدال ، والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة تبين لها ما ينبغى لها المبادرة بفعله وما ينبغى لها تجنبه ، وللقوة العاقلة فضيلة خاصة بها هى الحكمة التى تبين لها الخير الأقصى الذى ينبغى أن تتجه له النفس .

فاذا انتظم عمل هذه القوى وتمت لها هذه الفضائل الثلاث تحققت العدالة لأنها تعنى فى النفس ما تعنيه فى الدولة من انصراف كل قوة من قواها الى عملها الخاص وانتظام كل هذه القوى بحيث تخضع القوة الشهوانية للقوة الغضبية وهذه بدورها للقوة العاقلة التى توجه عمل الجميع الى الخير بمقتضى ما لها من حكمة .



● مصادر الفساد في الدولة والفرد

بعد أن انتهى أفلاطون من وصف دولته المثالية ومواطنيها الحكيم العادل بقى عليه أن يبحث في الدول الفاسدة وصفات مواطنيها وحكامها ، وغايته في النهاية أن يبين الفرق الشاسع بين سعادة المدينة الفاضلة وشقاء المدينة الظالمة .

ولقد كان بحثه هذا من جهة أخرى بحثا في أسباب وعلم تدهور التاريخ في سيره من النظم المثالية الى النظم الأكثر نقصا حتى الدول الفاسدة تماما .

ولكن ما هي الدساتير والنظم الناقصة في رأى أفلاطون ؟

انها دساتير كريت واسبرطة التيموقراطية (٧) ثم الاوليجارشية (٨) ومقابلها الديمقراطية وأسوأها جميعا الطغيان آخر درجات التدهور والفساد . وهكذا يكون لدينا خمسة دساتير واحد فقط منها هو الدستور الصالح ودستور المدينة المثالية الأرستقراطية وأربعة دساتير فاسدة ، ويقابل هذه الدساتير خمسة أنماط لأخلاق الانسان لأن طباع الناس هي التي تكون الدساتير المختلفة .

ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذي بدأ في هذه الدراسة للدساتير اذ كان الناس في اليونان يتباهون بالديمقراطية الأثينية وخاصة الخطباء والسياسيون والسفسطائيون . ولقد ملا انتصار اليونان على الفرس نفوسهم عزة وفخارا ، ألم يقهروا تلك الجماعات التي يحكمها سوط الطاغية ؟ ولكن من جهة أخرى كان الصراع بين أثينا واسبرطة على السيطرة على باقى بلاد اليونان يمثل من جهة أخرى صراعا بين نظامين داخليين بين الديمقراطية الأثينية والأرستقراطية الحربية في اسبرطة ، ولقد جند هذا الصراع الأقاليم كما جند الجيوش وأريق في الدماء والأموال على السواء وحدثنا هيرودوت عن النظم الثلاثة المعروفة في اليونان وهي الملكية والأرستقراطية والديمقراطية .

وعلى العموم يمكن أن نقسم حديث أفلاطون من خلال كتابه في هذا الموضوع الى ثلاثة أجزاء هي :

(٧) التيموقراطية : هي حكومة الأرستقراطية الحربية .

(٨) الاوليجارشية : هي حكومة الأقلية الغنية .

١ - من التيموقراطية الى الديمقراطية :

ان الدستور المثالى عندما يتحقق فى الواقع يتعرض لظروف التغير والنقص فتتحول المدينة الفاضلة من دولة أرسنوقراطية تحكمها عقول الحكماء الى دولة تيموقراطية تحكمها العاطفة والحماسة والقوة الغضبية .

وترجع أهم أسباب تغير الحكم وفساده الى الفساد الذى يصيب حكام المدينة . اذ يحدث نتيجة عدم مراعاة قوانين الوراثة والزيجات الخاطئة أن يعقب الحكام نسلا لا يماثل طبيعة آبائه فى الأصالة والامتياز، وعندئذ يختلط المعدن الذهبى والفضى بالحديد والنحاس فيقع الحكم فى يد طبقة يتغلب على طبيعتها الحقد والكراهية وتسودها الحماسة للحرب والنضال فتكون دولة الأرسنوقراطية الحربية أو التيموقراطية .

أما عن أخلاق مواطن هذه الدولة فهى أخلاق المحارب الذى لا يتحمس لشيء، قدر حماسته للرياضة والصيد والحرب ولا يقدر من الأعمال سوى الأعمال التى تجلب المجد والشرف وتراه فى صباه لا يكثر بالمال ولكنه بتقدمه فى العمر يأخذ فى تقدير الثروة ويتجه الى لذات الحياة ذلك لأن القوة العاقلة فيه قد تخلت عن القيادة للقوة الغضبية والحماسية .

واذا ساء حال التيموقراطية تحولت الى أوليجارشية أى حكومة القلة التى تسعى الى جمع المال بحيث لا يكون للفقر فيها أى نصيب ولا للفضيلة أى حساب . وينتهى الأمر بانقسام المدينة الى مدينتين : مدينة للأغنياء ومدينة للفقراء كل منهما تتأمر على الأخرى ويملؤها الشك منها .

ويحدث هذا حين يعقب الحاكم التيموقراطى ابنا لا يقدر فى حياته الا المال ولا يكثر لما يكثر له الأب من مثل المجد والشرف والكرامة ، وانما تراه يكره كل هذه القيم ولا يجد لها فى قلبه مكانا الى جانب حب المال والثروة والشهوة للماديات لذلك يسجد العقل والشجاعة عنده على قدمى الشهوة . ولكن اذا ساء الحال ودب الفساد فى الطبقة الحاكمة تحول من يد الأوليجارشية الى يد الديمقراطية .

اذ يأتى اليوم الذى تضعف فيه الطبقة الحاكمة لاهمالها تربية ابنائها وتضمينها بكل القيم فى سبيل شهوة المال فيجد الفقراء أنفسهم من حيث الفضيلة والقوة والعدد أقوى من حكامهم الأغنياء فينصرون عليهم ويساوون بين الجميع حتى يولوا الحكم والمناصب بالقرعة .

وفى هذه الدولة لا يقدس الانسان شيئا الا الحرية ولكن ما يظنه الناس حرية فى هذه الدولة لا يؤدى الا الى الفوضى اذ سيتبع كل فرد فيها

أهواءه فتتعدد المبادئ والقوانين ويبدو هذا النظام جميلاً في نظر البعض لأنه سيصير أشبه بثوب مزركش بكل الألوان الزاهية ولكنه في الحقيقة سوق لكل المبادئ وكل القوانين وفوضى تساوى بين المتساوين وغير المتساوين .

أما عن مواطنها الديمقراطي فهو ذلك الذي ترك العنان لكل شهواته ولقب المخازى فضائل حتى دعى السفاهة حسن تربية والفوضى حرية والتهتك رقياً والوقاحة شجاعة .

ذلك هو الديمقراطي الذي ينحسر عن فكره مبادئ الحق والاتزان والذي يساوى بين جميع الشهوات ويتقلب بحسب الأهواء يوماً تشجيه الموسيقى وألحان الناي ويوماً يعكف على الرياضة وما يعالج به بدنه ويكتسب به القوة ، وتراه كسولاً حيناً وغارقاً في العمل عاكفاً على الفلسفة حيناً آخر لا يعرف لنفسه نظاماً ولا لسلوكه ضابطاً وهذا هو محب المساواة . ثم لنتقل بعد ذلك إلى وصفه لنظام الطغيان الذي يعده أفلاطون ثمرة ونتيجة لنظام الديمقراطية .

٢ - وصف الطغيان :

ظهر نظام حكم الطغاة منذ القرن السابع قبل الميلاد في مدن آسيا الصغرى خاصة المدن التجارية والصناعية ، ثم انتقل هذا النظام بعد ذلك إلى بلاد اليونان نفسها فظهر في سيكيون وكورنثا وأثينا ، وانتقل بعد ذلك إلى جنوب إيطاليا وصقلية التي تولى الحكم فيها الطاغية ديونيسيوس معاصر أفلاطون .

وكان الطغاة في أكثر الأحيان يعارضون حكم الأغنياء وأصحاب الأراضي الزراعية ويحمون التجارة والصناعة ويناصرون طبقات الشعب الفقيرة وينشرون عبادة آلهتها وكان أكثرهم يرفع الفنون والآداب ويناصر أكثرهم مبادئ المساواة والحرية ومن أشهر هؤلاء في أثينا بزيستراتوس وكلستينيس وبريكليس . ولكن وجد من يعارض حكمهم ويصفه بأنه حكم الشهوة والأنانية الفردية وكان أفلاطون على رأس معارضي هذا النوع من الحكم وكانت تجربته الشخصية مع ديونيسيوس طاغية سيراقوسة بصقلية من أهم الأحداث التي أثرت في آراءه السياسية .

وكان أفلاطون يعد حكم الطغاة أسوأ أمثلة الحكم ويرى أنه في ظل حكم الطغاة تصل الفوضى باسم الحرية إلى أسوأ درجاتها بحيث تنقلب

الأوضاع فيتحول الحاكم الى محكوم والمحكوم الى حاكم حتى نظام الأسرة يختل فلا يجرؤ الأب على توجيه ابنه بل يخشاه اذ يعد الابن نفسه مساويا لأبيه ويعد الغريب نفسه ندا للمواطن ، بل أسوأ من ذلك فى رأى أفلاطون أن يعد الرقيق نفسه مساويا فى الحرية لسيده وعندئذ تثور حتى الدواب على أوضاعها .

وتؤدى زيادة الحرية الى نقيضها الى العبودية وذلك حين يختار الشعب مدافعا عنه لكنه سرعان ما ينقلب الى طاغية يتخلص ممن نصبوه حاكما ويحيط نفسه بحراس من المرتزقة ويسوق شعبه الى الحروب ولا يجد من يمدحه الا العبيد والا شعراء التراجيديا الذين يجذون حكم الديمقراطية والطغيان لذلك لا يتردد أفلاطون فى طردهم من مدينته الفاضلة .

٣ - سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية :

ولكن لننظر الى حياة الطاغية لنرى هل سيسعد أم سيشقى بطغيانه ؟ ولكى نتبين ذلك فلنبحث فى طبيعة النفس الانسانية .

فالنفس الانسانية شأنها شأن الدولة تنقسم الى ثلاث قوى تناسبها ثلاث لذات . فقرة عاقلة لذتها الفكر والمعرفة وقوة غضبية تثور للكرامة وقوة شهوية تسعى الى كافة اللذات المادية . والفيلسوف هو من سالم القيادة فى حياته لتوجيه القوة العاقلة فكان سعيه دائما وراء الحق وأصبحت لذته الكبرى فى المعرفة وفى الفكر أما الطاغية فهو من انقاد لأسفل قوى النفس للقوة الشهوية التى لا تنفك تطلب اللذات المادية وهى لذات وهمية زائلة تستعبد صاحبها وتشقيه لانها أشبه بوحش جهول فى باطنه يسوقه الى ارضاء شهواته وارتكاب كافة المخازى والمساوى .

فاذا قارنا بين حياة الفيلسوف وحياة الطاغية فانما نتبين سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية . فاللذات التى يطلبها انحكيم من نوع اللذات العقلية التى تهب النفس اثلافا ونظاما يكسبها الفضيلة ويخضع قواها لتوجيه العقل وادراك الخير فى النهاية .

أما لذات الطاغية فهى من قبيل اللذات الحسية التى ليست فى الحقيقة لذات حقيقية بل لذات وهمية سالبة من يجرى وراءها كان كمن يقفو أثر شبح لا حقيقة له .

● رأى أفلاطون في الفن والنفس الانسانية

وقد أرجأ أفلاطون حديثه عن الفن والنفس الى الباب الأخير من جمهوريته ، وذلك بعد أن كان قد انتهى من وضع نظرياته الاجتماعية والسياسية .

ويبدو لقارىء جمهورية أفلاطون أن نقده للفن وحديثه عن مصير النفس موضوعان بعيدان عن الموضوع الرئيسى للمحاورة . لكنهما فى الحقيقة مكملان لبحثه فى العدالة ، لانه يهاجم الشعر والتصوير من أجل العدالة . ولقد بنى نقده للفن على أساس هذه النظريات السالف ذكرها فى الجمهورية ، وهو يعارض شعر هوميروس وشعراء التراجيديات من وجهة نظر المصلح الاجتماعى ويعارضه أيضا باسم الفيلسوف الأخلاقى الذى يهدف الى اصلاح النفس واكتمال فضيلتها . ولقد أفصح فى الجمهورية وفى غيرها من المحاورات الأخرى عن إعجابه بأنواع من الفن الذى رأى فيه تعبيرا عن الأهداف الدينية والمثالية والأخلاقية .

وبحثه فى مصير النفس الانسانية انما يهدف الى تأكيد قيمة العدالة واثبات انها الخير الوحيد الذى يناسب النفس الانسانية .

وكان أفلاطون قد أكد طوال محاورة الجمهورية أن الفضيلة فى حد ذاتها خير للانسان وهو فى ختام المحاورة يرى أن العادل محبوب من الجميع الناس والآلهة على السواء وما يصيبه من شر ليس فى الحقيقة الا امتحانا ظاهريا لانه سيكون فى النهاية أسعد حالا من الظالم . وتتضح قيمة العدالة وتزداد اذا كان فى الآخرة حساب واذا كانت النفس ستظل خالدة بعد الموت لتتلقى جزاءها .

والخلاصة ان الحكمة والفضيلة هما سبيل الانسان الى السعادة ، لان العدالة تنطوى فى ذاتها على قيمتها وهى وحدها الخير الوحيد الذى يليق بالفيلسوف وبالنفس الانسانية .

وقد ختم سقراط حديث العدالة فى جمهورية أفلاطون وقال لسامعيه تلك العبارة الخالدة :

« لئن صدقتمونى فعلمتم ان النفس خالدة وحررة فى اختيارها الخير والشر فستهدون الى سواء السبيل وستلتزمون دائما بالعدالة والحكمة فى

أفعالكم لكي تمتلئ نفوسكم طمأنينة وأمنا فيما بينكم ومع الآلهة أيضا
ليس فقط في هذه الدنيا بل فيما بعد وفي يوم الحساب .

هذه هي خلاصة جمهورية أفلاطون في رسمها العدالة والمساواة
واشتراك الجميع في بناء صرح الدولة وتوفير الحاجات للناس
دون تكالب على الكسب والتجارة وجمع المال .

والواقع ان أفلاطون هو الذي غرس أول دراسة للفلسفة السياسية
من مناهله ، وضمن مؤلفاته جمهوريته وهي قمة ما كتب في علم السياسة،
ستخلد على مدى الزمن ، وهي مرشد للباحث في هذا الحقل ، ويصعب
أن يضيف المفكر على أسسها شيئا مذكورا الا اذا كان ذلك عن طريق
الشرح والاستفاضة ، وهو يعتبر بلا منازع بنظرياته القائمة على دراسات
في المنطق والعقل والحكمة والمعرفة والخلق والسلام والاتحاد أبا الفلسفة
الغربية .

ولقد عرف الغرب الترجمة اللاتينية الأولى لهذا الكتاب في سنة ١٤٨٣
وقد نشرها مارسيل فيسان ، وذلك قبل أن ينشر النص الأصلي اليوناني
في فينسيا ، بعد ثلاثين عاما من الترجمة اللاتينية .

ثم انتشرت بعد ذلك الترجمات الأوروبية المختلفة لجمهورية أفلاطون،
وكلها تتبارى في اضافة الشروح والتعليقات عليها . ولقد بلغت الترجمات
الأخيرة لهذا الكتاب العظيم أعلى درجة من الدقة والاتقان ، وأشهر هذه
الترجمات ، ترجمة ليون روبان الفرنسية وترجمة كورنفورد الانجليزية .

● جمهورية أفلاطون والفكر العربي والغربي

وقد تلهف الفكر العربي في ازدهاره الى معرفة ما احتوته الحضارات
التي سبقتة أو عاصرتة من العلوم والمعارف والحكمة والفلسفة ، وضمن
ما عني به نقل فلسفة اليونان القديمة وفي مقدمتها فكر أفلاطون ، ولا غرو
في عناية العرب بالفلسفات القديمة فحضارتهم واسعة الأفق تتقبل الجيد
وما يقوم على المنطق والعقل والجدل ونظريتهم السياسية تأخذ بحرية
الفكر واحترام حقوق الانسان ، فقد رأينا المثالية والجدل والحوار وتفسير
الكون والوجود واقامة دولة صالحة صحيحة الجسد والعقل في « الشفاء »

و « القانون » لابن سينا وكتاب « تهافت التهافت » لابن رشد وفي
« المدينة الفاضلة » للفارابي الذي جمع في كتاباته بين الشريعة والفلسفة
وبين أفلاطون وأرسطو .

وقد نقل المفكرون الأوروبيون عن العرب فلسفة أفلاطون وواصلوا
تحليلها وعدوه رائد الفكر الغربي ومرشد الفلاسفة ومنار التفكير الاشتراكي
والاتحادى بما جاء به من تخطيط سياسى واجتماعى فى جمهوريته المثالية ،
وهو الذى رسم الطريق بمنهاجه الجدلى والعقلى للفلاسفة الحديثين أمثال
« دى كارت » و « سبينوزا » و « نيتشه » و « هيجل » و « بنتهام »
و « ماركس » و « سان سيمون » . وقد أجمع الى الجدل والحوار ومناقشة
ما يحويه العقل والكون التخطيط ، فرسم السبيل لبنتهام ومدرسته فى
سياسة اللذة والألم ، وفى مكافحة الفاقة ونشر التعليم واصلاح القانون ،
وكان هدفه توفير الضمانات للمواطنين وبث الطمأنينة فى النفوس على
أساس تحقيق الرفاهية للجماعات . كما رأى أفلاطون فى مدينته الفاضلة
أن تتولى السلطة الصفوة المختارة .

أىضا كانت جمهورية أفلاطون المرشد لقرون عديدة فيما بعد الى
« سان سيمون » وهو بعد المخطط لسياسة اقتصادية للدولة تقوم على
أساس الاختصاص والكفاية العلمية ، ونسج على منوالها « ماركس » بما حوته
من تنظيم اشتراكي وخاصة فى إلغاء الملكية الفردية والمساواة بين الناس
على أساس توزيع الأعمال ، وكانت جمهورية أفلاطون أىضا المرشد للمفكرين
فى مجال السياسة « لباريتو » و « ميشيلز » و « موسكا » الذين نهجوا
سياسة حكم الصفوة بكفايتها وتخصصها باعتبار أن الحكم فعلا لا تباشره
أغلبية بل يقوم به عدد من الصفوة الممتازة .

وساعدت « جمهورية » أفلاطون العلامة « ديجى » ورجل القانون
الضليع « سيل » وغيرهما من الفقهاء والمشرعين فى دراسة توزيع
الاختصاصات والأعمال كأساس لتكوين الدولة وفى تكوين الفكرة الاتحادية
بين الدول .

وهكذا ابتدع أفلاطون فى دراساته وخاصة فى « الجمهورية » نظريته
فى العالم ويصعد فيها الى القمة لىبدأ منها البحث عن الحقيقة وسعادة
البشرية ويصبح بعقله وخياله فى أفق المعرفة الواسع ليكشف عن الحقائق
والمترادفات ويرسل أضواءه الواضحة الى أبسط التفاصيل ويبرز فى
كتاباته أصل المادة وفلسفة الطبيعة والدين والخلق والسياسة وتناسق
وجمال الأشياء والروح ، وكل ما يصل اليه الفكر عند أفلاطون يتحول

الى شعاع ويبعث فى صورة بناءة لا يمكن ملاحظتها ، وهو يهدف كما يتضح فى « جمهوريته » حرية الانسان المنظمة الى السعى فى بناء عالم ينعم فيه البشر بوسائل راحة مادية ونفسية نتيجة توزيع الأعمال ، والقضاء ما أمكن على الفوارق بين الناس وعلى أن تسود المعرفة والفلسفة والحكمة والتخصص حكم المدينة الفاضلة ، وبذا يقوم عالم مثالى يسوده السلام ، وستظل فلسفة أفلاطون ومدينته المثالية فى « الجمهورية » المحرك الأساسى للمعرفة والتطور الفكرى .

وفى النهاية يجب أن نذكر مقالة الفيلسوف الشهير أمرسون الخالدة عن كتابنا فقد قال عنه : « ان تراث الانسانية لو أحرق برمته وبقي هذا الكتاب لكان فيه الكفاية » !! ..

قال امرسون هذا لأن الكتاب ملخص فلسفته .. فيه مذهبه فى السياسة .. والدين .. والأخلاق .. وعلم النفس .. والتربية .. والفن .. وفيما وراء الطبيعة .. وفى هذا الكتاب يضع أفلاطون الأسس التى يراها كفيلة لبناء مدينة فاضلة أو مدينة هى المثل الأعلى فى المدن .





(٣) أصول الهندسة

اقليدس

أصول الهندسة

لاقليدس

٣٠٠ ق م

الكتاب الذى ظل اساسا لدراسة مبادئ الهندسة

حتى هذا العصر

قليلون جدا من الخالدين استطاع أن يعيش طويلا مثلما عاش عالم الهندسة الاغريقى اقليدس . فمن بين هؤلاء الخالدين أناس اشتهروا وهم أحياء مثل نابليون والاسكندر الأكبر ومارتن لوثر وغيرهم . بينما عاش اقليدس هذا مجهولا فى حياته ، ولكن بعد مائة أصبح أشهر من الجميع وأبعدهم أثرا أى أطولهم عمرا !!

● سيرة اقليدس

وعلى الرغم من شهرته هذه ، فإن القليل جدا عن حياته هو الذى نعرفه . ونحن نعلم انه عمل مدرسا فى الاسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ ق م .

الفكر الانسانى - ٦٥

ولسنا على يقين من تاريخ مولده أو مماته ، ولا نعرف أيضا ان كان قد ولد في أفريقيا أو في أوروبا ، ولا في أى مدينة !

ولكن جاء في كتابات العرب عنه انه اقليدس بن نقرط بن زنارخوس ، ولد بطبرة ، اغريقى الجنسية ، دمشقى الموطن ، فيلسوف من العصور الماضية ، عالم كبير فى الهندسة ، كتب أعظم وأنفع كتاب أسماه « أصول الهندسة » ، أو أسس الهندسة ، وهو عمل لم يسبق اليه ما هو أعظم منه ، ترسم خطاه واعترف بفضلله كل من جاء بعده ، ودأب القادمون من علماء الاغريق الرومان والعرب على شرح كتابه والتعليق عليه والاقتباس منه . وكان الفلاسفة الاغريق يضعون على أبواب مدارسهم العبارة الشهيرة : « لا يدخلها من لم يتعلم أصول هندسة اقليدس » .

ويقول ابن النديم فى كتابه الفهرست : « اقليدس صاحب جو مطريا ، ومعناه الهندسة ، وهو اقليدس بن نوقطرس بن برنيقس ، المظهر للهندسة ، أقدم من أرشميدس وغيره ، وهو من الفلاسفة الرياضيين » .

وذكر ابن النديم فى كتابه أيضا أن لاقليدس كتباً أخرى غير كتاب « أصل الهندسة » منها : كتاب الظاهرات ، كتاب اختلاف المناظر ، كتاب المعطيات ، كتاب النغم ، كتاب القسمة ، كتاب الفوائد ، كتاب القانون ، كتاب الثقل والخفة ، كتاب التركيب ، كتاب التحليل » .

وعلى الرغم من انه قد ألف كل هذه الكتب ، فان كتاباً واحداً له هو الذى حظى بكل الشهرة . أعنى كتابه « مبادئ الهندسة » .

وقد ظن بعض كتاب العرب ان كتاب أصول الهندسة لم يكن من وضع اقليدس نفسه ، وان الكتاب كان لغيره ، وكان عمل اقليدس هو تهذيب وتفسير ما احتواه الكتاب ، اذ جاء فى كتاب « كشف الظنون » انه ورد من شرح الأشكال للفاضل قاضى زاده الرومى ، « ان بعض ملوك اليونان مال الى تحصيل ذلك الكتاب « الأصول » فاستعصى عليه حله ، فأخذ يتوسم أخبار الكتاب من كل وارد عليه ، فأخبره بعضهم بأن فى بلدة صور رجلاً مبرزاً فى علمى الهندسة والحساب ، يقال له اقليدس . فطلبه والتمس منه تهذيب الكتاب وترتيبه ، فرتبه وهذبه ، فاشتهر باسمه بحيث اذا قيل كتاب اقليدس يفهم منه هذا الكتاب دون غيره من الكتب المنسوبة اليه ،

كما ورد فى رسالة الكندى فى أغراض كتاب اقليدس أن « هذا الكتاب ألفه رجل يقال له أبلونيوس النجار ، وانه رسمه خمسة عشر قولاً ، فلما تقادم عهده ، تحرك بعض ملوك الاسكندرانيين لطلب الهندسة ،

وكان على عهد اقليدس ، فأمره بإصلاحه وتفسيره ففعل وفسر منه ثلاث عشرة مقالة ، فنسبت اليه ، ثم وجد اسقلاوس تلميذ اقليدس ، مقالتين وهما الرابعة عشرة والخامسة عشرة فأهداهما الى الملك ، فأضيفتا الى الكتاب .

غير انه من المؤكد ان كتاب الأصول كان من الأعمال الرئيسية لاقليدس ، وان كان قد ضمنه نظريات بعض من سبقوه من فلاسفة الاغريق الرياضيين وذلك بعد أن أكملها واستوفى براهينها .

وتجمع كتابات العرب على أن جماعة منهم نقلوا كتاب اقليدس من الاغريقية الى العربية ، ويبدو أن أول من ترجم الكتاب الى العربية هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذي ترجمه مرتين ، وأسمى الأول الهاروني نسبة الى هارون ، وأسمى الثانية المأموني نسبة الى المأمون ، ويوجد الآن نسخة من المخطوط الثانى فى مكتبة ليدن ، وقد جاء فى مقدمتها انه أثناء خلافة هارون الرشيد ، أمر يحيى بن خالد البرمكى الحجاج بترجمتها الى العربية . ولما تولى المأمون الخلافة رأى الحجاج أن ينال الحظوة عند الخليفة ، فأخرج ترجمة أخرى للأصول نحا فيها نحا جديدا ، فأصلح ما فيها من خلل وشرح ما يحتاج الى شرح .

وليس هناك من شك فى أن اسحق بن حنين قام بترجمة الأصول مرة أخرى من الاغريقية ، ويذكر صاحب الفهرست ، ان ثابت بن قرة أصلح هذه الترجمة وحسن فيها ، كما يذكر أن أبا عثمان الدمشقى ترجم بعض أجزاء الكتاب .

ويتفق الكثيرون على أن أشهر النسخ المنقولة الى العربية من كتاب اقليدس ، هما نسختا ثابت والحجاج ، وتلا ذلك قيام كثير من علماء العرب بشرح الكتاب وتفسيره والتعليق عليه مثل : اليزيدى ، والجوهري ، والهامانى ، وأبو حفص الحارث الخرساني ، وأبو الوفا الجوزجاني ، وأبو القاسم الانطاكي ، والقاضى أبو محمد بن عبد الباقي البغدادى الشهير بقاضى مارستان ، وأبو على الحسن بن الحق بن الهيثم البصرى ، وأبو جعفر الخازن ، وأبو داود سليمان بن عتبة ، وغيرهم كثيرون .

كما تناول أيضا كثير من المتأخرين من كتاب العرب وعلمائهم ، تحرير الكتاب متصرفين فيه ايجازا وضبطا ، وايضاها وبسطا . ولعل أشهرهم فى ذلك نصير الدين بن محمد الطوسى .

● من كل ذلك يتضح لنا جليا أن كثيرا من علماء المسلمين هنوا

بالبحث في كتاب اقليدس في الهندسة ، وشارك في هذا القدامى والمحدثون منهم ، وقد قاموا بترجمته ونشره واصلاحه وتفسيره والتعليق عليه .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن بعض الكتاب الغربيين يقولون : ان كتاب « الأصول » لاقليدس وصل اليهم عن طريق العرب . ومن ذلك تقول دائرة المعارف الأمريكية :

« وقد وصلت الينا أصول اقليدس من العرب عن طريق غير مباشر من الترجمات العديدة التي قاموا بها والتي لم تطبع منها الا احدى التراجم التي تمت في القرن الثالث عشر ، وكان طبعتها في روما سنة ١٥٩٤ م . ويقال ان أول من قام باعادة ترجمة الأصول من العربية الى اليونانية هو Adelard of Bath في القرن الثاني عشر . وقد كانت هذه الترجمة أساسا للطبعة اليونانية التي حررها Companus of novara (فينسيا - ١٤٨٢) ، ومع كل فلا يعتمد على هذه الطبعة الى حد كبير » .

● كتاب الأصول في الهندسة

وكتاب اقليدس في أصول الهندسة يعتبر أعظم الكتب المدرسية التي كتبت من أقدم العصور الى عصرنا هذا ، ويقع في ثلاث عشرة مقالة ، تبدأ أولها بتعاريف ثم خمس مصادرات أو مسلمات (عمليات تفترض صحتها) ، ثم علوم متعارفة أو أشياء متعارف عليها (حقائق واضحة بذاتها) وعددها خمس أيضا ، ثم تأتي بعد ذلك النظريات .

وتشمل التعاريف : النقطة ، والخط ، والخط المستقيم والسطح ، والسطح المستوي ، والزاوية المستوية ، والزاوية الخطية المستقيمة ، والزاوية القائمة ، والزاوية المنفرجة ، والزاوية الحادة ، كما تشمل الشكل ، والدائرة ومركزها وقطرها ونصف الدائرة ، والأشكال الخطية والمثلث المتساوي الأضلاع ، والمتساوي الساقين ، والمربع والمعين وشبه المعين ، وشبه المنحرف والخطين المتوازيين .

وأما المصادرات أو المسلمات فهي :

- ١ - يمكن رسم خط مستقيم من أية نقطة الى أية نقطة أخرى .
- ٢ - يمكن مد الخط المستقيم المتناهي بصفة متصلة الى خط مستقيم .

- ٣ - يمكن رسم دائرة لها مركز معلوم ونصف قطر معلوم .
- ٤ - جميع الزوايا القائمة مساو بعضها البعض الآخر .
- ٥ - اذا سقط مستقيم على مستقيمين فجعل مجموع الزاويتين الداخليتين على جهة واحدة منه أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين اذا ملأ الى ما لا نهاية له ، يتلاقيات على نفس الجهة التى عليها مجموع الزاويتين أقل من قائمتين .

أما العلوم المتعارفة أو الأشياء المتعارف عليها فهي :

- ١ - الأشياء المساوية لنفس الشيء يساوى بعضها البعض الآخر .
- ٢ - اذا أضيفت أشياء متساوية الى أشياء متساوية فالحواصل متساوية .
- ٣ - اذا طرحت أشياء متساوية من أشياء متساوية فالبواقي متساوية .
- ٤ - الأشياء التى تنطبق الواحدة منها على الأخرى تساوى الواحدة منها الأخرى .
- ٥ - الكل أكبر من الجزء .

ونعود الى التعاريف وأولها تعريف النقطة الهندسية « النقطة ما ليس له أجزاء » . ولا ترضى النفس عن هذا التعريف ، فهو يصف النقطة بما ليس لها ولا يصفها بما هى ، ولا بد لنا من بيان حالة الهندسة وتعريف النقطة قبل اقليدس حتى نتبين الحكمة فى هذا التعريف . فلقد اعتبر فيثاغورث النقطة الهندسية عنصرا أوليا فى الفراغ كوحدة الأعداد فى الحساب ، ولكنها تختلف عنها بأن لها صفة المكان ، فهى وحدة لها مكان ، وأى نقطة على الخط المستقيم ، يمكن مطابقتها على نسبة عددين صحيحين متناسبين مع بعدهما عن طرفى المستقيم . وهذا معناه أن الخط عبارة عن تتابع نقاط متميزة .

كذلك أثار تعريف اقليدس للخط المستقيم جدلا كثيرا . فالخط المستقيم عنده (هو ذلك الذى يقع على استواء بالنسبة للنقطة الواقعة عليه) وليس واضحا المقصود بهذا الكلام . وعند البعض ان فكرة التماثل هى الفكرة الأساسية ، فاذا وصلنا النقطتين (أ) ، (ب) بمنحنى (ل) فانه يوجد منحنى آخر (ل') يختلف عن (ل) بانه صورته فى المرآة ،

أى ما يكون يسارا فى أحد المنحنيين يكون يمينا فى المنحنى الآخر . والمنحنى الوحيد الذى فيه ينطبق (ل) على (ل -) هو الخط المستقيم (ا ب) . وعند البعض الآخر ان تعريف اقليدس يشير الى عملية كعملية تصويب الهندسية فعندما تكون (ا ، ب) كلاهما فى خطر النظر كذلك ستكون جميع نقط الخط المستقيم (ا ب) . ومهما يكن الأمر فان اقليدس لم يستخدم تعريفه للخط المستقيم ولا تعريفه للنقطة الهندسية .

أما وجهة النظر الحديثة فى النقطة والمستقيم فهى التسليم بأنهما تصوران أوليان . ومهما تكن وجهة النظر هذه منطقية الا انها تدعو للأسف واليأس من وجهة نظر عالم الطبيعة لانها تفقد الهندسة صفة كونها تمثيل لأمور توجد بالفعل فى الطبيعة .



ولقد وضع اقليدس من الفروض الأساسية خمس مسلمات ، وخمس أشياء متعارف عليها . ومن هذه وتلك استنتج نظرياته .

والمسلمات الأربع الأولى من مسلمات اقليدس سهلة ليس فيها ما يثير التساغب ، أما المسلمة الخامسة فهى أطول فى النص وأقل وضوحا فى الفكرة ، وهى المسلمة المعروفة بمسلمة التوازي ونصها : اذا قطع مستقيم مستقيمين آخرين وكان مجموع الزاويتين الداخلتين من جهة واحدة أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين الآخرين اذا مدا يتقابلان من هذه الجهة التى فيها مجموع الزاويتين الداخلتين أقل من قائمتين ، .

ويرجع علم اوتياح القدماء الى هذه البديهية ، لا الى الشك فى صحتها ولكن الى طبيعة كونها من الحقائق المشاهدة أكثر من انها بديهية واضحة فى ذاتها . كذلك ثارت الشكوك حول احتمال اشتقاقها من غيرها من البديهيات الأخرى بالاستنتاج المنطقى ، ولكن الاجماع الآن على أنه لا يمكن بأية حال استنتاجها من غيرها من مسلمات اقليدس ، وان بديهية ما للتوازي أساسية لهندسة اقليدس .

وقد تحول البحث الى محاولة ايجاد بديهية أخرى للتوازن أبسط وأكثر وضوحا ، تحل محل بديهية اقليدس ، كأن نسلم مثلا بأنه يمكن تقسيم الفضاء الى مكعبات متساوية ، أو أن مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين . ولكن لا واحدة من هذه المسلمات تلزم من الوجهة المنطقية ، وبذلك لم يتوصل الرياضيون الى خلق هندسة مبنية على حقائق منطقية لا غنى عنها ، الى أن ظهر الرياضى الايطالى « سيشرى » وطلع على العالم

بفكرة أن أفضل طريق لحل لغز التوازي هو اللجوء الى البرهان بالخلف ،
أى بافتراض أن البديهية غير صحيحة واستنتاج نتائج غير مقبولة . ولما
فعل هذا كشف فى الحقيقة عن الهندسة الاقليدية ، وأثبت أن هناك ثلاثة
أنواع من الهندسة بحسب كون مجموع زوايا المثلث أكبر من ، أو يساوى ،
أو أصغر من قائمتين . وافترض أن الخط المستقيم يمتد الى ما لا نهاية
له ، وبهذا القيد وجد أن النوع الأول من الهندسة ، وهو النوع الذى فيه
مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين مستحيل ، أما النوع الثالث ، والذى
فيه مجموع زوايا المثلث أصغر من قائمتين ، فقد وجد أنه فيه مستقيمان
يتقاربان من بعضهما الى ما لا نهاية له ، ولا يتقاطعان ، وهى خاصة ظن
أنها غير مقبولة . وبذلك لم يبق أمامه الا النوع الثانى الذى فيه مجموع
زوايا المثلث يساوى قائمتين ، وهو الذى يؤدى الى هندسة اقليدس .

● طبيعة الهندسة الاقليدية

ولا شك ان الهندسة الاقليدية والتى وضع أسسها فى كتابه
« أصول الهندسة » تعبر بدرجة كبيرة من الدقة عن كثير من خصائص
عالمنا الواقعى وتعكس معظم آرائنا عنه ، ومنها اشتقت فكرتنا عن الفراغ
الهندسى (المكان الهندسى) ، فالفراغ الهندسى هو كل ما اجتمع من النقاط
الهندسية التى تتكون منها المستويات والخطوط والكرات وهلم جر .
ويمكن تصور ذلك على أنه وحدة يرمز لها بحد مطرد . ومن المهم أن نفرق
بين الفراغ الهندسى ، والفراغ الفيزيائى الذى يتركب من أنواع ثلاثة هى :
فراغ ما وراء السدم ، والفراغ الكبير ، والفراغ المجهرى . أما الفراغ
الهندسى فلا يعدو كونه قاعدة متخيلة للعلاقات الهندسية الصحيحة على
وجه التقريب فى الفراغ الفيزيائى الكبير ، ولا وجود لهذا الفراغ الهندسى
الا فى مخيلة عالم الهندسة ، ومع ذلك فقد لعب هذا الفراغ دورا هاما فى
تكوين صورة الفراغ الفيزيائى ، ذلك لانه أصل تولد من مقارنة القياسات
التى أجريت فى العالم الواقعى ، ثم انعكست مرة أخرى على الطبيعة
فأضحت صورة مقبولة للحقيقة .

وفى رأى نيوتن ان الفراغ المطلق ، بطبيعته ذاتها وبدون نظر لآى
مؤثر خارجى ، يبقى دائما متشابها دون حركة ، وجميع الأشياء موضوعة
فى الفراغ بالنسبة لترتيب مكانها . بمعنى أن الأرض والأجرام السماوية

لها مكانها في وعاء لا حركة له ، ولا حدود له ، وله وجود ، وكان هذا هو حاله ، بصرف النظر عن وجود العقول التي تدركه أو عدم وجودها ، وبصرف النظر عن انه مشغول في مكان منه أو غير مشغول . وهو مسرح كل ما يحدث في الكون المادى . واذا أخذنا لحظة من الزمان فكل جسم مادى يشغل مكانا في هذا الفراغ مع احتمال أن يتغير من موضع لآخر ، وهذا الفراغ لا نهائى في الحجم ، منتظم الصفات متصل النسيج ، هندسته اقليدية . ومن واجبات عالم الطبيعة أن يفسر جميع الظواهر بدلالة حركات الجسيمات الموضوعة في هذا الفراغ وفعل بعضها على بعض .

ومن المسلم به أنه بالرياضة يمكن حساب كثير من حوادث الطبيعة قبل وقوعها ، ذلك ان للكون نظاما مستقرا يتبعه سير تلك الحوادث ، وان المثل الأعلى للعلم أن يجد من القوانين والمعادلات الرياضية ما يمكننا من التنبؤ بأى حادث قبل وقوعه في الكون الفيزيائى الخارجى ، كالتنبؤ بكسوف الشمس أو خسوف القمر أو هبوب الريح أو سقوط المطر . . . الى غير ذلك من الظواهر .

ومن المسلم به أيضا ان كل فرع من فروع الرياضة ينبنى على مجموعة من التعاريف والفروض ، والسؤال الآن هو : ما هى المعطيات أو المسلمات الأساسية التى يمكن رياضيا استنتاج جميع قوانين الكون المادى ؟ وهل هذه المعطيات أو المسلمات مما وصلنا اليه عن طريق الحواس بالتجربة والمشاهدة ؟ أم هى واضحة بذاتها ، كشفنا عنها بالحدس والالهام ؟

وقد أدرك الاغريق القدماء هذه المشكلة الفلسفية الأساسية وبحثوا فى أمرها وجاء حكمهم عليها فى الطريقة التى عالجوا بها الهندسة ، والهندسة بحكم انها علم العلاقات المكانية فى العالم الخارجى ، وهى أساسا جزء من الفلسفة الطبيعية . ومما لا شك فيه أن كثيرا من الحقائق الهندسية قد اشتق من المشاهدة . وفى رواية ان طاليس قد اقتنع بنظرية اقليدس القائلة بأن الزاوية المرسومة فى نصف دائرة هى قائمة دائما ، وذلك حينما تطلع الى المستطيلات المرسومة داخل الدوائر على جدران المعبد . كما روى هيرودوت : ان المصريين القدماء تعلموا كثيرا من الحقائق الهندسية حينما كانوا يضطرون عقب الفيضان كل عام الى إعادة تقسيم الأراضى . وتعيين مساحتها ووضع حدودها .

ولما جاء الفيثاغوريون وأثبتوا الصلة المنطقية بين النظريات الهندسية المختلفة ساد الاعتقاد بأنه من المستطاع احكام جميع الهندسة فى سلسلة

من الاستنتاجات يحصل عليها بالتفكير القياسي من عدد صغير من المقدمات، وأصبح السؤال هو : من أين يمكن اشتقاق تلك المقدمات ؟

وقال اقليدس : انه من الممكن اثبات جميع نتائج الهندسة كنتائج منطقية لعدد قليل من البديهيات والمسلمات التي نسلم بها بالحدس والالهام .

● انجاز اقليدس فى كتابه

وأهمية كتاب « أصول الهندسة » لا ترجع لآى من النظريات التي قدمها أو شرحها . وأكثر هذه النظريات الهندسية كانت معروفة من قبل ، كما أن الكثير من الأدلة على البرهنة على صحتها كانت معلومة أيضا . ولكن الانجاز الكبير الذى يعزى الى اقليدس هو تجميع هذه النظريات وعرضها وربطها والتدليل المقنع على صحتها . وهذا الانجاز يتضمن فى المقام الأول انه أضاف الكثير من البديهيات الهندسية ، ثم انه نظم هذه النظريات الواحدة بعد الأخرى ، حتى جاء هذا النظم مترابطا ومنطقيا . . كما انه زودها بالبراهين التي غابت عن الكثير ممن سبقوه .

وعلى الرغم من ان كتاب « أصول الهندسة » هذا قد تضمن نظريات هندسية فانه قد أضاف اليها بعض المعادلات الجبرية .

والكتاب ظل أساسا للدراسات الهندسية أكثر من ألفى سنة ، ولم يفلح كتاب واحد ألفه انسان أن يعيش مثل هذا الزمن الطويل . وقد ألف اقليدس كتابه هذا باللغة الاغريقية ، ولكن - كما أسلفنا - قد ظهرت له ترجمات فى كل اللغات ، وظهرت أول طبعة لهذا الكتاب فى سنة ١٤٨٢ أى بعد اختراع جوتنبرج للطباعة بثلاثين عاما . ومنذ ذلك الحين ظهرت لهذا الكتاب ألوف الطبعات فى مئات اللغات .

وهذا الكتاب لانه تدريب عملى على التفكير المنطقى ، فقد كان أبعد أثرا من كتاب الفيلسوف أرسطو عن « المنطق » . وقد افتتن به كل المفكرين العظماء منذ ذلك الحين .

ومن العدل أن تقول ان كتاب اقليدس هذا كان عاملا قويا فى احياء العلوم الحديثة . لان العلم ليس مجرد تجميع للمعلومات انما العلم يقوم

على الملاحظات الدقيقة ، واستخراج النتائج الهامة لها . وأعظم انجازات العلم الحديث انما تجيء من ترابط التجارب الانسانية وتحليلها الدقيق بعد ذلك ، والوصول الى نتائج لها شكل النظريات وقوة البديهيات .

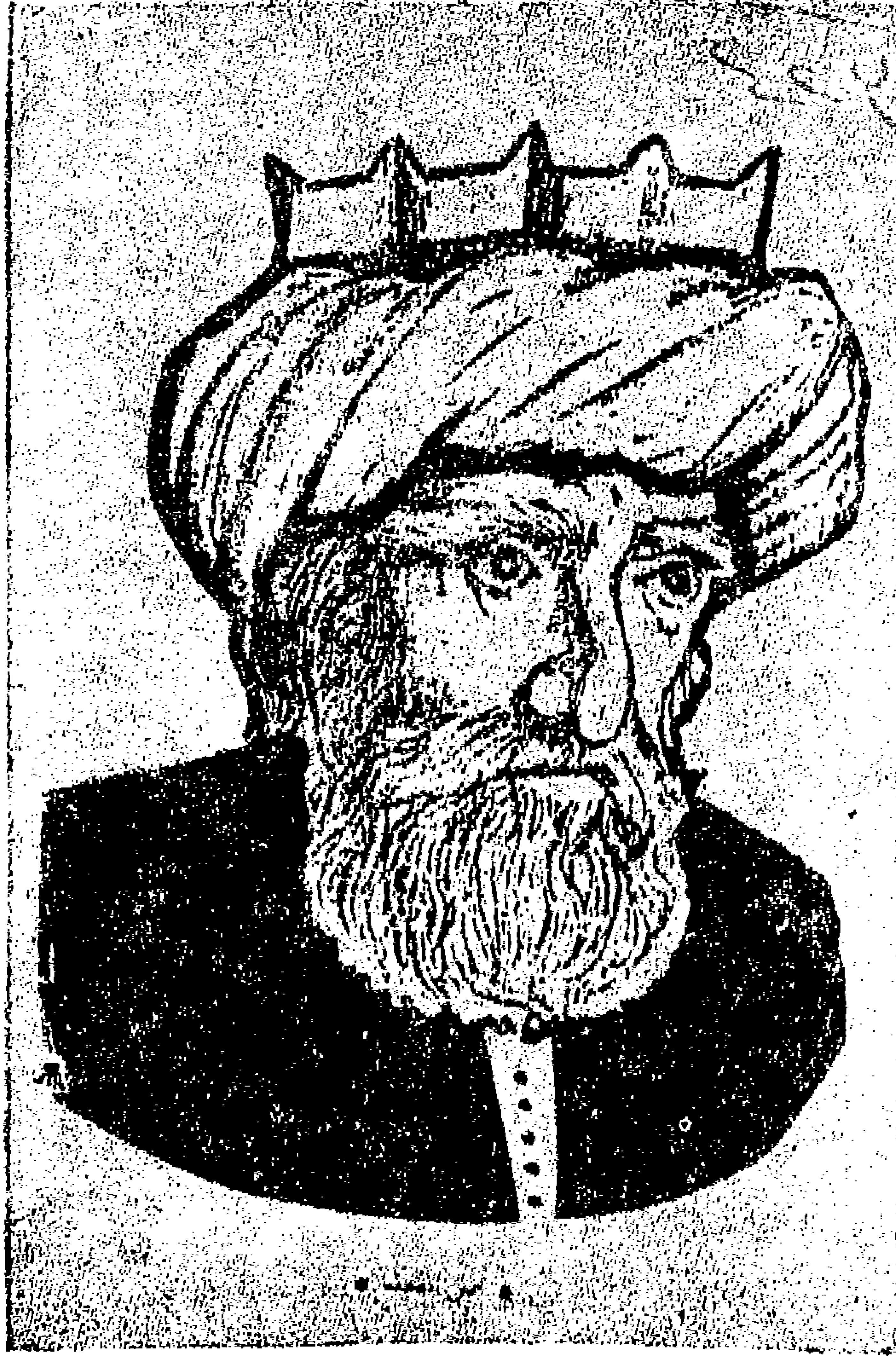
ولسنا على يقين من الأسباب التي أدت الى أن تكون نهضة العلوم في أوروبا وليست في الصين ، ولا يمكن أن يكون ذلك من نتائج الصدفة . فلا بد من وجود أسباب قوية واضحة ومقنعة لأن يكون العلم قد ظهر وتطور الى غير حد في أوروبا ، وليس في أماكن أخرى من العالم . وأدى ذلك الى ظهور عدد من النابيهين من العلماء مثل العالم الانجليزى نيوتن والايطالى جاليليو (١) والبولندى كوبرنيكوس (٢) . ولا بد أن تكون هناك أسباب قوية لظهور مثل هؤلاء النابيهين . ومن بين هذه الأسباب تأثير أوروبا بالفكر الاغريقى وبما قدمه الاغريق من نظريات في الرياضيات .

ومن الجدير بالملاحظة أن الصين قد تقدمت على أوروبا في نواح أخرى . ولكنها لم تستطع أن تبلغ ما بلغته أوروبا في اكتشاف النظريات الرياضية والعلمية ، فليس يوجد في الصين عالم هندسى يماثل اقليدس . فمن المؤكد أن الصين قد كانت لها ممارسات هندسية ، لكنها لم تهتد قط الى نظرية هندسية واحدة . أى كانت لها تجارب عملية ولم تكن لها فلسفة نظرية محددة .

وقد كان أثر اقليدس في نيوتن عميقا . وهذا يبدو واضحا في كتاب نيوتن الذى عنوانه « المبادئ » والذى كتبه باللغة اللاتينية . وقد جاء هذا الكتاب ذا شكل هندسى تماما مثل كتاب اقليدس .

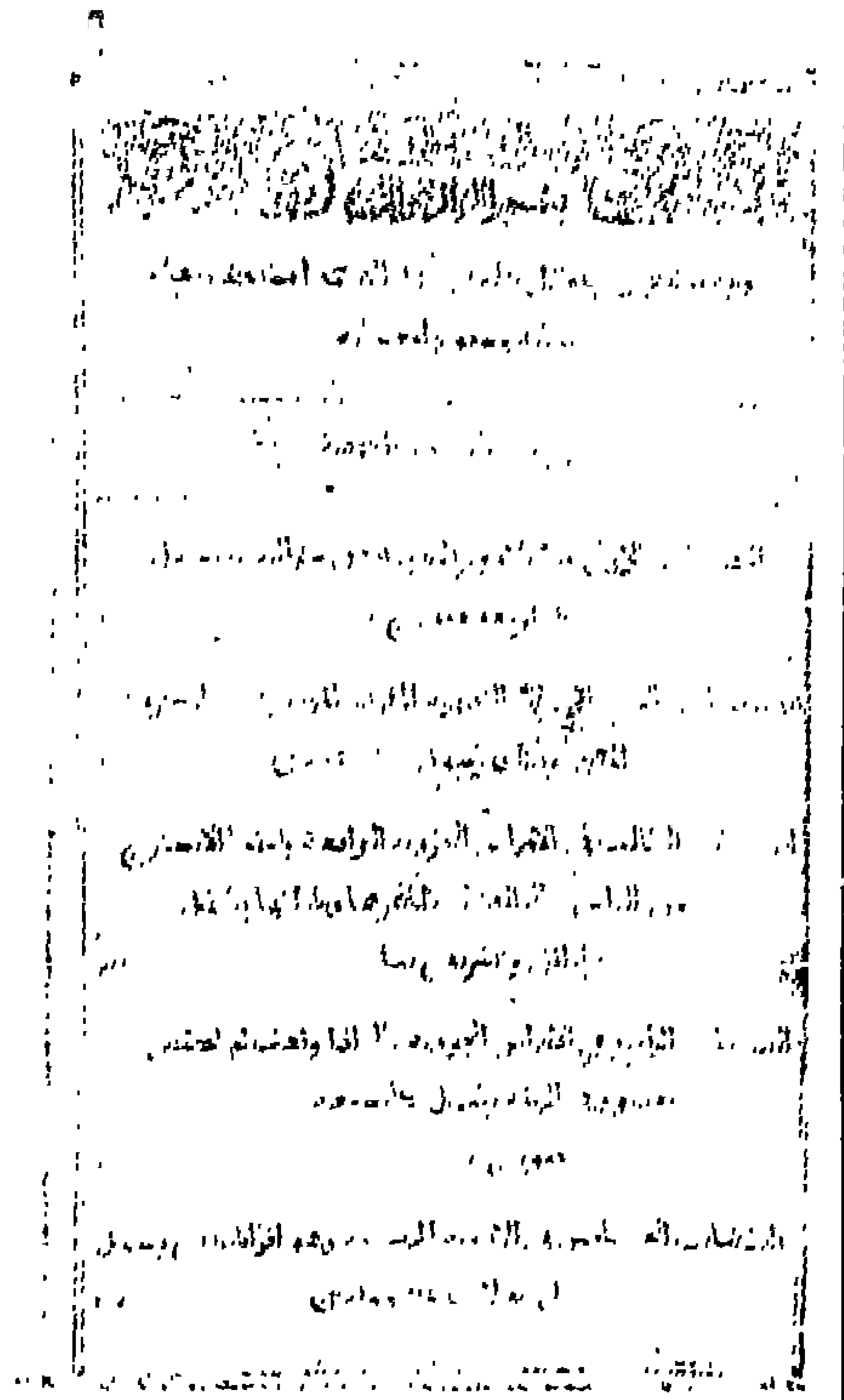
وقال المؤرخون : لم يوجد كتاب مثل كتاب « الأصول في الهندسة » فى قدمه ، عاش كل هذه القرون . انه عاش فوق الألفين والمائتين من السنين . وهو لم يكده أن يصيبه فى كل هذا الزمان الطويل تغيير . وقبله الأقدمون ، وقبله الأحداثون . ولقد قام جماعة من الأمريكين فى منتصف القرن الماضى ، يتزعمون حركة تطيح باقليدس وكتاب اقليدس . وقاموا على عادة بعض الناس بالضيق بكل قديم . ونافسوا اقليدس تأليفا ، ونافسوه كتباً . وتعددت الكتب فى الهندسة ، وتعددت البراهين ، واختلطت . ولكن اقليدس بقى على الرغم من كل هذا ، كتاب الدنيا الأوحده ، والأصله ، والأصمد .

(١) جاليليو : عالم فلك ورياضة وطبيعة ايطالى (١٥٦٤ - ١٦٤٢) . اخترع الميزان المائى وصنع أول منظار فلكى عام ١٦٠٩ . اكتشف فى عام ١٦١٠ أربعة أقمار للمشتري .
(٢) كوبرنيكوس : فلكى بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣) واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس وعلى أساسها بنى علم الفلك الحديث .



(٤) القانون في الطب

ابن سينا



القانون في الطب لابن سينا

الكتاب الذي ساهم مساهمة فعالة في تقدم العلوم الطبية

ح : ١٠١٠ م

ابن سينا من الخالدين الذين يحتلون مكانا ساميا في تاريخ تقدم الفكر والطب والفلسفة ، وهو من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع ومن ذوى المواهب النادرة والعبقرية الفذة . وعلى الرغم من عدم امتداد حياته ، الا انها كانت عريضة تفيض نشاطا وحيوية وتحفل بالانتاج والتأليف والابداع .

لقد كان انتاجه متنوعا وغزيرا ، فكتب في الفلسفة والطب والطبيعيات والالهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق ، ووضع فيها ما يزيد على مائة مؤلف ورسالة ، يعتبر بعضها موسوعات ودوائر معارف،

اذ جمع فيها شتات الحكمة والفلسفة وما أنتجه المفكرون الأقدمون ،
وأضاف اليها اضافات أساسية وهامة جعلته من الخالدين المقدمين في تاريخ
الفكر والعلم ، مما دفع البروفيسور « جورج سارتون » (١) الى الاعتراف
بأن « ٠٠٠ ابن سينا أعظم علماء الاسلام ومن أشهر مشاهير العلماء
العالمين ٠٠٠ » .

ولقد سحرت عبقرية ابن سينا المستشرقين والعلماء ، والشرق والغرب
على السواء ، فلقبه معظمهم بأرسطو الاسلام وأبقراطه ، وجعله دانتى بين
أبقراط وجالينوس ، وقال دى بور : « ٠٠٠ وكان ابن سينا أسبق كتاب
المختصرات الجامعة في العالم ٠٠٠ » ويرى فيه مثلاً للرجل الواسع الاطلاع
والمترجم الصادق عن روح عصره . والى هذا يرجع تأثيره العظيم وشأنه
في التاريخ . كما كان « مونك » يرى في ابن سينا انه من أهل العبقرية
الفذة ومن الكتاب المنتجين . أما « أوبرفيك » ، فيقول : ان ابن سينا اشتهر
في العصور الوسطى وتردد اسمه على كل شفة ولسان ، ولقد كانت
قيمته قيمة مفكر ملأ عصره ، وكان من كبار عظماء الانسانية على
الاطلاق .

لقد أجمع علماء الشرق والغرب على تقدير ابن سينا وتمجيده ،
واستقوا من رشح عبقريته وفيض نتاجه ، فكان من الذين ساهموا مساهمة
فعالة في تقدم العلوم الطبية والفلسفية والنفسية .

● سيرة الشيخ الرئيس ابن سينا بقلمه

هو أبو علي الحسين بن عبد الله علي بن سينا ، وهو ان كان أشهر
من ان يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر - قد ذكر من أحواله ووصف
من سيرته ما يغنى غيره عن وصفه ، ولذلك تقتصر من ذلك على ذكر ما قد
ذكره هو من نفسه ، ونقله عنه أبو عبيدة الجورجاني قال . قال الشيخ
الرئيس :

(١) جورج سارتون : عالم أمريكي (١٨٨٤ - ١٩٥٦) . يعتبر أحد أعظم مؤرخي
العلم . أهم آثاره « مقدمة لدراسة تاريخ العلم » .

« ان أبى كان رجلا من أهل بلخ (٢) ، وانتقل منها الى بخارى فى أيام نوح بن منصور (٩٧٦ - ٩٩٧ م) ، واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية من ضياع بخارى وهى من أمهات القرى وبقرىها قرية يقال لها أفشنة ، وتزوج أبى منها والدتى ، وقطن بها وسكن وولدت فيها . ثم ولد أخى ، ثم انتقلت الى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الآداب . وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى منى العجب ، وكان أبى ممن أجاب داعي المصريين وبعد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وانى أسمعتهم . وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسى ، ابتدأوا يدعوننى أيضا اليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى الى رجل كان يتتبع العقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم صار الى بخارى أبو عبد الله النائلى وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتزود فيه الى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألفت طريق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم منه .

ثم ابتدأنا بكتاب ايساغوس على النائلى ، ولما ذكر لى حد الجنس انه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ، أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم ، وكانت آية مسالة قالها لى أتصورها خير منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما وقائعه فلم يكن عنده منها خير ، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى ، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب اقليدوس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت الى الجسطى ، ولما فرغت من مقدماته ، وانتهيت الى الأشكال الهندسية - قال النائلى فور قرائتها : حلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه . ثم فارقتى النائلى متوجها الى كاركنج ، واشتغلت متوجها أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والالهى ، وصارت أبواب العلم تتفتح على .

ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم انى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح على من

(٢) بلخ : مدينة مشهورة بخراستان .

أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه ، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشر سنة ، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف السنة ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره ، وكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، وأرتبها ، ثم نظرت فيما عساه تنتج وراعت شروطا .

حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة ، وكلما كنت أتخير من مسألة ولم أظفر بالحد الأوسط في قياسى ترددت إلى الجامع ، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المستغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب حتى تعود إلى قوتي ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعبائها حتى إن كثيرا من المسائل اتضح لي وجوها في المنام ، وكذلك حتى استحكم على جميع العلوم ، ووقعت عليها بحسب الامكان الانساني ، وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزد فيه إلى اليوم حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي ، ثم عدلت إلى الالهى ، وقرأت كتاب ما بعده الطبيعة ، فما كنت أفهم فيه ، والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ، والمقصود به ويأست من نفسى ، وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، واذ أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه فعرضه على فرددته ، رد متبرم معتقدا أن لا فائدة في هذا العلم ، فقال لي : اشتر منى هذا فانه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، واشتريته فاذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى من أغراض كتاب ما بين الطبيعة ورجعت إلى بيتى وأسرعت فقراءته فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشيء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى ، وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور الذى أنفق له مرض أتعب الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر فيهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه احضارى ، فحضرت ، وشاركتهم فى مداواته ، وتوسعت بخدمته ، فسألته يوما الاذن لي فى وصول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب .

وقرات تلك الكتب وظفرت بفوائدها .

ثم مات والدى وتصرفت فى الأموال وتقلدت شيئا من أعمال

السلطان ، وتنقلت في بلاد كثيرة ، ثم مضيت الى دهستان ، ومرضت مرضا صيفيا ، وعدت الى جرجان ، وأنشأت في حالي قصيدة :

لما عظمت فليس مصر بواسعى لما غلا ثمنى عدمت المشتري

قال أبو عبيدة الجورجاني : « أملى على المختصر الوسيطاني في المنطق لابن محمد الشبراوى في كتاب المبدأ والمعاد ، وكتاب الارصاد الكلية ، وصنفت كتباً كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطى .

ثم صنف في أرض الجبل بقية كتبه .

ثم صار الشيخ بعد ذلك من حاشية علاء الدين المقدمين ، فظل الشيخ الرئيس يخدم علاء الدولة لما لقيه عنده من حسن التكريم ، فبقى معززا مكرما ، وكان كثير الرحلات كثير النشاط .

وأخيرا وصل الى همذان ، وقد ضعفت صحته ، ويقال : انه اغتسل وقاب وتصدق بماله على الفقراء ، ورد المظالم الى أهلها ، وأعتق ممالিকে ، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن ، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام ، واستمر على هذا الحال حتى توفى في همذان في يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هجرية ١٠٣٦ ميلادية وهو في الثامن والخمسين من عمره .

● ابن سينا يتحدث عن كتابه

وضع ابن سينا مؤلفات في الطب جعلته في عداد الخالدين . وقد يكون كتابه « القانون » من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها . اشتهر كثيرا في ميدان الطب وذاع اسمه وانتشر انتشارا واسعا في الجامعات والكليات . وشغل هذا الكتاب علماء أوروبا ولا يزال موضع اهتمامهم وعنايتهم . وقد ترجمه الى اللاتينية « جيرارد أوف كريمونا » وطبع في أوروبا خمس عشرة مرة باللاتينية ما بين ١٤٧٣ و ١٥٠٠ م ، وبقي بفضل حسن تبويبه وتصنيفه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعول عليه في مختلف الكليات الأوروبية حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد .

وفي هذا الكتاب جمع ابن سينا ما عرفه الطب عن الأهم السابقة الى ما استحدثه من نظريات وآراء وملاحظات جديدة ، وما ابتكره من ابتكارات هامة ، وما كشفه من أمراض سارية وأمراض منتشرة الآن ، مما أدى الى

تقدم الطب خطوات واسعة جعلت بعضهم يقول : كان الطب ناقصا فكملة
ابن سينا !

وكذلك ضمن ابن سينا كتاب القانون شرحا وافيا لكثير من المسائل
النظرية والعملية ، كما أتى فيه على تحضير العقاقير الطبية واستعمالها .
و قرن ذلك ببيان عن ملاحظاته الشخصية .

وفي كتاب القانون ظهرت مواهب ابن سينا في تصنيفه وتبويبه
للمعلومات الطبية ، وما كشفه من نظريات جديدة فيها ، وأبرزها في قالب
منطقي . فقد كان قوى الحججة ، قاطع البرهان ، وهذا ما جعل كتاباته
شديدة التأثير في رجال العلم في القرون الوسطى وما جعل السير « ولیم
أوسلر » يقول عن كتاب القانون : انه كان الانجيل الطبي لأطول فترة
من الزمن . . . »



ولنترك الآن للشيخ الرئيس ابن سينا الفرصة لكي يحدثنا عن كتابه
بأسلوبه فيقوله في مقدمته ما يأتي :

الحمد لله حمدا يستحقه بعلو شأنه وسبوغ احسانه والصلاة على
نبيه المصطفى محمد وآله وأصحابه الطاهرين وبعد فقد اتمس من بعض
خلص اخواني ، ومن يلزمني اسعافه فيما يسمح به وسعى - أن أصنف
في الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالا يجمع الى
الشرح الاختصار والى ايتاء الأكثر حقه من البيان والايجاز ، فأسعفته بذلك
ورأيت أولا أن أتكلم عن الأمور الكلية في قسمي الطب ، أعني القسم
النظري والقسم العملي ، ثم بعد ذلك أتكلم عن كليات أحكام قوى الأدوية
المفردة ثم في جزئياتها ، ثم بعد ذلك عن الأمراض الواقعة بالأعضاء عضوا
عضوا فأبتدىء أولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته ، وأما تشريح الأعضاء
المفردة البسيطة فيكون قد سبق من ذكره في الكتاب الأول الكلي ، وكذلك
منافعها ، ثم اذا فرغت من تشريح ذلك العضو - ابتدأت في أكثر المواضع
بالدلالة على كيفية حفظ صحته ، ثم دلت بالقول المطلق على كليات أمراضه
وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها ، وطرق معالجتها بالقول الكلي أيضا ،
فاذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية ودلت أولا
في أكثر على الحكم الكلي في حده وأسبابه ودلائله ، ثم تخلصت الى الأحكام
الجزئية ، ثم أعطيت القانون الكلي للمعالجة ، ثم نزلت الى المعالجات
الجزئية بدواء بسيط أو مركب ، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة

في الجداول والأصباغ التي أرى اشتغالها عليه ، كى تقف أيها المتعلم عليه اذا وصلت اليه ، ولا أكرر الا قليلا منه ، وما كان من الأودية المركبة انما الأخرى به أن يكون في الأقربازين . ثم يقول : ورأيت أن أفرغ من هذا الكتاب الى كتاب أيضا في الأمور الجزئية ، مختص بذكر الأمراض ، التي اذا وقعت لم تختص بعضو بعينه ، ونورد هنالك أيضا الكلام عن الزينة وأن أسلك في هذا الكتاب أيضا مسلكي في الكتاب الجزئي الذي قباه فاذا انتهينا بتوفيق الله من الفراغ من هذا الكتاب - أتيت بعده بكتاب « الأقربازين » وهذا الكتاب « يقصد كتاب القانون » لا يسع من يدعى هذه الصناعة ويتكسب بها الا أن يعترف بأن جله معلوم ومحفوظ عنده ، فانه يشتمل على أقل ما لابد منه للطبيب .

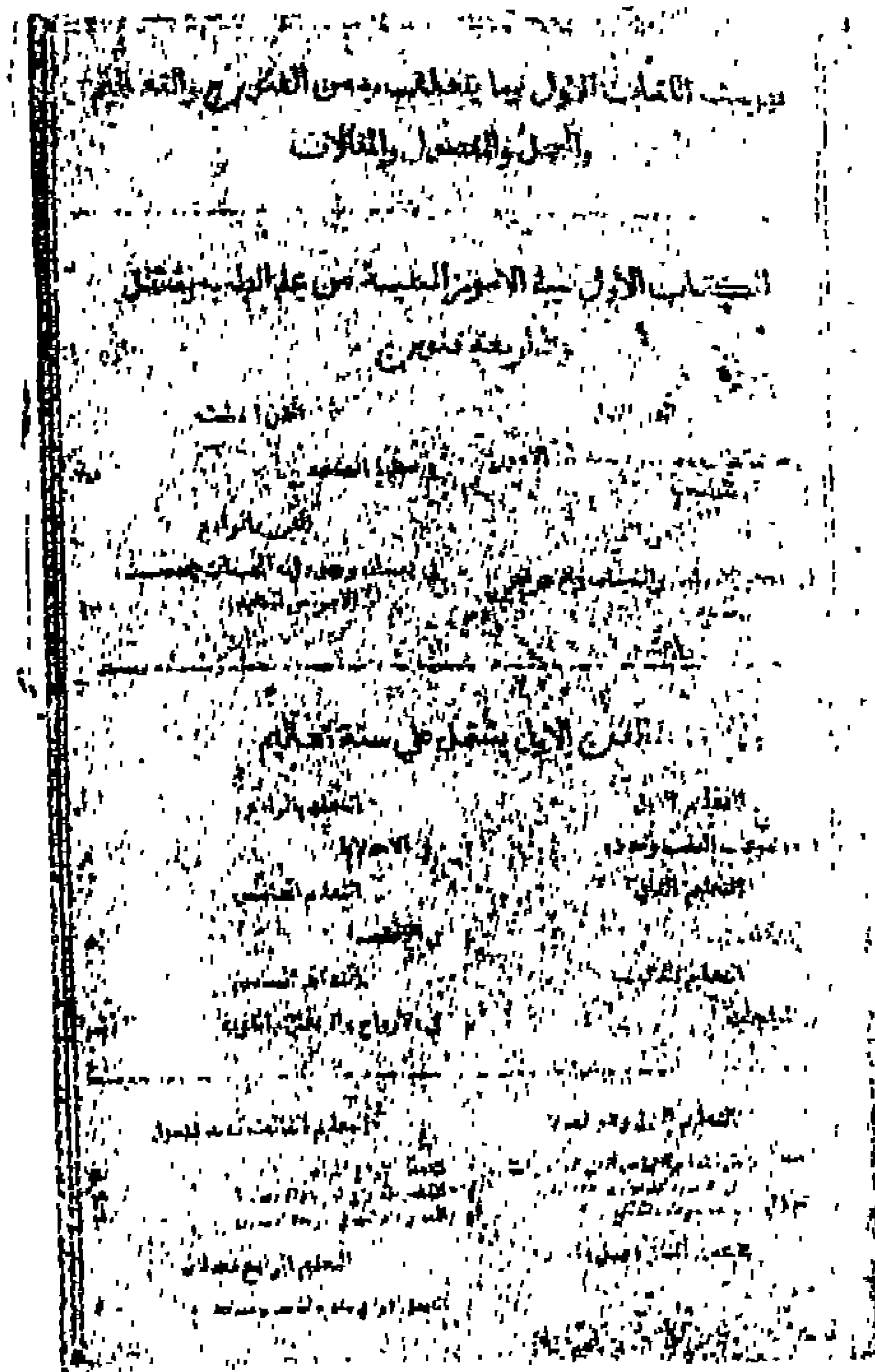
وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط وان أخر الله في الأجل ، وسأعد القدر انتصبت انتصابا ثانيا .

ثم يقسم ابن سينا كتابه الى خمسة كتب :

- ① الكتاب الأول في الأمور الكلية في علم الطب .
- ② والكتاب الثاني في الأدوية المفردة .
- ③ والكتاب الثالث في الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الإنسان عفسوا عضوا ، أى بكل عضو على حدة من الرأس الى القدم .
- ④ والكتاب الرابع في الأمراض الجزئية التي اذا وقعت لم تختص بعضو مثل الحميات .
- ⑤ والكتاب الخامس في تركيب الأدوية وهو الأقربازين .

وأما الكتاب الأول فيتناول أربعة فنون :

- الفن الأول في حد الطب وموضوعاته في الأمور الطبيعية .
- والفن الثاني في تصنيف الأمراض والأسباب والأعراض الكلية .
- والفن الثالث في حفظ الصحة .
- والفن الرابع في تصنيف وجوه المعالجات بحسب الأمراض الكلية .



ثم يقسم الفن الأول الى ستة تعاليم :

الأول في موضوعات الطب ، والثاني في الاسكان ، والثالث في المزاجات ، والرابع في الاخلاط ، والخامس في الأعضاء ، والسادس في الأرواح والقوى أو الأفعال .

وأما التعليم الأول فهو فصلان : فالأول في حده الطب ، والثاني في موضوعات الطب والتعليم الثاني فصل واحد وهو الاسكان والتعليم الثالث ثلاثة فصول : الفصل الأول في تعليم المزاج ، والثاني في أمزجة الأعضاء ، والثالث في أمزجة الأسنان والتعليم الرابع فصلان : الأول في مائية الخلط وأقسامه ، والفصل الثاني في كيفية تولد الاخلاط ، والتعليم الخامس فصل واحد وخمس جهل فالفصل في مائية العضو وأقسامه والجملة الأولى في العظام وهي ثلاثون فصلا : الفصل الأول قول كلي في العظام والمفاصل ، والثاني في تشريح القحف (٣) ، والثالث في تشريح ما دون القحف الى الرأس والرابع في تشريح عظام الفكين ، والأنف ، والخامس في تشريح الأسنان والسادس في منفعة الصلب ، والسابع في الفقرات .

(٣) القحف : القطع أو الكسر .

والثامن في منفعة العنق وتشريح عظامه والتاسع في تشريح فقاار الصدر ومنافعها والعاشر في تشريح فقرات القطن والحادى عشر في تشريح العجز ، والثانى عشر في تشريح العصعص والثالث عشر كلام كالحاتمة في منفعة الصلب ، والرابع عشر في تشريح الأعضاء ، والخامس عشر في تشريح القص والسادس عشر في تشريح الترقوة ، والسابع عشر في تشريح الكتف ، والثامن عشر في تشريح العضد والتاسع عشر في تشريح الساعد، والعشرون في تشريح المرفق ، والحادى والعشرون في تشريح الرسغ ، والثانى والعشرون في تشريح مشط الكف ، والثالث والعشرون في تشريح الأصابع والرابع والعشرون في منفعة الظفر ، والخامس والعشرون في تشريح الفخذ ، والسادس والعشرون والسابع والعشرون والثامن والعشرون في تشريح عظام الساق ، والتاسع والعشرون في تشريح الركبة والثلاثون في تشريح القدم .

ويلاحظ أن الشيخ الرئيس متأثر فى تبويب كتابه وعرض ما اشتمل عليه من حقائق الطب بدراسته الفلسفية المنطقية ، فهو يقسم كتابه أولا الى خمسة كتب ، ويقسم كل كتاب من الكتب الخمسة الى فنون ، ويقسم الفنون الى تعاليم والتعاليم الى فصول وجمل ، وقد راغى فى هذا التقسيم أنه يحقق الدقة فى حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا فى مقدمة كتاب القانون برسم دستوره الطبى فى تأليف كتابه ويتلخص هذا الدستور فى الخطوط العريضة التى هى الأمور الكلية فى علم الطب والأدوية المفردة وأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضوا عضوا والأمراض الجزئية الأخرى وتركيب الأدوية « الاقربازين » ، ويبدأ مقدمته بشرح السبب الذى حمله على تأليف الكتاب ، ويحاول أن يبين انه يتناول أمورا معروفة وانه اذا امتد به الأجل فانه سيتناول الموضوع بطريقة أعم وأشمل ، والواقع ان الشيخ الرئيس كان متواضعا الى حد بعيد ، بدليل ان كثيرا من علماء العرب قد اعترفوا بما لكتاب القانون من قيمة علمية كبرى فى ميدان الطب ، وبانه قد تناول أدق المسائل فى هذه الناحية كذلك رسم ابن سينا لنا طريقته الفريدة فى التأليف الطبى فهو يبدأ أولا بالحديث عن تشريح العضو ، ثم يعجب على ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحة العضو ، ثم ينتقل الى الكلام عن كليات أمراض العضو وأسبابها وطرق الاستدلال عليها ومعالجتها ويختم كتابه ببحوث ضافية فى علم الأدوية « الاقربازين » ، ومن الطريف أن نورد بعض الأمثلة للتقسيمات السابقة وهى توضيح رأيه فيما يعرض له من مشكلات الطب وقضاياها ، ومن هذه الأمثلة :

(أ) ما يقوله في تعريف الطب :

يقول الشيخ الرئيس في صفحة ٥ من الجزء الأول من كتابه القانون :

« الفصل الأول من الفن الأول من الكتاب الأول في حد الطب ، أقول : ان الطب علم يعرف منه أحوال صحة بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ، والطب ينقسم الى نظر وعمل ، ثم يبدأ في الرد على من قالوا : ان الطب نظري فقط ، فيقول : وأنتم قد جعلتم الطب كله نظرا ، اذ قلتم : انه علم ، وهو يجيب عن هذا الاعتراض بقوله : ان من الصناعات ما هو نظري وعمل ، ويقال : ان من الطب ما هو نظري وعمل ، ثم يفسر لنا معنى النظري فيقول : ونعني بالنظري ما يكون التعليم فيه يفيد الاعتقاد فقط من غير أن يتعرض لبيان كيفية عمل ، مثل ما يقال في الطب : ان أصناف الحميات ثلاثة وان الأمزجة تسعة ، ويفسر القسم العملي من الطب بمثال يورده فيقول : ان الأورام الحارة يجب أن يقرب اليها في الابتداء ما يردع ويبرد ويكثف ، ثم ، بعد ذلك تمزج الرادعات بالمزجيات ثم بعد الانتهاء الى الانحطاط (يقصد هبوط الورم) يقتصر على المزجيات المحللة ، فهذا مما يفيد رأيا وبيان كيفية عمل ، فاذا علمت هذين القسمين فقد حصل لك علم نظري وعلم عملي وان لم تعمل قط » . ويفهم من كلام ابن سينا في تفسير القسم العملي من الطب بأنه العلم بكيفية العمل .

(ب) ما يقوله في تشريح الأضلاع :

« الأضلاع وقاية لما تحيط به من آلات التنفس وآلات الغذاء ولم تجعل عظما واحدا لثلا تثقل ، وليسهل الانبساط اذا زادت الحاجة على ما في الطبع ، أو امتلأت الأحشاء من الغذاء والنفخ فأحتيج الى مكان أوسع للهواء المجتذب ، وليتخللها عضل الصدر المعينة على أفعال التنفس وما يتصل به ، ولما كان الصدر يحيط بالرئة والقلب وما معها من الأعضاء ، وجب أن يحتاط في وقايتها أشد الاحتياط ، فان تأثير الآفات العارضة لها أعظم ومع ذلك فان تحصينها من جميع الجهات لا يضيق عليها ولا يضرها فخلقت الأضلاع السبعة العليا مشتملة على ما فيها ، ملتقية عند القص محيطية بالعضو الرئيسي مع جميع الجوانب . وأما ما يلي آلات الغذاء فخلقت كالخرزة من الخلف حيث لا تدركه حراسة البصر ، ولم تتصل من قدام بل درجت يسيرا يسيرا في الانقطاع فكان أعلاها أقرب مسافة ما بين

أطرافها البارزة ، وأسفلها أبعد مسافة وذلك لتجمع الى وقاية أعضاء الغذاء في الكبد والطحال وغير ذلك توسيعا لمكان المعدة فلا تنضغط عند امتلائها من الأغذية ومن النفخ ، فالأضلاع السبعة العليا تسمى أضلاع الصدر وبها من كل جانب سبعة ، والوسطان منها أكبر وأطول والأطراف أقصر ، فان هذا الشكل أحوط في الاشتغال من الجهات على المشتغل عليه ، وهذه الأضلاع تميل أولا على أحد بدايتها الى أسفل ، ثم تكرر كالمترجمة الى فوق فتتصل بالقص على ما نصفه بعد ، حتى يكون اشتغالها أوسع مكانا وتدخل من كل واحد منها زائدتان في فقرتين غائرتين في كل جناح على الفقرات ، فيحدث فصل مضاعف ، وكذلك السبعة العليا مع عظام القص « ويبدو من هذا الوصف أن ابن سينا كان على علم دقيق بتشريح جسم الانسان وتركيب أعضائه .

(ج) ما يقوله في مرض الدوار :

« هو أن يتخيل لصاحبه أن الأشياء تدور عليه ، وإن دماغه وبدنه يدور فلا يملك أن يثبت بل يسقط ، وكثيرا ما يكره الأصوات ويعرض له من تلقاء نفسه مثل ما يعرض لمن دار على نفسه كثيرا بسرعة ، فلا يملك أن يثبت قائما أو قاعدا أو أن يفتح بصره ، وذلك لما يعرض للروح الذي في بطون دماغه وفي أوردته وشرايينه من تلقاء نفسه ما يعرض له عندما يدور دورانا متصلا ، والفرق بين الصرع والدوار أن الدوار قد يثبت مدة والصرع يكون بغتة ، فيسقط صاحبه ساكنا ويضيق ، وأما السداد ، فهو أن يكون الانسان اذا قام أظلمت عيناه وتهيأ للسقوط ، والشديد منه يشبه الصرع ، الا انه لا يكون معه تشنج كما يكون للصرع . ثم يتحدث عن أسباب الدوار فيقول : وهذا الدوار قد يقع بالانسان بسبب انه دار على نفسه فدارت الأرواح والبخار فيه كما تدار الفنجانة المشتملة على ماء مدة ، وتسكن فيبقى ما فيها دائرا مدة ، فاذا دار الروح تخيل للانسان أن الأشياء تدور . الى أن يقول : وقد يكون هذا الدوار من النظر أيضا الى الأشياء التي تدور حتى ترسخ تلك الهيئة المحسوسة في النفس ، ولهذا قيل : ان الأفاعيل الحسية كلها متعلقة بآلات جسدانية منفعة .

ثم يقول : وقد يكون الدوار أيضا من أسباب بدنية حاضرة في جوهر الدماغ حاصلة من بخارات خائلة في العروق التي فيه وفي العصب ، وأما من اخلاط محتقنة فيه من كل جنس ، فتبخر بأدنى حركة أو حرارة ، فاذا تحركت تلك الأبخرة ، حركت بحركتها الروح النفساني . . . وأما بسبب كثرة بخارات قد احتقنت في الدماغ متصعدة اليه من مواضع

أخرى ثم مستقرة فيه ثانية عن مرض حار متقدم أو مرض بارد ، فيكون رياحا نافخة تحركها القوة المنضجة والمحللة ، وقد يكون لا لحركة بخارات في الدماغ ولكن لسوء مزاج مختلف بغتة ، يلزم منه هيجان حركة مضطربة في الروح وقد يكون من محرك للروح من خارج مثل ضارب للرأس أو كاسر للقفح ، حتى يضغط الدماغ والروح الساكن ، فتتبعه حركات مختلفة دايرة متموجة ، كما يحدث في الماء من وقوع ثقل عليه أو وقوع ضرب عنيف على متنه فيستدير موجه .

ثم يتحدث ابن سينا عن العلامات المميزة للدوار ، ويعقب على ذلك بوصف العلاج لكل حالة من حالات الدوار فيقول : فأما الكائن عن دوران الانسان حول نفسه أو من نظره الى الدورات . أو من نظرة الى مكان عال ، فيعالج بالسكون والقرار والنوم ، ويتناول القوابض الحامضة ، ويكسر لقما فيها ويتناولها وأما الكائن عن دم واختلاط مختلفة في البدن فيعالج بالفصد من القفا ، ثم من العرق الساكن الذي خلف الأذن ، فانه أفضل علاج لجميع أصناف الدوار المادى .

(د) ما يقوله في الخفقان وأسبابه :

الخفقان حركة اختلاجية تعرض للقلب وسببه كل ما يؤذى القلب مما يكون في نفسه أو في غلافه ، أو ما يتصل به من الأعضاء المجاورة له المشاركة اياه . وقد يكون من مادة خليطة وقد يكون ناشئا عن مزاج ساذج ، وقد يكون عن ورم وقد يكون عن سبب غريب ، ومن علاماته النبض المخالف المجاوز للحد في الاختلاج ومن العلاج :

إذا كان من أسباب مادية ينتفع بالاستفراغات ، وأما الدموى فبالفصد وبإخراج الدم البالغ وتعديل الغذاء بالكف والكيف ، وإن كانت له نوبات ، أو فصل يعترى فيه مثل الربيع ، فمن الواجب أن يتقدم قبل النوبة بفصد وتلطيف غذاء وتناول ما يقوى القلب . وأما الكائن بسبب خلط بلغمى ، فيجب أن يستفرغ بأدوية يبلغ تأثيرها في القلب .

(ر) ما يقوله في أمراض الرئة :

« ان الأطباء اختلفوا في قروح الرئة في انها تبرأ أو لا تبرأ : فقال قوم : انها لا تبرأ البتة لأن الالتحام يفتقر الى السكون ولا سكون هناك . وقال جالينوس : انها تبرأ » .

تعرض الرئة للأمراض المختلفة لتشابه الأجزاء والأمراض الآلية وخصوصا السدد في عروقها .

وقد تكثر أمراض الرئة في الشتاء والخريف لكثرة النوازل وخصوصا في خريف ممطر بعد صيف يابس شمالي ، والهواء البارد ضار بالرئة وكثيرا ما تؤدي أمراض الرئة الى أمراض الكبد كما يؤدي شدة بردها وشدة حرها الى الاستسقاء .

(ز) ما يقوله في الكبد وأمراضه :

ورم بعد ضربه - ورم بارد في الكبد

ورم صلب مع عسر النفس يتبعه استسقاء ، ويهلكون في أكثر الأمر بانحلال الطبيعة لانسداد المسالك الى الكبد .

واذا طالت العلة لم ينفع العلاج ، فان كان الصلب سرطانيا وكان هناك احساس بالوجع أشد كانت أحداث الآفة في اللون وفي الشهوة وغير ذلك ، أكثر وربما أحدث غثيانا بلا حمى لم يحس بالوجع ، وكان في طريق اماتة العضو . واعلم ان الكبد سريعة الانسداد وخصوصا اذا استعملت المظاظ . وأمراض الكبد - اليرقان - الاستسقاء وأمراض الكلى وحصاة المثانة وغيرهما .

(س) ما يقوله في أمراض الأذن :

الفصل الرابع في احوال الأذن وهو مقالة واحدة

في تشريح الأذن .

اعلم ان الأذن خلقت للسمع وجعل لها صدف معوج ليحبس جميع الصوت ثم يصل الى ان سطحها الانسي مفروش بليف العصب السابع الوارد من الزوج الخاص من أزواج العصب الدماغى . فاذا نادى الموج الصوتى الى ما هناك أدركه السمع .

ونص في آفات السمع فقال : ان آفة السمع اما ان تكون أصيلة فيكون صمم واما ان تكون عارضة .

فقدان السمع : منه مولود طبيعى لا علاج له ، ومنه حادث ، لكنه طال عهده فهو مزمن ، وذلك أيضا قريب من اليأس أو عسر العلاج ، وأما الحادث القريب العهد في الطرش فقد يقبل العلاج .

وأما أسباب ذلك فقد يكون منه مشاركة عضو مثل ما يكون من مشاركة الدماغ أو بعض الأعضاء المجاورة كالذى يقع عند أول انبسات

الأسنان . . والذي يقع عند أوجاع الأسنان (وقد يكون لآفة خاصة بالسمع) .

أما الآفة في عصب السمع فقد تعرض لجميع أسباب الأمراض المتشابهة الأجزاء فيها ، والآفة وانحلال الفرد ، أما الأعراض المتشابهة الأجزاء فيها فكل واحد من أصناف سوى المزاج المفرد والمركب .

وأما الآفة في العصب فمثل سدة موجهها خليط أو مدة أو ورم . . ورم حاد أو صلب أو عبارة عن وسخ أما انحلال الفرد فقد يكون من قرحة أو أكل شيء .

وأما الكاين بسبب المنخرين فأكثره عن سدة لسبب بدني أو بسبب من خارج البدن مثل لحم زائد أو دود أو خلط غليظ أو صملاغ أو جمود من ورم .

● في علاج الدوى والطنين والصفير بالأذن :

يجب أن يتجنبوا الشمس والحمام والحركة والصياح والقيء والامتلاء ، وأن يلينوا الطبيعة أما الكائن بالمشاركة فيجب أن يفصد منه فصد العضو الفاعل له وخصوصا المعدة ، فينقى ويقصد الدماغ والأذن فيقويان .

أما الكاين بسرعة الحس فمن الناس من يأمر فيه بالمخدرات ، مثل دهن الورد المطبوخ بالخل مع قليل أفيون أو ممزوج بدهج البنج أو الشوكران مسحوقا .

أما الكاين عن قيح فيعالج بعلاج الورم والقيح .

(ص) ما يقوله في العلاج بالجراحة :

المقالة الأولى في الفصل الرابع من الكتاب الرابع من القانون .

فصل كلي من علاج الجراحات :

الجراحة اللحمية لا تخلو أما أن تكون شقا بسيطا مستقيما أو مدورا أو ذا أضلاع أو شقا مع نقصان شيء من اللحم ، وقد يكون غائرا نافذا ، وقد يكون مكشورا ، ولكل واحد نديه ، ويشترك الجميع في حبس الدم السائل ، وقد جعلت له بابا ، وربما كان سيلان قدر معتدل من الدم نافعا للجراحة يمنع الورم والتبثر والحمى فانه من أفضل ما يعنى

به في الجراحات أن تمنع تورمها فانه اذا لم يوجد ورم يمكن علاجه بالجراحة ، وأما اذا كان هناك ورم أو كان رضى اجتمع في تحليله مع الجراحة دم يريد أن يورم أو يتقيح لا يمكن معالجته بالجراحة ما لم يدير ذلك ويعالج الورم وان احتقن في المرض دم فيتعجل في تحليله اذا كان له قدر يفيد وذلك بإحالة قيما وتحليله ، وذلك بكل حار لين ومما قد علم يجب أن يعان سيلان الدم اذا قصر فان كان الورم بسيطا مستقيما لم يسقط منه شيء ويكفى في تدبيره الشد والريط .

واجتهادك في ألا ينجذب الى العضد الا دم طبيعي . وان كان عظيما لا تلتقى أطرافه لانه مستدير متباعد أو مختلف الشكل أو قد ذهب منه لحم قليل غير كثير فعلاجه الحياطة ومنع اجتماع الرطوبة فيه باستعمال الحبوب الرادعة واستعمال المصقات . . الخ (قانون ابن سينا الجزء الأول) .

(ض) ما يقوله في العلامات الدالة على الأورام :

• أما الظاهرة فيدل عليها الحس والمشاهدة ، وأما الباطنة فالحر منها تدل على الحمى اللازمة والثقل ان كان لا حس للعضو الذي هو فيه أو الثقل مع الرجوع ان كان للعضو الوارم حس ، ومما يدل أيضا أو يعين في الدلالة الحالة الداخلية في أمثال ذلك العضد ، ومما يؤكد الدلالة احساس الانتفاخ في ناحية ذلك العضد ان كان للحس اليه سبيل ، وأما البارد فليس ينفعه لا محالة وجع وتعسر الإشارة الى علاماته الكلية .

وربما انتقلت المادة في الأورام الباطنة من عضو الى عضو مثل ما ينتقل في أورام الدماغ الى ما خلف الأذنين وإلى أورام الكبد الى الأريبيتين ، والردى أن ينتقل من عضو الى عضو أشرف منه أو أقل صبرا على ما يعرض به مثل أن ينتقل من ذات الجنب الى ناحية القلب أو الى ذات الرئة .

● القيمة العلمية لكتاب القانون

ويعتبر كتاب القانون في الطب ، من خير ما تتيه به الحضارة العلمية العربية في هذا الفن ، وقد فضلت العرب على ما سبقه من مؤلفات ، لما وجدوا فيه من حسن التبويب والدقة العلمية ، مع ما تميز به الإشارة الى خبرة مؤلفه وتجاربه ، فقد تناول فيه علوم وظائف الأعضاء ، وعلم

الأمراض ، وعلم الصحة ، ومعالجة الأمراض ، وعلم الأدوية . وقد ترجم الكتاب الى اللغة اللاتينية والى اللغات الأوروبية ، وطبع فى أوروبا خمس عشرة مرة . وكان العمدة فى دراسة الطب فى الجامعات الأوروبية حتى منتصف القرن السابع عشر .

ويقال ان فى المكتبة الأهلية ببائرس جوهرتين نفيستين لا يعادلها ثمن : الأولى نسخة من كتاب القانون باللغة العربية طبعت فى أواخر القرن السادس عشر ، أى فى أوائل عهد الطباعة ، وكانت لا تعار الا على منضدة خاصة ، والثانية نسخة عربية من كتاب جالينوس فى الطب العام ، وقد كتب فى أول صفحة منها : هذا الكتاب ملك أبى على بن الحسين بن سينا المتطبب وهزم العبارة بخط الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه .

وقد أودع الشيخ الرئيس كتابه القانون كما تقدم كثيرا من أنواع العلاج ووصف الأمراض ، وكان يفوق من سبقه من أطباء اليونان والرومان والفرس العرب بدقته فى مناقشة الحالات المرضية ، ومهارته العظيمة فى تشخيص الأمراض ، وبحث أسباب المرض . وكان الطب الى أيامه يتناول ما ترجم من كتب أطباء اليونان وما نقل عن أطباء مدرسة « جند ريسابور » وبعض المعارف الطبية السريانية الممتزجة ببقايا طب الكلدانيين (٤) القدماء ، وطب الهنود وتجارب العرب الطبية فى العصر الجاهلى .

هذه المعارف كلها انصهرت وتفاعلت ثم تبلورت فى كتاب الحاوى للرازى ، وقد درس ابن سينا كل ذلك دراسة عالم محقق يعتمد على التجربة ، ثم أضاف الى معلومات السابقين ما وصل اليه باجتهاده وعقليته المبتدعة المبتكرة ، وكان من أشهر ابتكاراته الطبية : فحوصه الدقيقة ودراساته للدورة الدموية وتشريح القلب ، مما لا مثيل له عند اليونان والرومان وهو أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفا دقيقا صحيحا ، وفرق بينه وبين غيره من الأمراض المشابهة له كما شرح أمراض الجهاز الهضمى شرحا وافيا ، يشهد له بالبراعة فى ميدان الطب ، وهو الذى قال بضرورة التمييز الدقيق بين الأمراض عند تشخيصها .

أما الأمراض العصبية فقد كان ابن سينا فيها طبيبا مبرزا فى عصره فقد وجه عنايته الى الأشكال المختلفة للشلل والفالج النصفى وشلل الوجه ، واهتدى الى التمييز بين نوعى المركزى والموضعى منه وشرح

(٤) الكلدانيون : أمة سامية قديمة عاشت فى وادى دجلة والفرات وهم البابليون وكانت لهم دولتان مشهورتان : بابل القديمة (٤٠٠٠ ق م - ١٣٠٠ ق م) ، وبابل الحديثة (٦٠٦ ق م - ٥٣٨ ق م) .

باسهاب التشخيص التمييزي بينهما وقد خالف القدماء الذين ينكرون وجود الأورام بالملح والعظام فقال : ان الملح والعظام قد تكون مقرا للأورام ، والطب الحديث يعترف اليوم بذلك .

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف ، وهي طريقة أعاد ادخالها في العلاج الجراح الفرنسي « كالو » سنة ١٨٩٦ . وكان لابن سينا طرق شائعة في وصف الأمراض العقلية وعلاجها . وله أيضا أكبر الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفسي ، ومما وصل اليه ابن سينا في كتابه ولم يسبقه اليه أحد من الأطباء أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف ، وأنها أكثر وقوعا في هذين الفصلين وهو أول من تنبه الى أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين . وقد درس الشيخ الرئيس في كتابه أيضا أمراض الكبد ووفق طريقة فحصه ووضعه ، كما وصف أعراض مرض اليرقان وصفا يتفق مع الأوصاف الحديثة وشرح السكتة الدماغية الناتجة عن احتقان الدم مخالفا بذلك التعاليم اليونانية ، وعندما تكلم عن أمراض المعدة أخذ يصف بدقة أعراض ضيق « فتحة البواب » أو القرحة المعدية ، وأفاض في شرح الإدمان على شرب الكحول ، وأثر ذلك في الكبد ، ثم علل الأسباب الفسيولوجية لتلايف الأمعاء ، وأفاض في الحديث عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته ، وعن خطر سرطان عنق الرحم ووصف أيضا أعراض حصى المثانة وصفا دقيقا واضحا ، يقول الدكتور « خير الله » في كتابه الطب العربي : ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا الى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية ، وفي هذا إشارة الى أن ما قاله جالينوس العرب هو ما يذهب اليه الطب الحديث في هذا العصر ، وقد ميز بين حصاة المثانة وحصاة الكلية .

كما وصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وله في علم الديدان كشوف جديدة وتجاربه وأوصافه في علم التشريح أتم وأكمل من أوصاف « جالينوس » . وقد أدخل في علم العقاقير الطبية « الأقربازين » عددا كبيرا من الأدوية النافعة والعقاقير الطبية المفيدة التي لم تكن مستعملة من قبل .

ومن الأدلة الواضحة على اجتهاد ابن سينا في كتابه « القانون » ودقة ملاحظته في الطب ابتكاره ما يشبه « كيس الثلج » في عصرنا ، فقد صدع يوما فتصور أن مادة تريد النزول الى حجاب الرأس ، وأنه لا مأمّن من ورم يحصل فيه فأمر بإحضار ثلج كثير - ودقه ولفه في خرقة

وتغطية رأسه بها ففعل ذلك حتى قوى الموضع ، وامتنع عن قبول تلك
المادة وعوفي .

ولقد كان لابن سينا الفضل العظيم في كشفين هامين في عالم الطب .
فهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد ، وأول من استخدم التخدير
لأجراء العمليات الجراحية ولو لم يكن لابن سينا في كتابه القانون غير
هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرا واعترافا بفضلله على الانسانية ولو وازنا
بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج وطرق الفحص عن المرض .
داخل البلاد العربية وما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد
لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية في ذلك العهد وغيرها من الأمم
المجاورة التي كانت تعيش على الخرافات والأوهام ، فقد كان المريض في
تلك البلاد التي يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة ، ثم ينهال عليه
الطبيب ومساعدوه بالضرب حتى يخرج الشيطان من جسمه وهو المريض
في زعمهم وتصورهم ، وهذا دليل على الجهل المطبق الذي كان عليه أطباء
الغرب في تلك العصور .

وجماع القول : ان ابن سينا قد أدى رسالة الحياة على أفضل وأنتج
ما يكون الأداء ، وحرك عقله الفعال ، ومواهبه في ميادين الثقافة الانسانية
فأخرج من المؤلفات - وكتاب القانون من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها -
ما جعله من مفاخر العالم ومن أشهر علمائه وأعظم حكمائه .





(٥) المقدمة

ابن خلدون



مقدمة ابن خلدون ١٤٠٠ م مؤسس علم الاجتماع

[لو كان علماء الاجتماع قد اطلعوا على « المقدمة » في حينها لاستطاعوا
أن يتقدموا بهذا العلم أكثر مما تقدموا به]

ان علم الاجتماع أحدث العلوم . فهو لم يتخذ شكله النهائي المميز
قبل أواخر القرن الماضي ، ولم يصل بعد ذلك الى مرحلة النضج والتكامل
الا في مطلع القرن الحالي .

ولعل التأخر في ظهور هذا العلم وفي تكامله كعلم ، يعود الى الحرية
التي هي طبيعة الانسان : فعندما يشعر الانسان بالحرية ، يعتقد بطبيعة
الحال بحرية الآخرين ، وكذلك بحرية التجمعات الانسانية فهي تفعل
ما تشاء من غير قيد يقيدها ، ولا قانون ينظمها . فكما أن هذه الحرية
المزعومة حرمت على العالم الانساني ردحا طويلا من الزمن سن القوانين
ذات الطابع العام والمطلق ؛ فإنه ساد الاعتقاد خلال العصور بأنه من المحال

لنفس السبب انشاء علم للمحادثات الاجتماعية . ولم يظهر علم الاجتماع الا عندما بزغت فكرة أن في العالم الانساني قوانين تجرى عليها أحداثه ، كما في العالم المادى قوانين تجرى وفقا لها ظواهره .

ولقد ظهرت في الماضى دراسات اجتماعية كثيرة ، ولكنها لم تكن موجهة بفكرة علم ايجابى للمحادثات الاجتماعية ، وانما كانت تعود كلها الى السياسة ، وهى علم تقويى للمجتمعات . فلما كان المجتمع مكونا من بشر يتمتعون بالحرية فهو كائن - كما كانوا يعتقدون - على النحو الذى يريده له أعضاؤه ، وبنوع خاص رؤساءه . ولذا كانت مهمة المفكرين والفلاسفة الذين كتبوا عن المجتمع ، أن يبينوا لأعضاء المجتمع ما ينبغى أن يريدوه .

تلك هى مهمة أفلاطون فى محاورتيه « الجمهورية » « والقوانين » وكذلك من بعده أرسنطو فى « السياسة » وفى العصور الحديثة « هوبس » (١) وغيره .

وقد ظهر فى القرن الرابع عشر مفكر عربى خرج على هذه القاعدة ، هو ابن خلدون اذ تصور دراسة المجتمع كعلم خاص أى أن تدرس الظواهر الاجتماعية دراسة « وضعية » كما تدرس العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين ، وعلى هذا البحث وقف دراسته فى كتابه « المقدمة » وأيد ذلك بقوله « ليس التاريخ الا سردا بسيطا للحوادث ، وكان ينبغى أن يكون فحصا يقظا للقضايا المتعاقبة واستقصاء أسبابها البعيدة ومعرفة الصورة التى تبدو عليها » .

وسوف نتعرض لسيرة مؤلف هذا الكتاب الرائد لنلمح مكونات هذه الشخصية القذة ، وبعد ذلك ندرس المقدمة نفسها ونبين أغراضها ومنهجها وأثرها فى التراث الانسانى .

● نشأة ابن خلدون وأعماله

هو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون الذى ولد بتونس فى عرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) . ولما بلغ سن التعليم بدأ بحفظ القرآن وتجويده وطلب العلم . وقد تتلمذ على أبيه وعلى عدد

(١) هوبس : فيلسوف انجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩) .

كبير من شهيرى علماء تونس لعهد . فدرس عليهم العلوم الشرعية والعربية والطبيعة والرياضة وعلوم المنطق والفلسفة . وكان فى نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل . ولكنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره عاقه عن متابعة دراسته حادثان : أحدهما وفاة أبيه ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم من شيوخه من الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب الأقصى .

وقد تغير من جراء ذلك مجرى حياته الذى رسمه لنفسه ، واتجه الى تولى الوظائف العامة ، وخوض غمار السياسة .

استأثرت بعد ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه فى أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من من حياته (من سنة ٧٥١ الى سنة ٧٧٦ هـ) .

غير أنه يبدو أن هذه الأمور لم تكن لتمثل مطامحه واستعداداته الحقيقية فى شىء . وأنه قد اندفع اليها اندفاعا واضطر لخوض غمارها اضطرارا عن غير جب ولا رغبة .

ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى أثناء هذه المرحلة ليعاود القراءة والاطلاع وتلقى العلم وتدريسه ، ويرضى بذلك أكبر رغبة كانت كامنة فى نفسه ، وهى رغبة عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية ، وأفاد منها التراث الانسانى أكبر فائدة وسجلت اسمه فى عالم الخلود .

وأول وظيفة تولاهها كانت فى أواخر سنة ٧٥١ هـ وكانت وظيفة « كتابة العلامة » للوزير محمد بن تافراكين الذى كان حينئذ وصيا على صاحب عرش تونس الصغير ومستبدا بشئون الحكم .

وفى سنة ٧٥٥ هـ هاجر الى فاس فى صحبة السلطان أبى عنان سلطان المغرب الأقصى حينئذ ، وتولى فى بلاط هذا السلطان وظيفة الكتابة والتوقيع ، وكان هذا المنصب لا يتولاه الا كبار الكتاب وهذا يدل على ان ابن خلدون كان قد وصل فى هذه السن المبكرة (كان حينئذ فى نحو الثانية والعشرين من عمره) فى ميادين الأدب والكتابة الى منزلة رفيعة وأن شهرته فى هذه النواحي أخذت تنتشر فى المغرب العربى .

وقضى ابن خلدون فى وظيفة الكتابة للسلطان أبى عنان نحو سنتين

ثم قضى مثلهما سجينا على أثر مؤامرة اشترك فيها ضد هذا السلطان ،
ثم عاد الى وظيفته وقضى فيها نحو أربع سنوات .

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على
العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا اليها من الأندلس ومن تونس ،
ويختلف الى مكتبات فاس التي كانت حينئذ من أغنى المكتبات الإسلامية ،
فارتقت بذلك معارفه ، واتسع اطلاعه ، وسنحت له فرصة لاشباع رغباته
الحقيقية ومطامحه الأصلية . وهكذا جمع ابن خلدون في هذه الفترة بين
أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم .

وعندما نزل تلمسان سنة ٧٧٦ عن له أن يتفرغ للقراءة والتأليف
فغادرها الى قلعة ابن سلامه (من بلاد الجزائر الآن) في ضيافة أولاد
عريف ، وقضى هو وأسرته في ذلك المقر المنعزل زهاء أربعة أعوام
(٧٧٦ - ٧٨٠) نعم في أثنائها بالاستقرار والهدوء . وتفرغ فيها لمشروعه
العلمي الخطير وهو « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب
والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وقدم لهذا
المؤلف ببحث عام في شئون الاجتماع الانساني وقوانينه ، وهو البحث
الذى اشتهر فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » . وقد شرع ابن خلدون
في تأليف هذا الكتاب سنة ٧٧٦ وانتهى منه في وضعه الأول في أواخر
سنة ٧٨٠ هـ .

وكان ابن خلدون حينئذ في نحو الخامسة والأربعين من عمره ،
وقد نضجت معارفه ، واتسعت دائرة اطلاعه ، وارتقى تفكيره ، وأفاد أيما
فائدة من تجاربه ومشاهداته في شئون الاجتماع الانساني على العموم ،
وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن في غمار السياسة متقلبا في خدمة القصور
والدول المغربية والأندلسية ، يدرس أمورها ، ويستقصى سيرها وأخبارها ،
ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وأحوالها وتقاليدها . وكان ذهنه
المتوقد ، وتفكيره الحصب ، وملاحظته الشديدة ، كان كل ذلك يحمل على
التعمق في تأمل هذه الظواهر ، ورد الأمور المتشابهة منها بعضها الى
بعض ، والبحث عن أسبابها ، والتمييز بين ما ينجم عنها عرضا وما يترتب
عليها عن طريق اللزوم ، وردها الى قوانينها العامة . فجاءت مقدمته هذه
فتحا كبيرا في عالم البحوث الاجتماعية .

وقد استغرق ابن خلدون في كتابة مقدمته خمسة أشهر فقط حسب
ما يذكر هو في خاتمتها . ويبدى دهشته و إعجابه بما وفق اليه في هذا
الأمم القصير . وحق له أن يبدى دهشته وإعجابه ، لأن بحوثا خطيرة
كبحوثه في المقدمة كانت خليقة أن تستغرق عدة سنين .

ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها وانه كان يعيش في الوظائف وشئون السياسة بجسمه لا بروحه ، وأن روحه كانت في شغل عن ذلك كله بالتأمل في شئون الاجتماع الانساني وتحصيل المعارف ، وأن ذهنه الباحث الأملح لا يفتأ يختزن المعلومات ، وان عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق ، ويوازن بينها ، ويستخلص النتائج ، وعندما تهيأ له شيء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة وبدأت النتائج التي انتهت اليها العمليات العقلية اللاشعورية فأشرقت من خلال ذلك بحوث المقدمة اشراقا ، وتدفقت الآراء والأفكار تدفقا في صورة دعت الى دهشته هو نفسه ، كما دعا مثلا الى دهشة كثير من العباقرة والمخترعين . وكان ابن خلدون في معظم ما يكتبه في مقامه المنعزل بقلعة ابن سلامة يكتب عن حفظه ومن ذاكرته وبالرجوع الى مذكراته والى المراجع القليلة التي أتيح له الحصول عليها في أثناء ذلك والى ما عسى أن يكون لديه من كتب في مكتبته الخاصة ان كانت له مكتبة خاصة حينئذ .

ثم رأى أن تنقيح كتابه وتكملته يقتضيانه الرجوع الى الكتب والمصادر الموسعة التي لم تكن متاحة له في قلعة ابن سلامة ، فشخص هو وأسرته الى تونس حيث تقدم له مكتباتها الغنية ما يحتاج اليه من مراجع ، فظل في تونس أربع سنين أخرى عاكفا على البحث والتدريس لطلبة العلم حتى أتم مؤلفه ونقحه وهذبه ورفع نسخة منه في أوائل سنة ٧٨٤ هـ الى سلطان تونس أبي العباس أحمد . وتعرف هذه النسخة بالنسخة التونسية .

مقامه بمصر

وفي أواخر سنة ٧٨٤ هـ بدرت من أبي العباس سلطان تونس بوادر رغبة في الاستعانة بابن خلدون في شئون السياسة . وكان ابن خلدون قد كره حينئذ الشئون التي كانت دخيلة في طبيعته ومطامحه ، مؤثرا التفرغ للدراسة والعلم واشباع استعداده الأصيل ، فاعتزم مغادرة تونس وخطرت له فكرة الحج يتوسل بها عذرا الى السلطان ، وما زال به حتى أذن له .

فترك أهله بتونس وأبحر الى الاسكندرية فوصل اليها في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ ثم قصد بعد ذلك الى القاهرة . وكانت القاهرة حينئذ موئل التفكير الاسلامي في المشرق والمغرب ، وكان لسلطينها المماليك شهرة واسعة في حماية العلوم والفنون في المدارس العديدة التي أنشأوها وفي الجامع الذي أنشئ من قبلهم في عهد الفاطميين . وكان صيت

ابن خلدون قد سبقه الى القاهرة ، وكان المجتمع المصرى يعرف حينئذ
الكثير عن شخصيته وسيرته وعن بحوثه الاجتماعية والتاريخية . فقد كان
للوراقين (أصحاب المكتبات) فى هذا العهد نشاط كبير فى نسخ المؤلفات
ونشرها فى مختلف البلاد .

ومن أجل ذلك لقي ابن خلدون من أولياء الأمور فى القاهرة ومن
علمائها وخاصة أهلها أحسن استقبال وأروعه ، وهوت اليه أفئدة كثيرة
من الناس ، والتف حوله عدد كبير من المثقفين ينهلون من علمه ويفيدون
من بحوثه . وأخذ يلقي دروسه ومحاضراته فى الجامع الأزهر . وقد رأى
المجتمع المصرى فى دروسه ومحاضراته من العمق والطرافة والابتكار ما لم
يعهد مثله من قبل . فزاد هذا من مكانته وشهرته ، وعظمت منزلته فى
نظر الظاهر برقوق سلطان مصر فى ذلك العهد ، فعينه فى منصب لتدريس
الفقه المالكي بمدرسة « القمحية » وهى مدرسة من انشاء صلاح الدين
الأيوبي وقفها على المالكية يتدارسون فيها الفقه ، وكان هذا المنصب من
أرقى المناصب القضائية والعلمية فى مصر .

ولم ينقطع ابن خلدون فى أثناء اقامته الطويلة بمصر عن مراجعة
مؤلفه التاريخى « كتاب العبر » ومراجعة « مقدمته » فأضاف الى تاريخه
عدة فصول . ونقح كتابه « التعريف » الذى سماه أولا « التعريف
بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيّل له كتاب « العبر » فأدخل عليه
كثيرا من التعديلات والتنقيحات والزيادات فى المراحل التى عرض لتاريخها
فى وضعه الأول ، وأضاف اليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، ووصل
فى رواية حوادثه الى نهاية سنة ٨٠٧ هـ أى الى ما قبل وفاته ببضعة
أشهر . وقدم نسخة من المؤلف كله « المقدمة » و « العبر » و « التعريف »
الى الملك الظاهر برقوق ونسخة أخرى الى السلطان أبى فارس عبد العزيز
ابن أبى الحسن سلطان المغرب الأقصى حينئذ وقد عرفت هذه النسخة
الأخيرة باسم « النسخة الفارسية » نسبة الى السلطان أبى فارس وكان
تقديمها له حوالى سنة ٧٩٩ هـ .

وتوفى ابن خلدون فجأة فى السادس والعشرين من رمضان سنة
٨٠٨ هـ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) عن ستة وسبعين عاما ، وكان حينئذ
فى وظيفة قاضى قضاة المالكية فى مصر .

● من هذا العرض السريع لهذه الحياة الطويلة العريضة الحافلة
بالعمل والانتاج نستطيع أن نلمح مكونات هذه الشخصية الفذة ، وأن
نجلها فى هذه العقلية الممتازة ، والذكاء اللامح ، والقراءات المستوعبة

للتراث الثقافي الذي حفلت به الفترة التي سبقت مجيء ابن خلدون ،
بالإضافة الى البيئة الطبيعية التي عاش فيها ، والى جولاته الواسعة في
ربوع البلاد العربية شريقها وغربها ، ومخالطته للساسنة والقادة مع
اشتراكه الفعلي في صنع الأحداث وتديرها وتسمنه ذروات المناصب
الخطيرة في مختلف بلدان هذا العالم .

كل ذلك وأمثاله أتاح لابن خلدون خبرة فاحصة ووعيا مستنيرا
استطاع بهما أن يتدسس الى ما وراء الظواهر من الأشياء والأحياء والأعمال
والأقطار ، وأن يستملي من واقع الحياة الصاخبة التي عاشها وخبرها ،
فيبلور هذه التجارب والأحداث والخبرات علوما ، وأصولا لعلوم
ونظريات ، وخطوطا عريضة ما زالت تلتهم عند الآفاق الفكرية ، تهدي
وتضيء ، وتمد مدنها في الكيان الثقافي الراهن .

● محتويات المقدمة

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات
التي يتألف منها « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب
والعرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . ويشتمل
هذا المجلد على ما يلي :

أولا : خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته . وقد عرض فيها
ابن خلدون لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر طوائفهم ، ووجوه النقص في
بحوثهم ، وأشار الى الأسباب التي دعت الى تأليف الكتاب كله « كتاب
العبر » .

ثانيا : « المقدمة في فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض
للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها » .

ثالثا : « الكتاب الأول في طبيعة العمران من الخليفة وما يعرض
فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم
ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب » . هذا هو القسم الرئيسي
مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون ويشتمل على ما يأتي :

١ - تمهيد تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه والأسباب التي دعت إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب من مؤلفه ، ، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث .

٢ - ٧ ستة بحوث رئيسية تنطوي تحتها :

(الباب الأول) : في العمران البشري على الجملة ويشتمل على ستة فصول أسماها ابن خلدون مقدمات .

(الباب الثاني) في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل . ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعيا .

(الباب الثالث) في الدول العامة والخلافة والمراتب السلطانية . ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعيا . ولعل هذا الفصل من المقدمة هو أهم الفصول ، وفيه وصل ابن خلدون الذروة في الإبداع والعطاء بحيث قدم نظريات اعتبرت فتحا علميا ، ذلك أنه رأى أن كل دولة تحدث بالقبيل والعصبية ، ولكل دولة خواص معينة ، ومزايا خاصة تختلف باختلاف القائمين عليها ، وللدول طبائع وخواص ، منها بالانفراد بالمجد ، والدعة والترف والسكون ، وهي أمور إذا ما استحكمت تسبب الشيخوخة للدولة وتقودها إلى الهرم ثم إلى الفناء ، ورأى أن الدول كالأفراد لها أعمار لا تتجاوزها إلا نادرا ، وقدر العمر الوسطي للدول بمائة وعشرين سنة .

(الباب الرابع) في البلدان والأمصار وسائر العمران . ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعيا .

(الباب الخامس) في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال . ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعيا .

(الباب السادس) في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال . ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعيا .

● شمول المقدمة لجميع مظاهر

الاجتماع الانساني

هذا ويبدو مما كتبه ابن خلدون في مقدمته انه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها لجميع أنواع البحوث الاجتماعية وانه لم يغادر أية طائفة من طوائفها الا عرض لها بالدراسة .

فقد عرض في معظم البابين الأول والرابع من المقدمة للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الانساني أى للنظم التى يسير عليها التكتل الانساني نفسه ، مبنيا في الباب الأول أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر وفي غيرها من شئون الاجتماع . وهذه هى الشعبة التى سماها العلامة دوركايم (٣) « المورفولوجيا الاجتماعية La morphologie sociale » أو « علم البيئة الاجتماعية » ، وظن هو وأعضاء مدرسته انهم أول من عنى بدراسة مسائلها ، وأول من قطن الى خواصها الاجتماعية ، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع ، ولم يدروا انه قد سبقهم الى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون ، وانه قد وقف على هذه الشعبة زهاء بايين كاملين من مقدمته !

وعرض ابن خلدون فى الفصول العشرة الأولى من الباب الثانى للظواهر المتصلة بالبدو والحضر وأصول المدينيات .

وعرض فى الفصول التسعة عشر الأخيرة من الباب الثانى وفى جميع فصول الباب الثالث لنظم الحكم وشئون السياسة .

وعرض للظواهر الاقتصادية فى جميع فصول الباب الخامس وفى سبعة فصول من الباب الثالث (وهى الفصول التى أعطاها العناوين الآتية : فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة ، فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة للرعايا ، فصل فى أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون فى وسط الدولة ، فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية ، فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران ، فصل فى وفور العمران آخر الدولة . وتتصل هذه الفصول كذلك بشئون السياسة والحكم التى يتألف منها الموضوع الأساسى للباب الثالث) . وفى ستة فصول من الباب الرابع (وهى الفصول التى

(١٢) دوركايم : عالم اجتماع فرنسى (١٨٥٨ - ١٩١٧) .

أعطاهها هذه العناوين : فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرقة لأهلها ونفاق الأسواق ، فصل في أسعار المدن ، فصل في اختلاف أحوال الأقطار بالرقة والنقر ، فصل في تأثر العقار والضياع ، فصل في حاجات الممولين من أهل الامصار الى الجاه والمرافعة ، فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع . ولهذه الفصول كذلك صلة بشئون المودفولوجيا الاجتماعية التي يتألف منها الموضوع الأصلي للباب الرابع) .

وعرض في الباب السادس للظواهر التربوية والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . وفي أثناء دراسته لظواهر هذا الباب تناول كثيرا من الظواهر الأخرى كالظواهر القضائية والحلقية والجمالية واللغوية والدينية .

طريقته في عرض الحقائق

يعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيج له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها ، وتعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره ، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتج له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها ، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعا ، والتأمل في مختلف مناحيها، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعا ، وفي ضوء هذه الأمور جميعا ، الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شئونها من قوانين .

هذا هو جوهر منهجه في البحث ، وهو المنهج الذي لا يزال الى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع .

● وأما طريقة عرضه في المقدمة لما انتهت اليه بحوثه فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التي يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة في عرض نظرياتهم . فهو يعنون كل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة من القوانين أو الأفكار التي انتهى اليها ، كما يفعل علماء الهندسة المحدثون اذ يجعلون نص النظرية نفسها عنوانا للفصل . ثم يأخذ في بيان الحقائق التي

استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة ، أى يأخذ فى البرهنة عليها ، كما يفعل علماء الهندسة كذلك فى البرهنة على نظرياتهم • ولا يقتصر فى هذه البرهنة على ما شاهده أو اطلع عليه فى بطون التاريخ من شواهد اجتماعية تدل على صحة القانون الذى هو بصدده ، بل يلجأ كذلك أحيانا الى البرهنة المنطقية الخالصة ان كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلى ، والى الاستدلال بحقائق العلوم الطبيعية وعلم النفس ان كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق هذه الحقائق •

واليك مثالا _ من ذلك الفصل الذى جعل عنوانه : « فصل فى ان الأمة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع اليها الفناء » •

فقد وضع فى رأس الفصل فكرة أو قانونا من الأفكار أو القوانين الاجتماعية التى انتهى اليها بحثه • وملخص هذه الفكرة أو هذا القانون ان خضوع أمة لأخرى لا يؤثر فى معنوياتها وحريتها واستقلالها فحسب بل يؤدي كذلك الى فنائها فناء ماديا ، فيتناقص عدد أفرادها ويتناقص نسلها بالتدريج حتى تنقرض أو تشرف على الانقراض • ثم أخذ فى البرهنة على هذه الفكرة أو هذا القانون •

وبدأ بالبراهين المستمدة من حقائق علم النفس وعلم الحياة « البيولوجيا » وعلم الحيوان ومن مقولات العقل والأقيسة المنطقية فقال :

« والسبب فى ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذ ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضعف التناسل • والاعتماد انما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط فى القوى الحيوانية • فاذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعدتهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فيصبحون مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ، وسواء أكانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا » •

« وفيه ، والله أعلم ، سر آخر ، وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له • والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده • وهذا موجود فى أخلاق الناس • ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة ، وانها لا تساق اذا كانت فى ملكة الآدميين • فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء • والبقاء لله وحده » •

ثم ختم البحث بأدلة مستمدة مما شاهده واطلع عليه في بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية فقال :

« واعتبر ذلك في أمة الفرس . كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير . يقال ان سعدا (يقصد سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في حربهم ضد فارس) أحصى من وراء المدائن (عاصمة المدائن حينئذ) فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا رب بيت . ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ، ودثروا كأن لم يكونوا . ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ، فملكة الاسلام في العدل ما علمت ، وانما هي طبيعة للانسان اذا غلب على أمره ، وصار آله لغيره . »



وقد يرى ابن خلدون أن بحثا ما يحتاج الى دراسات تمهيدية ، فيقف بعض فصول أو فقرات على هذه الدراسات قبل أن يتناول البحث أو في أثناء علاجه له . كما فعل في الباب الأول اذ تكلم بتفصيل على الحقائق الجغرافية تمهيدا لكلامه على أثر البيئة الجغرافية في الحياة الفردية والاجتماعية ، وكما فعل في الباب السادس اذ تحدث عن مختلف العلوم وموضوعاتها وأغراضها وما ألف فيها تمهيدا للكلام على نظم التربية وشئون التعلم والتعليم .

● أثر المقدمة في التراث الانساني

سنمهد لهذا القسم بفقرتين : احدهما في موضوع علم الاجتماع وأغراضه والآخرى في أنواع البحوث الاجتماعية التي ظهرت قبل ابن خلدون وما بينها وبين علم الاجتماع من خلاف ثم نقف بقية فقرات هذا القسم على ريادة ابن خلدون لهذا العلم .

موضوع علم الاجتماع وأغراضه

من المعروف أن « علم الاجتماع » La Sociologie يدرس ما نسميه بالظواهر الاجتماعية ، والظواهر الاجتماعية في تعريفها المجمل عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التي تتخذ في مجتمع ما أساسا

لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربط أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم .

والظواهر الاجتماعية أنواع مختلفة : فمنها ما يتعلق بشئون بشئون السياسة ونظم الحكم ، ومنها ما يتعلق بشئون الاقتصاد ونظم الاقتصاد ونظم انتاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها ، ومنها ما يتعلق بشئون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقرباة والميراث وما الى ذلك ، ومنها ما يتعلق بشئون القضاء ونظم المسؤولية والجزاء ، ومنها ما يتعلق بشئون الدين وعقائده وشرائعه ، ومنها ما يتعلق بشئون الأخلاق وقواعده التمييز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، ومنها ما يتعلق بشئون التربية ونظم الاعداد للحياة ، ومنها ما يتعلق بشئون اللغة والتفاهم ونقل أفكار الناس بعضهم الى بعض ، ومنها ما يتعلق بشئون الفن والجمال ، ومنها ما يتعلق بشئون التكتل الاجتماعي نفسه أى تجمع الأفراد بعضهم الى بعض فى قرية أو مدينة .

هذا هو موضوع علم الاجتماع . وأما أغراضه فمن الممكن رجعها الى غرض واحد وهو الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر . وذلك ان الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد . وانما تسير حسب قوانين لا تقل فى ثباتها واطرادها عن القوانين التي لا تخضع لها ظواهر الفلك والطبيعة . والغرض النهائي الذى يرمى اليه علم الاجتماع من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية هو الوصول الى معرفة هذه القوانين .

● البحوث الاجتماعية التي ظهرت قبل ابن خلدون

ترجع البحوث الاجتماعية التي ظهرت قبل مقدمة ابن خلدون الى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) بحوث تاريخية خالصة يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه وما هى عليه ، بدون أن يحاولوا استخلاص شيء من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها . وقد سار على هذه الطريقة جميع الباحثين من قبل ابن خلدون . فنراهم فى ثنايا علاجهم لمسائل التاريخ العام يعرجون من حين لآخر وبحسب المناسبات على نظم السياسة والقضاء والاقتصاد والتربية وما الى ذلك من ظواهر اجتماعية ، فيصفون ما كانت عليه هذه النظم فى الشعوب التي يدرسون تاريخها . كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل وكما

فعل الفقهاء والمؤرخون في دراستهم لتاريخ التشريع وتاريخ القضاء وتاريخ التربية وما الى ذلك .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست من علم الاجتماع في شيء ، لأن علم الاجتماع لا يقف عند وصف الظواهر الاجتماعية ، وليس غرضه مجرد هذا الوصف ، وانما يرمى الى تحليلها للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين . وهو اذا عرض للوصف فانما يعرض له ليكون مجرد تمهيد لغرضه الأصيل ، وهو ربط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واستخلاص القوانين العامة التي تحكم هذه الظواهر .

(الطائفة الثانية) دراسات وعظية ارشادية تدعو الى المبادئ التي تقررها نظم المجتمع ومعتقداته وتقاليده . وذلك ببيان محاسنها ، وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها في نفوسهم ، وحثهم على التمسك بها وتحذيرهم من تعدى حدودها ، وبيان ما ينبغي أن يتخذوه في تطبيقها . وهذه هي الطريقة التي سلكها بعض علماء الدين والخطابة والأخلاق وبعض الباحثين في شئون السياسة والملك كابن مسكويه في كتابه « تهذيب الأخلاق » والغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » والماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » والطرطوشي في « سراج الملوك » .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع في شيء ، لان علم الاجتماع ، كما رأينا ، لا شأن له بالمواعظ والارشاد ، وانما يدرس مسائل الاجتماع كما يدرس عالم الطبيعة مسائل الطبيعة أي لمجرد الوقوف على حقيقتها وما يحكمها من قوانين .

و (الطائفة الثالثة) دراسات يوجه أصحابها كل عنايتهم الى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية بحسب المبادئ التي يرتضيها كل منهم . فهي دراسات اصلاحية ، ترمى الى تغيير النظم واصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذي يتفق مع نظريات أصحابها في العدالة والسعادة والفضيلة وما الى ذلك . وذلك كما فعل أفلاطون في كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » وأرسطو في كتابيه « الأخلاق » و « السياسة » والفارابي في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » . فقد عمل كل واحد من هؤلاء في بحثه على بيان ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع من مختلف ظواهره الاجتماعية أو في بعضها حتى يكون مجتمعاً فاضلاً في نظره بحسب ما يذهب اليه من آراء فلسفية عن الأخلاق ومقومات الحكم ومختلف شئون الاجتماع .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع في

شيء لان علم الاجتماع ، كما رأينا لا شأن له بما ينبغي أن يكون .
وانما يدرس ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه .



● ومن هذا يظهر انه لا يوجد من بين أنواع الدراسات الاجتماعية السابقة لمقدمة ابن خلدون نوع يتفق في أغراضه ومناهجه مع ما نسميه الآن علم الاجتماع . ومعنى هذا انه قبل ظهور مقدمة ابن خلدون لم يكن علم الاجتماع قد أنشئ بعد ، وانه لم يفكر أحد من قبل ابن خلدون في انشائه ولا في وضع أساس له .

ويرجع السبب في هذا الى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التي يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح الا لمن ثبت لديه ان هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وانما تسير في نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مظرودة كالقوانين الخاضع لها القمر في تزايد وتناقصه والنهار والليل في اختلافهما باختلاف الفصول . وهذه الحقيقة لم يصل اليها تفكير أحد من قبل ، بل ان نقيضها كان هو المسيطر على أفكارهم جميعاً . فقد كان المعتقد ان ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين ، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمرعين ودعاة الإصلاح . ولذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذي تدرس به فيما نسميه الآن « علم الاجتماع » .



الى هذا الحد وقف تفكير السابقين لابن خلدون في فهم الظواهر الاجتماعية . أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشتون الاجتماع الانساني الى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وانها محكومة في مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات .

ومن ثم رأى انه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة «وضعية» Positive كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى ، أي للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين . وعلى هذا البحث وقف دراسته في « المقدمة » .

فمن بحوث ابن خلدون في المقدمة يتألف اذن علم جديد لم يعرض له أحد من قبل . وقد سماه ابن خلدون « علم العمران البشري » أو

« الاجتماع الانساني » ، وهو العلم نفسه الذي نسميه الآن
« علم الاجتماع » لان قوام هذا العلم ، كما رأينا ، هو دراسة الظواهر
الاجتماعية للكشف عن القوانين التي تخضع لها .

وفي هذا يقول ابن خلدون نفسه :

« وكان هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع وهو العمران
البشرى والاجتماع الانساني ، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض
الذاتية ، وهذا شأن كل علم من العلوم » .

ويقصد ابن خلدون من كلمة « العوارض الذاتية » أو « ما يلحق
المجتمع من العوارض لذاته » ، وهي العبارة التي استخدمها هنا وفي مواطن
أخرى كثيرة من مقدمته ما نقصده نحن من كلمة القوانين . ويتضح قصده
هذا من منهجه في دراسته ومما كتبه هو نفسه في الباب السادس من
مقدمته في أثناء حديثه عن علم الهندسة اذ يقول :

« هذا العلم هو النظر في المقادير ، اما المتصلة كالخطوط والسطح
والجسم ، واما المنفصلة كالأعداد ، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية :
مثل ان كل مثلث فزاياه مثل قائمتين ، ومثل ان كل خطين متوازيين
لا يلتقيان في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ، ومثل ان كل خطين متقاطعين
فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان » . فهذا يدل على أنه يقصد من
كلمة « العوارض الذاتية » ما نقصده نحن من كلمة « القوانين » .

ويقرر ابن خلدون نفسه أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه
لم يسبقه اليها أحد فيما يعلم . وفي هذا يقول :

« وأعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة،
غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص » . وبعد أن بين
الفرق بينه وبين البحوث السابقة له على النحو الذي أوضحناه فيما سبق،
قال : « وكأنه علم مستنبط النشأة » . ولعمري لم أقف على الكلام في منجاة
لأحد من الخليقة . وما أدري الغفلهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم » . ثم
يعقب على ذلك بعبارة يبدو فيها تحفظ العلماء وتواضعهم فيقول : « ولعلمهم
كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل اليها » . فالعلوم كثيرة ،
والحكماء في أمم النوع الانساني كثيرون . وما لم يصل اليها أكثر
مما وصل » .

والحقيقة أننا لم نعثر الى الآن على بحث سابق لبحوث ابن خلدون
في المقدمة قد تناول ظواهر الاجتماع في مجموعها ، وعلى أنها موضوع
شعبة مستقلة ، ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية ظواهرها ،
أى للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين .

● مظاهر أخرى للنبوغ

لا تقتصر فائدة « المقدمة » على ابتكارها في دراسة شئون الاجتماع ،
بل تقدم لنا كذلك بحوثا قيمة في تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها
وفروعها ومذاهب أئمتها وأهم ما ألف في كل فرع منها . وبذلك تدلنا
على رسوخ قدم ابن خلدون في معظم العلوم والفنون المعروفة في عصره ،
وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه غير النواحي التي
التي تقدمت الإشارة إليها .

فقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث في مواطن كثيرة في مقدمته
وخاصة في الفصول الثاني والثالث والسادس من الباب الأول وفي الفصول
العشرة الأخيرة من الباب الخامس وفي معظم فصول الباب السادس .
فدرس فنون الفلاحة والبناء والتجارة والخياطة والحياكة والتوليد والطب
والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء ، ودرس علوم القراءات
ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل
والخلافات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية
بمختلف فروعها والمنطق والفلسفة والالهيات وبحوث التربية والتعليم وعلم
النفس التربوي والتعليمي . بل تحدث كذلك عن فنون غريبة تدخل في
باب الشعوذة والأسرار الخفية والروحانيات كفنون السحر والطلسمات
والكهانة وإدراك الغيب بالرياضة والإدراك الروحاني والتنجيم ، واستخراج
الغيب عن طريق حساب الجمل ، والطب الروحاني ، والانفعال الروحاني ،
والانقياد الرباني ، والاصابة بالعين ، وعلم أسرار الحروف أو السيمياء
والاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية ، واستخراج
الأجوبة من الأسئلة ، والاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين
الحرفية ، والزيرجة وهلم جرا .

ومن العجيب أنه لا يمر مرورا سريعا على هذه الطوائف الغريبة من
العلوم والفنون ، بل يفصل القول فيها تفصيلا ، ويذكر مناهجها وطرق
استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها ، وأشهر أئمتها .

● شهادة علماء التاريخ والاجتماع

وخلاصة القول ان الحديث عن مقدمة ابن خلدون مهما كان عميقا . لا يمكن أن يبين جوانب الابداع فيها ، فهي تعتبر أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه كما يقول ماكدونالد . وهي مقدمة تاريخية فلسفية لم ينسج أحد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم ، وهناك من علماء الافرنج من خرج بتصريح خطير بعد دراسة المقدمة ، فاعترف بأثر هذه المقدمة في التاريخ وفلسفته ، قال روبرت فيلنت : « من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتجلى الأدب العربي باسم من ألع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع أن يقدم اسما يضاهي في لمعانه ذلك الاسم . . انه - كواضع نظريات في التاريخ - منقطع النظر في كل زمان ومكان ، حتى ظهور « فيكون » بعده بأكثر من ثلثمائة عام . . ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له ، وأما الباقيون فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه . . ان أول كاتب بحث في التاريخ كموضوع علم خاص هو ابن خلدون » .

وقال توينبي أشهر مؤرخي الانجليز المعاصرين : « ان ابن خلدون - في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام - قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ ، وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أي عقل بشري في أي زمان ومكان » .

وسارتون في كتابه « مدخل لتاريخ العلم » يقول : « انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره الى اصطلاح ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي » .

أما شهادة علماء الاجتماع فيقولها « غو ميلوفيتش » أحد زعماء علم الاجتماع الألمان : « ان ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة . . انه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادئ رزين ، وأبدى آراء عميقة جدا ، ليس قبل « كونت » فحسب ، بل قبل « فيكو » أيضا . والحقيقة ان ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » .

كما يقول « استفانو كولوزيو » الإيطالي :

« ان مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود الفخر في تقديره الى ابن خلدون . قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة . ان المؤرخ العربي

العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل
كونسيديران وماركس وباكونين بخمسة قرون .

إذا كانت نظريات ابن خلدون في حياة المجتمع تضعه في طليعة
فلاسفة التاريخ فإن ما يعزوه من شأن كبير الى دور العمل والأجر والملكية
تجعله اماما لاقتصاديين هذا العصر .

وقد قارن كولوزيو بين ابن خلدون وميكافيلي فقال في هذا الصدد :

« إذا كان ميكافيلي يعلمنا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسي
بعيد النظر . ولكن العلامة العربي ابن خلدون استطاع أن ينفذ الى الظواهر
الاجتماعية كالاقتصادي وفيلسوف راسخ ، مما يجعلنا بحق على أن نرى
في أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » .

ويقول « فارد » من كبار علماء الاجتماع الأمريكيان : « كانوا يظنون
أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو أوفيكو ،
في حين أن ابن خلدون قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة
قبل هؤلاء ، في القرن الرابع عشر ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة
الدرسانية والكلمانية استسلاما تاما » .

وقال « ناتانيل شميث » الأمريكي : « انه فيلسوف مثل أوجست
كونت وتوماس يكل وهربرت سبنسر ، وقد تقدم في علم الاجتماع الى
حدود لم يصل اليها كونت نفسه في النصف الأول من القرن التاسع
عشر .

والمفكرون الذين وضعوا أسس علم الاجتماع لو كانوا قد اطلعوا على
مقدمة ابن خلدون في حينها ، واستعانوا بالحقائق التي اكتشفها والطرائق
التي أوجدها ذلك العبقرى قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا
العلم الجديد أكثر مما تقدموا به فعلا » .



وإذا كانت هذه هي نظرة علماء الغرب المحدثين لابن خلدون ، فليس
في وسعنا إلا أن نعتز بهذه العبقرية العربية .



(٦) الأمير

ميكافيلي



مكتبة كتاب الأمير

الأمير

تأليف

ميكافيلي عام ١٥١٣ م

الكتاب الذي لعنه الساسة ثم تتلمذ عليه منهم الكثير

في شتى العصور

ميكافيلي في طليعة المفكرين السياسيين ، وقد شغلت أفكاره السياسية العالم منذ ظهورها في أوائل القرن السادس عشر الميلادي وحتى اليوم ، وقد اختلفت الآراء في تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها ، فخصومه يرون انه قد أساء الانتفاع بعبقريته وان كتابه المشهور المسمى « بالأمير » من الكتب المخالفة للآداب المناسبة للدين التي يجب تحريمها واحراقها واراحة الناس من شر ما احتوت عليه ، ويذهبون الى أن الباعث الذي حداه على كتابته رغبته الملتوية في تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة على الشعب وانتهاب ثروة الأغنياء ، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة ، أما أصدقاؤه والمعجبون به فيرون فيه الوطني الذي حفلت نفسه بحب بلاده

والذى تطلع الى الوحدة الايطالية قبل أن يولد متزىنى وغاريبالدى وكافور
بقرون عدة .

ويعزى سبب هذا التناقض الواضح فى تقدير آراء ميكافيللى الى أن
حياته وتجاربته التى تأدت به الى تكوين أفكاره واستنباط نظرياته لم تعرف
المعرفة الكافية ، وقد حال ذلك دون الفهم الصادق لآراءه ومراميه ، والرجل
الذى اقترن اسمه بالخيانة والغدر والخداع ونكث العهود كان فى واقع
حياته موظفا فى حكومة مدينة فلورنسا المدينة الايطالية الشهيرة شديد
التوفر على أداء واجبات وظيفته ، ولم تشب سلوكه فى الاضطلاع بعمله
شائبة ، وكان وطنيا محبا لبلاده ، وفيا لها ، حريصا على مصلحتها ، وقد
ضحى فى بعض مواقفه بمصلحته الخاصة فى سبيل آرائه ومعتقداته .
فالتناقض بين حياته وما اتسمت به أفكاره واضح لا خفاء به ، ولكن معرفة
طبيعة العصر الذى عاش فيه والتجارب التى مر بها تكشف لنا أسباب
تكوين أفكاره ، واستخلاص نظرياته .



والتقدير الصحيح لآراء ميكافيللى يقتضينا النظر الى آرائه ونظرياته
فى ضوء أحوال عصره وملابساته وتجارب حياته . وللتاريخ فى كل عصر
سيطرة على حياة الناس غير منكورة وهو الذى يقدم لنا مفتاح شخصيته
وآرائه .

كان تاريخ ايطاليا ، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ،
تاريخا شائنا محزنا ، غاصا بالكوارث والنكبات والجرائم والمنكرات . .
فمدينة فلورنسا التى كانت تتمتع بحكومة ديمقراطية صالحة ، تغلبت
عليها حكومة أخرى طاغية مستبدة لم تكف عن سوء التصرف واقتراف
الكبائر ، وأيدها الفاتيكان فى هذا الانحراف عن الجادة والايغال فى الشر
والعدوان . وتوالى على كرسى البابوية البابا اسكندر السادس ، والبابا
يوليوس الثانى ، والبابا ليون العاشر ، وتكاثرت جرائم أسرة البارجيا
وأسرة المدتشى ، وداست أرض ايطاليا أقدام الجيوش الفرنسية والاسبانية
والألمانية ، ودارت أرحاء معارك دامية حامية .

وكان هنالك من ناحية ازدهار فنى عظيم ، وتقدم فى العلم ، ونهضة
شماء فى الأدب ، ومن ناحية أخرى انحطاط قومى شامل ، وحروب داخلية
مستمرة ، وخضوع مزر للأجانب ، وفساد فى الأخلاق . . ولم يكن للولايات

والامارات الايطالية جيش من أبنائها تعتمد عليه في حماية حوزتها ، وانما كانت تستعين بالجنود المرتزقة ، وكانت هذه الجنود المأجورة تدافع مرة عن البندقية ومرة عن ميلانو ، وفي بغض الأحيان عن فلورنسا ، وفي كثير من الأحيان عن دفع غارة الغزو الخارجى .

وكان البندقيون يملكون نصف مقاطعة لومبارديا . ولما أراد دوق ميلانو أن يعرقل تقدم هذه الجمهورية النامية ، استعان على ذلك بالفرنسيين ، وأخذ البابوات يعملون على توسيع نطاق ممتلكات الكنيسة ، وبسط نفوذهم بوسائل معيبة ظالمة . وكانت ولاية نابولي مسرحا للصراع بين فرنسا واسبانيا ، وقد تغلب بها ألفونسو . صاحب أرجون ، وفردينان الكاثوليكي على شارل الثامن ولويس الثانى عشر ملكى فرنسا . وكان حظ الفرنسيين فى مقاطعة لومبارديا أقل سوءا من حظهم فى ولاية نابولي . وقد تملقتهم روما حينما من الزمن ثم تنكرت لهم . . ومهما يكن من الأمر فان دعائم الحكم الفرنسى لم تستقر طويلا فى فرنسا .

وقد حاول البابا اسكندر السادس أن يستعمل نفوذه الروحى ، وسلطته الزمنية ، فى انشاء مملكة لابنه شيزارى بورجيا ، واتخذ السم والخنجر وسائل لجمع الأموال اللازمة لتسعين الحرب .

وحالف البابا يوليوس الثانى الفرنسيين والألمان والأسبانيين للاستعانة بهم فى محاربة البندقية ، طمعا فى الاستيلاء على بعض المدن التى كانت تابعة لها . وبعد أن ظفر ببغيته أصر على تحرير ايطاليا من الأجانب ، وقد بذل جهدا فى مساعدة شارل الثامن ملك فرنسا . . ولكن بعد أن تغيرت الظروف شرع فى مهاجمة الفرنسيين ، وأراد أن يستفيد فى مقاومتهم من قوة اسبانيا ، فصالح البندقيين ، وأخرج فرديناند الاسباني من حلف كامبرى ، وأثار حربا جديدة فى ايطاليا لم يوفق فيها فى بادئ الأمر .

ودعا لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى عقد مؤتمر فى بيزا لخلع البابا ، ولكن أمراء أوروبا لم يقرروه على ذلك . وتحالف مكسيميليا امبراطور ألمانيا ، وفرديناند الكاثوليكي وهنرى الثامن ملك انجلترا ، والسويسريون ، لمقاومة ملك فرنسا . . وطرد الفرنسيون فى النهاية من ايطاليا .

ومات البابا يوليوس الثانى عام ١٥١٣ وقد ورط ايطاليا فى حروب كثيرة أريققت فيها دماء الايطاليين فى غير طائل وطرد الفرنسيين من ايطاليا مكن للأسبانيين ، ولم يستطع البابا يوليوس الثانى ايقاظ الشعور القومى

فى الايطاليين وقد خلفه على العرش البابوى ليو العاشر - واسمه جيوفانى دى مديتشى - وهو الابن الثانى للورنزو العظيم ، وكان قد طرد من فلورنسا حينما سقطت حكومة أخيه بييرو ، وأقام الفلورنسيون حكومة جمهورية ، مسترشدين بآراء المصلح الدينى سافونارولا .



فى هذا العصر المضطرب ، الحافل بالانقلابات والمفاجآت ، ولد نيقولا ميكافيللى وقضى حياته (١٤٦٩ م - ١٥٢٧ م) . وقد نشأ فى أسرة شريفة تنتمى لحلف الجلف ، وهو الحزب الذى كان يناصر البابا ، ويعارض حزب الجيبيلين الذى كان يناصر امبراطور ألمانيا . وقد ولى القضاء فى فلورنسا ، فى أجيال متعاقبة ، كثيرون من رجال أسرته ، وعمل حيناً من الزمن أميناً على الأموال ، ولم يكن ثرياً ولكنه كذلك لم يكن فقيراً ، وكان ولوعاً بالدرس والمطالعة .

والمعلومات عن نشأة نيقولا ميكافيللى وطفولته ومطالع شبابه مطوية فى مدارج النسيان ، ولم يبدأ فى دخول التاريخ الا وهو فى السادسة بعد العشرين من عمره . وقد نشأ ميكافيللى فى ابان حكم لورنزو مديتشى ، وكانت معاهد التعليم حينذاك كثيرة فى فلورنسا ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه عرف المؤلفين اليونانيين واللاتينيين فى شبابه ، وقد وسع دائرة اطلاعه بعد ذلك بدراساته الخاصة ، وإدامة التفكير والتأمل فى الحوادث التى تقع تحت بصره وسمعه ، وبممارسته لشئون الحياة ومعرفته بالناس .

على أن ثقافته بوجه عام كانت محدودة الى حد ما . وقد نفعه ذلك من بعض الوجوه ، اذ مكنه من الاحتفاظ بأصالة تفكيره ونضارة أسلوبه ، ولم يجعله يسقط تحت أعباء المعلومات المتكاثرة ، وأثقال المعرفة الواسعة . . كما كان يحدث لكثيرين من معاصريه الذين أفقدهم الاستغراق فى الدرس والعكوف على الكتب القديمة .

وكانت الحوادث الجسيمة التى وقعت فى عصره ، ومؤامرات الأمراء ، وفضائح البابوية تجعله لا يخلو بالكتب وحدها ، وتحفزه الى النظر فى الحوادث التى تتوالى حوله سراعاً . . ومما كان له اثر بالغ فى نفسه مجيء الفرنسيين الى ايطاليا عام ١٤٩٤ . وقد تلا ذلك سقوط اسرة المديتشى ، وإعلان الجمهورية فى فلورنسا . وكان ميكافيللى بحكم اطلاعه على الأدب اللاتينى وتعاقبه بذكرىات عظيمة روما القديمة ، يمقت كل شئ له اتصال

بالكهنوت . . . ولذلك لم يعجبه أن يسيطر على جمهورية فلورنسا راهب مثل سافونارولا ، وكان هو مع خصوم الراهب المصلح العنيد ، وقد أبدى فى بعض كتاباته بعد ذلك شيئا من الاعجاب بالراهب الشهيد .

ولما غلب الراهن على أمره ، وتمكن أعداؤه من القضاء عليه ، لم يأسف ميكافيل على الاتجاه الذى سارت فيه الحوادث . واستتبع ذلك بضرورة الحال تغييرا فى المناصب العامة ووظائف الحكومة . وكان ميكافيل حينذاك قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد التحق بمهنة بعد ، ولم يكن له دخل خاص ، فأخذ يعمل للحصول على وظيفة تدر عليه شيئا من المال ، ولم يجد صعوبة فى الظفر بالوظيفة المطلوبة . . . فقد كانت جمهورية فلورنسا قد تعودت أن تستخدم الكتاب ، وتدفع الأجور المناسبة ، وكانت تتخذ أكثرهم سكرتيرين ، وقد اختير ميكافيل فى عام ١٤٨٩ لشغل وظيفة سكرتير للجمهورية ، وظل يعمل فى وظيفته حتى عام ١٥١٢ حينما سقطت الجمهورية .

وقد أخلص فى خدمة الجمهورية ، وكانت أعمال وظيفته تستغرق أكثر وقته من الصباح حتى المساء . وبعض الرسائل الرسمية التى كان يحررها لا تزال محفوظة فى أرشيف فلورنسا .

وكان منشراح الصدر للحياة ، حسن العلاقة بزملائه فى الإدارة التى كان يعمل بها ، وقد أرسلته حكومته مرتين الى بلاط امبراطور ألمانيا ، وأربع مرات الى البلاط الفرنسى ، وأوفد مرتين الى روما ، وعهد اليه بمهمات فى الجمهوريات والولايات الايطالية المختلفة ، وقد مكنته هذه الأسفار والاتصالات بالرجال الذين يتولون المناصب العليا ، ويقبضون على أزمة الأمور ، من أن يدرس المشكلات السياسية دراسة عملية ، ويتعرف على أسباب تخلف بلاده من الناحية السياسية .

وفى عام ١٥١٢ تمكنت أسرة المدينتى من العودة الى حكم فلورنسا ، وكان هذا الانقلاب سببا فى اقالة ميكافيل من خدمة الحكومة الفلورنسية . ولما كان يعد من أنصار الحكومة الجمهورية السالفة ، لذلك صدر قرار بنفيه فى حدود الجمهورية ، وانذاره بالعقوبة الشديدة اذا حاول الخروج عن تلك الحدود .

وفى تلك الفترة - وقد أبعد عن المدينة التى نشأ بها ، ولم يأل جهدا فى خدمتها ، وحرّم من مرتبه الذى كان يستعين به على تكاليف الحياة ومطالب العيش - أقبل على القراءة والتأليف ، فكتب روايته التمثيلية « مندرجورا » التى أعجبت بها ليون ، وكان هذا الاعجاب من دواعى صفحه

عنه . وعلى الرغم من نجاح هذه الرواية فإنه رأى أن يشغل وقته ويقصره على أشياء أجل منها شأنًا وأقرب إلى طبيعة تفكيره . . وفى هذه العزلة التى أرغم عليها بدأ يكتب كتاب « الأمير » .

❁ فكرة الوحدة الإيطالية

وكانت الفكرة الكامنة وراء هذه المؤلفات جميعها ، هى العمل على توحيد الولايات الإيطالية المختلفة تحت زعامة أمير واحد يكون له جيش وطنى قوى يستطيع به أن يظهر شبه الجزيرة الإيطالية من الظميسان الأجنبى . وفكرة الوحدة الإيطالية هى الفكرة التى كانت غالبة عاينه مألثة نفسه ، وقد تعلق قبله دانتي بهذه الفكرة ، ورأى ان الوسيلة الوحيدة لضم الولايات الإيطالية فى وحدة شاملة ، هى إعادة بناء الدولة الرومانية واستدعاء هنرى الألماني للجلوس على عرشها .

ولكن ميكافيلى كان ينفر من فكرة اقامة أمير أجنبى على العرش الإيطالى ، وكان يرى أن يقوم بهذه المهمة الضخمة أمير إيطالى له من الشجاعة والاقدام وسعة الحيلة والدهاء ، ما يمكنه من تذليل الصعاب ، والتغلب على العقبات المعترضة . وكان مثله الأعلى فى بادىء الأمر « شيزارى بورجيا » ابن البابا اسكندر السادس . ومع ما عرف عن هذا الرجل من قسوة بالغة ، وما ارتكب من جرائم منكرة ، فان ميكافيلى كان يرى انه وحده الأمير الذى جمع بين الجرأة الحربية والبراعة السياسية .

وعند ميكافيلى ان العمل على تحرير بلاده وتحقيق استقلالها يبرر أشياء كثيرة . ومن أقواله فى ذلك : « حينما تكون سلامة البلاد متوقفة على القرار الذى يتخذ ، فإنه يجب ألا يكون هناك مكان لاعتبارات التفريق بين العدالة وغير العدالة ، والانسانية والقسوة ، والمجد والعار . ومتى أبعدنا جميع الاعتبارات الأخرى تصبح المسألة المفردة الباقية هى : ما هو الطريق الذى يمكن أن ننقذ بسلوكه حياة البلاد وحريتها ؟ » .

كان تحقيق الوحدة الإيطالية فى رأى ميكافيلى من المطالب العظيمة التى تستبىح من أجلها كل وسيلة ، وكانت العقبات القائمة فى سبيل تلك الوحدة كثيرة . . فهناك أمارات تتوارث حكمها أسر أرستقراطية ،

وولايات تحكم حكما ديمقراطيا ، وولايات بعضها يتبع النظام الاقطاعي ،
وبعضها يسيطر عليه الأجانب .

وكانت الأسر الأرستقراطية تحسن الحكم فى بعض الولايات ،
وتسبب الحكم فى ولايات أخرى . . . ففى ميلانو ازدهر الفن فى عهد أسرة
سفورزا ، وفى روماني ساءت حالة المدن التى حكمها الأمراء . ونرى من
ذلك أن تحقيق الوحدة الإيطالية كانت أمنية مخوفة الصعاب ، ومن أجل
بلوغ تلك الأمنية كتب ميكافيلى كتاب « الأمير » وأهداه الى لورنزو مديتشى
حاكم فلورنسا . وكان يبدو لميكافيلى ان لورنزو هو أجدر الأمراء الإيطاليين
بتحقيق الوحدة الإيطالية بعد شيزارى بورجيا .

● ولابد لنا عند النظر فى هذا الكتاب ، الذى لا يزال يثير
بمحتوياته النقاش بين المفكرين والمفسرين من الرجوع الى طبيعة العصر
الذى ألفه فيه ميكافيلى .

كانت ملوك أوروبا وأمراؤها فى القرن الخامس عشر يتبعون سياسة
قاسية ، قد لفظت الرحمة ، ونبذت مبادئ الشرف . . . فهى لا تعتمد على
غير العنف والعدوان ، وطلب النجاح بأى ثمن . وكان مبدأ « الغاية تبرر
الوسيلة » هو المبدأ السائد ، والقاعدة المتبعة . وقد سار على هذا المبدأ
لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وتشبه به حلفاؤه فاتبعوا أساليبه دون
أن يكون لهم نصيب من مواهبه .

وفى اسبانيا اتخذ الدين ستارا لاختفاء الظلم والطغيان والتعصب
الذميم . وفى ألمانيا كانت سياسة شارل الخامس قائمة على الخداع والغش
والقسوة ، ولم يجد البابا اسكندر السادس ، ولا البابا يوليوس الثانى
ان هناك تعارضا بين وظيفة الدين واقتراف أشد الجرائم نكرا وأدنها على
التواء الطبع وفساد الخلق .

فى ذلك العصر ، عصر الجرائم والمنكرات ، كان الأمير هو الطاغية
الذى يؤثر مكر الثعالب ، لانه كانت تنقصه قوة الأسود . ومقاومة أمثال
هؤلاء الأمراء باتباع مبادئ الأخلاق الكريمة ، كان فى نظر ميكافيلى معناه
قبول الخديعة والبؤس بالهزيمة . وكما أنه من الغباء والبلاهة أن يتجرد
الانسان من السلاح أمام العدو الذى يحمل السلاح أو الجار المتأهب
لمهاجمتنا . . . فكذلك من السخف ادعاؤنا القدرة على الانتصار دون أن
نستعمل الوسائل التى هى مصدر قوة الآخرين .

والرجل الذى يريد أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، وينتصر على البابا
— سواء بتجريده من أملاكه أو باتخاذ وسيلة من وسائله — لابد له أن

يكون شديد البأس ، صارم العزم ، داهية فى السياسة ، قادرا على التخلق بكل الصفات الرديئة التى ساعدت الآخرين على النجاح . وتحرير ايطاليا لا يتم باتباع نظرية أفلاطون ، وانما يتم باتباع وسائل الشدة والعنف . وكان من الصعب أن يدعو رجل مثل ميكافيللى الى اتباع سياسة الدين والرحمة والعدالة ، فى العصر الذى كان فيه الفاتيكان يبارك سياسة الغدر والقسوة ، ويمارس ذلك أمراء فلورنسا وميلانو والبندقية .

وقد كان ميكافيللى رجلا عمليا يريد فى جسد وحماسة النهوض بايطاليا ، ولذا رأى أن يقدم للأمير الذى يتولى القيام بهذه المهمة النصائح العملية التى تكفل له تحقيقها .



وكتاب « الأمير » الذى أثار غضب الكثيرين ، لم يكده يلتفت اليه أحد حين ظهوره . ولما كان الكتاب مهدى الى لورنزو دى مديتشى ، فقد وافق البابا على طبعه . ولم يستنزل الفاتيكان الصواعق على الكتاب الا بعد انفصال انجلترا عن الكاثوليكية ، فقد أطلق الكاردينال بولو على هنرى ملك انجلترا اسم ميكافيللى ، مبالغة فى الحملة عليه وتشويه سمعته . وألحق ديوان التفتيش مؤلفات ميكافيللى بقائمة الكتب المحرمة ، وأدان البابا بولس الرابع كتاب « الأمير » ، وتوالت الهجمات على الكتاب ومؤلفه . وصنع الجزويت تمثالا مصغرا لميكافيللى وحرقوه .

وقد أخذ على ميكافيللى أنه أعطى للرجل الذى سيتولى توحيد ايطاليا فى المستقبل درسا فى الاستبداد والخيانة والخروج عن الدين ، والواقع ان الأمراء الايطاليين ، فى العهد الذى ظهر فيه الكتاب ، كانوا لا يتورعون عن اتخاذ الغش والغدر والعنف وسيلة للمحافظة على كيان الدولة وكان الحال كذلك فى سائر أوروبا .

فالملك فرديناند الكاثوليكي كان من أشد رجال عصره خداعا وأقلهم وفاء بعهد ، وكان يفخر بأنه خدع لويس الثانى عشر ملك فرنسا أكثر من عشر مرات ، وأقسم قائده كونسالفو لدوق كالابرى ألا يخشى شيئا من ذهابه الى اسبانيا . فلما وصل هذا الدوق البائس الى شسبه الجزيرة الاسبانية ، ألقى به فى ظلمات السجن .

وريتشارد الثالث ملك انجلترا كان أكثر رجال عصره استعصالا للسم . وقال « هالام » عن لويس الحادى عشر : « اذا لم يكن حقيقة

انه هو الذى اخترع الغش ، فانه كان أقدر الناس على ممارسته » . وقد
خان السويسريون لودفيكو الموزو فى ميدان القتال .

وأمثال هذه الجرائم السياسية كثيرة فى التاريخ . ومعنى ذلك
ان ميكافيلى لم يقدم درساً فى الانحراف السياسى والالتواء الخلقى ، وانما
كان المؤرخ الضارم الذى أراد ان يرسم لأميره الخطة التى يتبعها فى محاربة
أعدائه . أما ميوله الخاصة بوجه عام ، فانها كانت موجهة الى التماس
الخير . وهو فى الوقت الذى يحذر فيه الأمير الجديد من أخطار الثقة
والمحافظة على العهد والتزام الصديق مع الخونة الأشرار ، لا يتأخر فى ان
يضرب له مثل الامبراطور الرومانى العظيم « مرقص أورليوس » الذى كانت
حياته مثلاً يحتذى فى تحرى العدالة والانسانية والتمسك بالفضيلة ،
ويقول : « مما لا شك فيه انه جميل بالأمير أن يفى بوعده ، ويحافظ على
عهده » . ولكنه يسرع فيضيف الى ذلك قوله : « يجب أن يكون الانسان
خيراً اذا كان الناس جميعاً خيراً . ولكن لما كانوا جميعاً أشراراً ، ومستعدين
على الدوام لنكث عهودهم ، فانك كذلك فى حل من الوفاء لهم » .

فميكافيلى لا يتطوع بتقديم النصائح السيئة بدافع من سوء الطبع
أو الاستهانة بالاخلاق ، وانما يحافز من الضرورة ، لانه يقول « على الأمير
ألا يترك عمل الخير اذا استطاع أن يتجنب ذلك » . وهناك بعض المذاهب
الفكرية التى تفرق بين آداب الفرد وآداب الدولة . فالفرد عليه أن يضحي
بكل شئ من أجل المحافظة على الفضيلة أما الدولة فانها تضحي بكل شئ
— حتى بالفضيلة نفسها — من أجل المحافظة على كيانها . . . فحينما يتعرض
المجتمع للأخطار الشديدة ، فانه يجب انقاذه بأى ثمن ، كما أن انقاذ
السفينة المشرفة على الغرق قد يستلزم البقاء ما بها من الخيرات فى البحر ،
والتخلص من بعض ركبائها اذا لم يكن هناك مندوحة عن ذلك . . . وقديماً
قال الحكماء أن الغرض، الأسمى والقانون الأعلى ، هو سلامة المجتمع .

● محتوى الكتاب

وصف لنا ميكافيلى حياته حينما بدأ يكتب كتابه الذائع الصيت
بقوله « حينما يقبل المساء أعود الى دارى وأذهب الى غرفة المطالعة ، وقبل
دخولها أخلع ملابسى الخشنة الملطخة بالوحل التى ألبسها فى الريف ،
وأرتدى أحسن ثيابى وهكذا بعد أن اكشيتى بالكساء اللائق أدلف الى جماعة
الرجال الذين عاشوا فى غابر الزمان ، وأغتذى بعد ترحيبهم بى من ذلك

الغذاء الذى يمدنى بالقوة ويعيد الى النشاط والذى أنا مدين له بكيانى ، وأجترى على التحدث معهم وأوجه اليهم الأسئلة عن أسباب ما قاموا به من الأعمال . وهم يترفقون بى ويتفضلون بالاجابة عما أوجه اليهم من الأسئلة فيزول عنى الشقاء وأنسى آلامى جميعها وأصير غير خائف من الفقر أو الموت ، وأنسى فيهم نفسى ، وقد قال دانتى « المعرفة مكونة مما سمعه الانسان » ولذلك قد دونت كل ما أعجبت به فى حديثهم ، ومن هذه المذكرات ألفت كتيباً وهو كتاب « الأمير » درست فيه الموضوع جميعه بأقصى ما أستطيع من العناية والاتقان .

وهكذا كان يهرب ميكافيلى من عالم الواقع الى عالم الفكر والخيال ، وربما لا نستطيع أن نقدر كتابه التقدير الوافى اذا لم نقدر الحالة النفسية التى كان يعانيها وهو يكتبه ، فقد كتبه وهو يقاسى الفقر والحرمان من غرفته الصغيرة فى سان كاسشيان سنة ١٥١٣ وقد كان بمثابة الوزير المخلص للجمهورية الناجح فى عمله المتحمس للجيش الذى دربه للدفاع عنها ولكنه فى ظروفه منفى شريد أطلق سراحه من السجن ولا تزال يده منتفختين من أثر التعذيب ، وقد فقد مكانته وعمله وماله وليس عنده ما يكفى زوجته وأولاده ، وفى مختلف الحالات التى عرضت له كان تفكيره يتجه دائماً الى السياسة ونظم الحكم ومن أقواله عن نفسه : « لقد تعودت أن أفكر فى الحكومة ونظام الدولة ، ولما كنت لا أستطيع الكلام عن صناعة الحرير أو الصوف أو الخسارة والربح لذلك قضى الحظ أن أستمتع ببحث فن الحكم » . وتفسر لنا التجارب المرة التى مر بها ما يتخلل بعض عبارات الكتاب من احتقار للبشر وسوء ظن بالطبيعة الانسانية ، على أن كتاب الأمير لا يمثل آراء ميكافيلى السياسية تمثيلاً كاملاً ، فقد بسط آراءه السياسية بطريقة أكثر اعتدالاً وأتم استيفاء فى كتاب « المطارحات » وفى رسائله ، ولكن ربما كان من أسباب اشتهار كتاب الأمير أنه يكتبه وهو يعانى الأزمات النفسية وقد امتلأ نفسه مرارة والمأ ، فجاء خلاصة موجزة شديدة التركيز لتجاربه السياسية وتفكيره العميق فى نظم الحكم مما جعل الكتاب مرجعاً للملوك والأمراء والحكام والسياسيين فى مختلف الأمم .



وهذا الكتاب الموجز مكون من ستة وعشرين فصلاً ، وفرط إيجازه جعل ميكافيلى لا يلجأ فيه الى الاستطرادات والتكرار الذى يملأ صفحات كتاب « المطارحات » ، والأمير الذى يصفه لنا ميكافيلى فى كتابه أمير إيطالى فى جوهرة ولكنه يحمل سمات أمراء عصر الاحياء ، وهو طاغية حاكم بأمره ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك اذا صمم على أن ينجح فى تحقيق

الوحدة وتسليم بلاده وتحريرها من سلطة الأجنبي ، وإذا نجح في تسليح قومه وطرد الأجنبي فإنه سيشرع بعد ذلك في سن القوانين الصالحة ويعمل على بقاء نظامه وحمايته بأن يكل الى الشعب الدفاع عنه .

وهو يستهل الفصل الأول بقوله : « كل الدول والأملاك التي عاش الناس تحت سلطتها في الماضي وفي العصر الحاضر كانت اما جمهوريات واما امارات والامارات وراثية وأسرة الأمير قد استقرت طويلا في الحكم أو انها امارات حديثة العهد ، والامارات الحديثة العهد اما انها جديدة كل الجدة مثل امارة أسرة فرانسيسكو سفورزا في ميلان واما انها قد أضيفت الى الدولة التي ورثها الأمير مثل مملكة نابولي في علاقتها بملك اسبانيا ، وأمثال هذه الأملاك المضافة اما انها كانت قبل ذلك قد ألقت أن يحكمها أمير آخر أو انها كانت ولاية حرة ، والأمير اما أن يضمها الى أملاكه بقوة سلاح الغير واما بقوة سلاحه أو بالحظ أو بالشجاعة » .

ويشير في الفصل الثاني الى انه سيقصر الكلام على الامارات لانه أطال الكلام على الجمهوريات في كتاب « المطارحات » وفي الامارات الحديثة يوجد الأمير دولة جديدة ، أو يجدد امتلاك الدولة ، والامارات التي يوجد فيها الأمير دولة جديدة هي الموضوع الرئيسي في الكتاب لأن الصعوبات التي يواجهها الأمير في انشاء الدولة الجديدة أكثر من الصعوبات التي يواجهها في الامارات الموروثة ، ولذلك تستلزم الامارات الحديثة معرفة أوسع وقدرة أعظم على الحكم الصالح والادارة الحسنة ، والامارات التي ينالها الأمير بالغزو يضر غزوها بمصلحة الكثيرين والذين يستفيدون من الغزو ينتظرون أن تمكنهم من فوائد أكثر من الفوائد التي ظفروا بها .

وحيثما تكون المقاطعة التي ضمت تشبه المقاطعات التي ضمت اليها تكون الصعوبات المعترضة أقل ويكفي في التغلب عليها الاحتفاظ بالعادات القديمة ويسفك الدم الأمير السابق ، ولكن حينما يكون كل شيء في الامارات الجديدة مختلفا تكثر العقبات والمشكلات وفي هذه الحالة من اللازم للأمير أن يذهب الى الولايات الجديدة ويقيم بها وبهذا يستطيع أن يوطد مكانته ويستديم سلطته ، ووجود الأمير في تلك الولايات الجديدة يمكنه من أن يعالج المشكلات عند بدء ظهورها وقبل أن يستفحل خطرها ، وفضلا عن ذلك فإن وجوده يحول بين رجاله وبين استغلال الولايات الجديدة وانتهابها ، ويرضى لك جمهرة الشعب لانه يستطيع أن يتقدم اليه مباشرة بالشكوى من أي لون من ألوان الظلم يلحقه وهذا يجعل أفراد

الشعب يحبونه اذا كانوا يريدون الخير والسلامة ، ويرهبونه اذا كانوا نزاعين الى الشر والعدوان .

ويستطرد ميكافيلي ليقول ان الناس اما أن نتملقهم ونسترضيهم أو نستذلهم ونغلبهم على أمرهم ، وذلك لانهم يستطيعون أن ينتقموا للأضرار التافهة التي تصيبهم ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن ينزل بهم الأضرار الجسيمة ، ولذلك على الأمير أن يكون من هذا النوع الذي لا يخشى معه الانتقام ، ومن ثم يحسن محاولة استمالة الجيران الضعفاء لأن هؤلاء سرعان ما يخضعون للدولة الجديدة اذا كانت قوية ، وفي الوقت نفسه من الضروري اخضاع الجيران الأقوياء وألا تساعد الأجانب الأقوياء أو تسمح لهم بدخول دارك .

ويشير ميكافيلي في الفصل الثالث من كتابه الى حكمة الرومان في الحكم ، وانهم كانوا لا يكتفون بمعالجة المشكلات الراهنة بل كانوا يستبقون الحوادث ويتناولون المشكلات المتوقعة ، ويذكر بهذه المناسبة أن المشكلات مثل الأمراض يسهل علاجها في بادئ أمرها ولكن يصعب تشخيصها ، فاذا اشتد أصبح من الصعب علاجها ومن السهل تشخيصها ، والاضطرابات السياسية يمكن اخمادها سريعا اذا توقع اقتراب حدوثها ، والحاكم البعيد النظر هو الذي يدرك ذلك .

ويستطرد ميكافيلي قائلا : « وقد أظهر سير الحوادث في ايطاليا أن فرنسا هي التي عملت على تقوية مكانة البابوية في ايطاليا ووطدت أقدام الأسبانيين بها ، وكان ذلك سببا لتدمير جيشها وهزيمتها ، ويمكن أن نستخلص من ذلك قاعدة عامة لا تخطئ الا نادرا ، وهي أن الذي تقع عليه تبعة قوية انما يسعى الى حثفه بظلفه ، وذلك لأن هذه القوة اما أن تكون مستمدة من الدهاء والحيلة أو آتية من الشدة والعنف ، والمكر والعنف كلاهما يثير اشتباه الذي أصبح قويا » .



وفي الفصل الخاص بكيفية حكم الأقسام الادارية يقدم ميكافيلي ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دويلة اعتادت أن تعيش بحسب قوانينها وفي حرية ، الأولى هي تخريبها وازالة معالمها والطريقة الثانية أن يذهب الأمير ويقيم بها ، والطريقة الثالثة أن يبقى لها قوانينها ويكتفى بتحصيل الجزية المضروبة عليها ويؤيد طائفة من الأشراف تدين له بالولاء ، ويؤيد ميكافيلي وجهة نظره بأمثلة من التاريخ القديم ، ويقول في صراحة ووحشية : « الذي يصبح سيدا لمدينة قد تعودت الحرية ولا يدمرها عليه ان ينتظر تدميرها له » .

● كيفية حكم الدولة

وفى الفصل السادس ينتقل بنا ميكافيلي الى صميم موضوع كتابه ، وهو كيف يحكم الأمير الجديد الدولة الجديدة ، وحكم مثل هذه الدول فى رأيه متوقف على مزايا الأمير ومواهبه قبل كل شىء ، والأمير الذى يعتمد على براعته وقدرته يستطيع أن يكون أكثر اطمئنانا الى مكانته من الأمير الذى يعتمد على الحظ الحسن وان كانت مواتاة الحظ لازمة له لزوم المواهب والمزايا ولكن كلما كان اعتماده على قدرته وكفايته أكثر من اعتماده على اسعاف الحظ كان مركزه أثبت .

ويستطرد ميكافيلي قائلا : « والرجال الذين أصبحوا أمراء باقدامهم وشجاعتهم يحصلون على الدويلات التى يحكمونها بصعوبة ، ولكنهم يجدون سهولة فى الاحتفاظ بها ، وذلك لأن الصعوبات التى تواجههم فى الحصول على الامارات ينشأ جانب منها من جراء النظم الجديدة والقوانين التى يضطرون الى ادخالها والأخذ بها فى انشاء الدولة وتوطيد مكانتهم » . والنظم الجديدة تثير العداء من جانب الذين كانوا يعيشون فى ظل النظم القديمة ، والذين تتحسن أحوالهم فى ظل النظم الجديدة يتلقونها أول الأمر فى شىء من التردد والتهاون ، وذلك لأنهم من ناحية يخشون أنصار النظام القديم ومن ناحية أخرى لأن البشر بطبيعتهم ضعاف الايمان ولا يسرعون الى تصديق الأشياء الجديدة الا بعد أن يختبروها ونتيجة لذلك نرى الذين يقاومون التغيير يهاجمونه فى عنف فى حين أن المدافعين عن النظم الجديدة ينقص دفاعهم فى العادة التحمس والايمان ، وهذا يجعل موقف المجدد وأنصاره مستهدفا للخطر ، ويفرق ميكافيلي بين المصلح المجدد الذى يقف مفردا أو المصلح المجدد الذى يستند الى قوة تحميه أى بين هؤلاء الذين يحاولون أن يحملوا الناس على الأخذ بأرائهم عن طريق الاقناع والذين يحملون حملا على اعتناق آرائهم بطريق الارغام والعنف ، وعنده أن الأولين يخفقون وتنتهى حياتهم بمأساة فى حين أن الآخرين ينتصرون . وجمهرة الشعب بطبيعتها متقلبة الأهواء ومن السهل اقناعها ولكن من الصعب استمساك الناس بالاعتناع ، ولذلك على المصلح أن يحسب ذلك القلب ، وأن يكون له من القوة ما يرغمهم به على ما سبق أن اقتنعوا به اذا انصرفوا عن ذلك الاقتناع .

وفى فصل آخر من الكتاب يتحدث ميكافيلي عن الولايات التى تكتسب عن طريق الخطأ أو بمساعدة جيوش أجنبية ، وهو يرى أن الذين يصبحون

أمرء من عامة الشعب عن طريق الحظ لا يبذلون من جانبهم سوى القليل من الجهد ولكنهم لا يستطيعون المحافظة على مكانتهم الا ببذل مجهود ضخم، وإذا تم يكونوا على جانب كبير من الشجاعة وسداد الرأي وسرعان ما ينقدون ما جاد به عليهم من الحظ الحسن، ويضرب ميكافيلي مثلين لمن يصبح أميرا عن طريق الشجاعة أو طريق الحظ، وهما فرانثيسكو سفورزا وشيزاري بورجيا وكانا معاصرين له، وقد اعتمد الأول على شجاعته واستطاع أن يرتفع من مستوى المواطن العادى الى مرتبة دوقية ميلان وقد بذل في الحصول عليها جهدا عظيما ولم يجد بعد ذلك صعوبة في الاحتفاظ بها، أما شيزاري بورجيا دوق فالنتينا فقد ظفر بالامارة بمعاونة أبيه البابا اسكندر، وفقد الولاية التي أمر عليها بعد وفاة أبيه وذلك برغم ما بذل من جهد في سبيل تثبيت قواعد دولته .

ويمضى ميكافيلي في الحديث بعد ذلك عن الأمراء الذين وصلوا الى الامارة لا عن طريق الحظ الحسن وانما بارتكاب الجرائم وكان شيزاري بورجيا لم يكن كافيا ! ويقدم لذلك مثلين ليحذيهما من يجد نفسه في ظروف مقتضى اتخاذ هذه الوسائل المستنكرة، الأول أجاثوكل الصقلي الذي أصبح بمهارته الحربية سيد سرقوسة رغم صفة أصله، فقد سعى في أول أمره الى مصادقة القرطاجنيين ثم جمع بعد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وأمر عساكره بقتل أعضاء مجلس الشيوخ وزعماء الشعب، ونجح بعد ذلك في الاستيلاء على الحكم دون أن يلقي معارضة، واستطاع بعد ذلك مهاجمة قرطاجنة وإحراجها حتى اضطر القرطاجنيون الى الانسحاب من صقلية، ويشعر ميكافيلي بأن ذكر هذا المثل قد يبعث القارئ على أن يظن انه يجب هذا الغدر تحييدا تاما فيستدرك قائلا : « لا يمكن أن تعد من الشجاعة أن يقتل الانسان المواطنين زملاء ويخون أصدقاءه وأن يكون غادرا مجردا من الرحمة خارجا على الدين، فان هذا قد يكسب الأمير قوة ولكنه لا يضيف عليه المجد، ويستطيع الانسان أن يلفت النظر الى شجاعة أجاثوكل في مواجهة الأخطار والتغلب عليها ويبدو أنه لا يقل منزلة عن كبار القادة المتفوقين ولكن برغم ذلك فان قسوته الوحشية وتجرده من الانسانية وجرائمه التي لا تعد تمنع من إلحاقه بركب الرجال العظماء الأعلساء » .

والمثل الثاني الذي يقدمه ميكافيلي هو أوليفرتو الفيروماري فقد نشأ يتيما وكفله خاله جيوفاني فوليانى، وأرسله ليعمل جنديا تحت اشراف باولوفينلى ليتدرب على القيادة، ولما كان ذكيا جرى الجنان صار قائدا بارعا، ولكنه وجد أنه مما يزرى به أن يتلقى الأوامر من غيره من الناس، ولذلك صمم على الاستيلاء على فيرمو وكتب رسالة الى خاله يخبره فيها

انه يريد أن يدخل المدينة فى موكب حافل تحف به الفرسان ليرى الشعب فخامة أمره وقوة جيشه ، وتلقاه خاله بالترحيب والاكبار وأنزله فى قصره ، وأعد أوليفرتو عدته ونظم مؤامرتة ، ودعا خاله وأعيان فيرمو الى وليمة حافلة ، وأمر بقتلهم جميعا ، وركب فى أعقاب ذلك جواده ليمر فى أنحاء المدينة التى أصبحت خاضعة له ، ولولا أن الدوق فالتينوا قتله بعد ذلك لكان من الصعب زحزحته عن مكانته .

ويتساءل ميكافيلى بعد ذلك كيف ظل اجاثوكل فى أمن وسلام بعد ارتكاب هذه الجرائم واقتراف هذه الآثام ؟ وذلك فى حين أن الكثيرين من الطغاة الأشرار كانت نهايتهم سيئة ، ويجاوب على هذا التساؤل بأن الأمر يتوقف على الطريقة التى ارتكبت بها الفظاعات وهل تمت بطريقة بارعة أو بطريقة معيبة ؟ ويمكن أن يقال ان الجرائم التى اقترفت بطريقة بارعة هى التى كان سببها الرغبة فى توطيد المكانة ودفع الأذى التى يتوقف عليها نجات الانسان ، والقسوة التى يساء استعمالها هى التى يندر استعمالها فى بادىء الأمر ، ولكن بمرور الزمن تصبح بدلا من أن تختفى أكثر ظهورا ، ولذلك على الأمير الذى يستولى على دولة أن يقرر الأضرار التى سيوقعها بها ، ويصيبها عليها مرة واحدة ، ولا يجدد الحاق الأضرار بها كل يوم ، وبهذه الطريقة يستطيع أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الناس ويجتذبهم الى صفه حينما يجود عليهم بما ينفعهم ، والذى يخالف ذلك بباعث الخوف أو النصيحة السيئة سيضطر الى أن يحمل السلاح دائما ، ولا يستطيع أن يعتمد على رعيته ، لأن الأذى الذى لا ينقطع عنهم يجعلهم لا يأمنون جانبه ، والأذى الذى يحقق بهم مرة واحدة سرعان ما ينسى طعمه ، والنعم المغدقة يحسن أن تمنح بالتدريج ، ومن ثم تكون الذ طعما وأجمل وقعا .

وينتقل بعد ذلك ميكافيلى الى الحديث عن الامارة الدستورية ، ويقول انها يجب أن تقوم على مساندة الشعب الذى بدونه لا يمكن أن تكون الحكومة ثابتة القواعد ، ومن أشد الأمور خطرا ترك حكومة الدولة للأعيان ، وهم اذ عجزوا عن مقاومة الشعب عملوا على تقوية مكانة واحد منهم ونصبوه أميرا لكى يحققوا أهدافهم عن طريقه ، والأمير الذى يصل الى الامارة عن طريق الأعيان يجد صعوبة فى المحافظة على مكانته أكثر من الأمير الذى يصل الى الامارة مؤيدا من الشعب ، وارضاء الأعيان واشباع رغباتهم يضران بمصلحة الشعب ، والأعيان يريدون أن يقهروا أما الشعب فانه لا يريد سوى رفع الظلم عن كاهله ، والأمير لا يستطيع اغضاب عامة الشعب لكثرة عدده ، أما الأعيان فأمرهم هين لأن عددهم قليل ، والأمير الذى وصل الى الامارة عن طريق الشعب لا يجد صعوبة فى استدامة

رضائه لان الشعب لا يريد سوى العدالة ، أما الأمير الذى يصل الى الامارة بمعاونة الأعيان فعليه أن يعمل على اكتساب ثقة الشعب وهو أمر ميسور سهل اذا بسط على الشعب حمايته .



وفى الفصل الخاص بالامارات الدينية يقول ميكافيلى ان أمثال هذه الامارات تنال بالشجاعة أو بالحظ ولكن يمكن المحافظة عليها بغير الشجاعة لانها فى كفالة النظم الدينية ، وهذه النظم الدينية من القوة والثبات بحيث تحمى الحكومة سواء أساء الأمير الحكم أو أحسن ، والأمراء الدينيون وحدهم هم الذين يملكون امارات ولا يحمونها ، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمون هؤلاء الرعايا ، ولما كانت اماراتهم غير محمية فانها لا تؤخذ منهم . وما دامت رعاياهم بدون حكومة فهم لا يفكرون فى احداث انقلاب ولذلك فان هذه الامارات وحدها هى السعيدة الآمنة . ولما كان الله هو حامى هذه الامارات فمن حماقة والادعاء الافاضة فى الحديث عنها .



ويقف ميكافيلى ثلاثة فصول من كتابه على الحديث عن مسألة تكوين الجيش اللازم للأمير ، ولهذه المسألة أهمية كبيرة عند ميكافيلى ، لأنه كان لا يفتأ يردد أن الجيوش القوية تدل على وجود القوانين الصالحة ، وحيث لا توجد الجيوش لا يكون هناك قوانين ، والجيوش اما أن تكون مكونة من جنود مرتزقة أو جنود مساعدة أو جنود مختلطة ، والجنود المرتزقة والجنود المساعدة لا فائدة منها وهى مصدر خطر ، والأمير الذى يعتمد على الجنود المرتزقة فى الدفاع عن امارته لا تحظى امارته بالاستقرار ولا بالأمن لان الجنود المرتزقة غير متحدة ولا منظمة ولهم مطامع ولا يؤمن جانبهم وهم شجعان أمام الأصدقاء وجبناء أمام الأعداء ، ويطيل ميكافيلى فى وصفه تعديد صفاتهم وتشريح عيوبهم اطالة العارف بأحوالهم ، ويدلل على صحة رأيه بأمثلة كثيرة مستمدة من التاريخ القديم والتاريخ الحديث الذى عاصره .

● صفات الأمير

ولكن ما هى الصفات التى يحسن أن يتحلى بها الأمير والصفات التى تعاب عليه ؟ وهذا الموضوع من الموضوعات الخطيرة التى تناولها ميكافيلى فى الفصل الخامس عشر من كتابه ، وكثير من كتاب القرن السادس عشر

كانوا يرون أن الأمير يجب أن تتوفر فيه الفضائل جميعها وأن يكون مثلاً أعلى في التدين والتواضع والكرم والعدالة ، ولكن ميكافيل ينظر الى المسألة من زاوية أخرى ، وهو يقول : « هناك فرق كبير بين كيفية معيشتنا وبين كيف كان يجب أن نعيش ، وإن الذي يترك ما هو واقع فعلاً من أجل ما كان يجب أن يقع سيجلب لنفسه الخراب ، والواقع أن الذي يريد أن يتبع الفضيلة في كل سبيل سيجر على نفسه الكوارث إذا كان بين الكثيرين من المجردين من الفضيلة ، ولذلك إذا أراد الأمير أن يحافظ على مكانته فإن عليه أن يتعلم كيف يعرض عن الفضيلة وكيف يكون خيراً حسب الحاجة » ويستطرد ميكافيل قائلاً : « انى أعلم أن كل انسان يوافق على ان من أجدر المسائل بالمدح أن تجتمع الصفات الطيبة جميعها في الأمير ، ولكن ما دامت الطبيعة الانسانية على ما هي عليه فإنه لا يمكن أن تتوفر هذه الصفات في الأمير أو بالأحرى لا يستطيع الأمير أن يظهرها جميعها . . وعلى الأمير ألا يخشى اللوم على الرذائل اللازمة للمحافظة على الدولة ، وذلك لأنه إذا راعى جميع الاعتبارات سيجد أن بعض الأشياء التى تبدو فضائل ستكون « ماضية عليه إذا مارسها وبعض الأشياء التى تبدو شريرة ستجلب له الأمن والرخاء » .

ويحسن أن نلاحظ هنا ان ميكافيل لا يشغل باله في كتابه بأخلاق الأمير الخاصة وسيرته الشخصية ، وإنما يتناول أخلاق الأمير باعتباره ممثلاً للدولة ورأساً لها ، والمقصود بالخراب الذى يصيب الأمير هنا خراب الدولة ذاتها فهو يفصل الأخلاق الخاصة عن الأخلاق العامة فصلاً تاماً ، وقد جرت عادة الشعراء أن يشيدوا بكرم الأمراء ، ولكن ميكافيل يخالفهم فى ذلك وعنده أن صفة الكرم فى الأمير غير جديرة بالمدح ، لأنه ينفق أموال غيره ولذلك يؤثر البخل فى الأمراء ، ولا يجمل عنده بالأمير أن يكون كريماً الا فى توزيع أسلاب الحرب ولكن أيهما أجدى على الأمير أن يوصف بالرحمة أم بالقسوة والوحشية وأن يكون محبوباً أم مكروهاً ؟ وبوجه عام خير للأمير أن يوصف بالرحمة ولكنه يجب عليه ألا يسئ استعمالها . ومن الخير أن يحب الانسان ويخشى بأسه فى الوقت نفسه ، ولكن لما كان هذا من المستحيل بالأفضل أن تكون مرهوب الجانب ، وقد يخشى بأس الأمير دون أن يكون مكروهاً ويرى ميكافيل ان الخوف من الأمير لا يستلزم كراهيته ، على أن ميكافيل يرى أن الأخلق بالأمير أن يكون مخشى السطوة لا محبوباً ولكن لما هذا ؟ ان ميكافيل يرد علينا قائلاً : « تستطيع أن تزعم بوجه عام عن البشر انهم ناكرون للجميل وانهم متقلبون وكذابون وغاشون وانهم يتحاشون ركوب الأخطار ويطمعون فى الكسب ، وما دمت تحسن معاملتهم فانهم فى صفك ومن شيعتك ويسفكون دماءهم من أجلك ويعرضون

أملأهم وحياتهم وأولادهم للخطر ما دام الخطر بعيدا ولكن حينما يحدق بك الخطر يقلبون لك ظهر المجن ويتنكرون لك ، والأمير الذي يكتفى بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيلة يبوء بالخيبة ، والناس لا تبالى بالاساءة الى الأمير الذي يجعل نفسه محبوبا ولكنهم يحذرون أن يمسوا بسوء الأمير الذي يخشون بأسه ، ولا ينسى ميكافيل أن ينصح للأمير بعدم التعرض لنساء رعيته وما يملكون ، وحينما يقود الأمير جيشه فعليه ألا يعبأ بالاشتهار بالقسوة لانه بدون هذه الشهرة لا يستطيع المحافظة على النظام فى جيشه ويشيد ميكافيل بقسوة هانيبال فى هذا الصدد كما يأخذ على القائد الرومانى سيبىو الإفريقى ضعفه فى هذه الناحية .

● نصائح قاسية !

والفصل الثامن عشر من كتاب الأمير أحد فصوله البالغة الأهمية وهو الفصل الخاص بكيفية محافظة الأمير على وعده أو نكث عهده ، وطالما كان هذا الفصل دريئة للهجوم على ميكافيل ونقد مذهبه ، ويقول ميكافيل : « يعرف جميع الناس ان المحافظة على العهد من الأمور الجديرة بالثناء ولكن مع ذلك فان التجربة أثبتت فى عصرنا ان الأمراء الذين قاموا بأعمال عظيمة لم يعبأوا فتىلا بالمحافظة على وعودهم وعرفوا كيف يحIRON عقول الناس بالمر والدهاء ونجحوا فى النهاية نجاحا لم يظفر بمثله الأمراء الذين اتبعوا الشرف والأمانة . ويمضى ميكافيل فى تقديم النصائح القاسية قائلا :

« عليك أن تفهم أن هناك طريقتين للحرب ، وهما اتباع القانون أو استعمال القوة ، والطريقة الأولى طريقة الانسان والطريقة الثانية طريقة الوحوش ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى فى الأعم الأغلب تثبت انها غير كافية فعلى الإنسان أن يلتزم الطريقة الثانية وبناء على ذلك يلزم أن يعرف الأمير كيف يجيد أن يكون وحشا وان يكون انسانا ، وقد علم الكتاب القلماء الأمراء ذلك بطريق المجاز حينما وصفوا لهم كيف أرسل أشيل وكثيرون غيره من الأمراء الى شيوخ ليتولى تنشئتهم وهو مخلوق نصفه انسان ونصفه حيوان ، ومعنى هذا المجاز أن الأمير عليه أن يعمل بموجب الطبيعتين وان لا بقاء له ان لم يفعل ذلك » .

وعلى الأمير أن يتعلم من الثعلب ومن الأسد ، لان الأسد لا حيلة له مع الشباك التى تنصب لاصطياده كما ان الثعلب لا يستطيع مقاومة

الذئاب ، ولذلك يحسن بل يجب فى رأى ميكافيل أن يكون الانسان ثعلباً
ليعرف الشباك وأن يكون فى الوقت نفسه أسداً ليخيف الذئاب ، والذين
يسلكون على الدوام مسلك الأسود أغبياء ، ولذلك يوصى ميكافيل الأمير
بألا يحترم وعده ولا يفى بعهده اذا كان ذلك يعرضه للخطر ، ولو كان
الناس جميعهم أخياراً لكان من الخطأ اتباع هذه النصيحة ، ولكن الناس
أشرار مناكيد لا يفون لك بعهدهم فلست فى حاجة الى المحافظة على
عهودهم ، ويوصى ميكافيل الأمير مع ذلك بألا يكون صريحاً فى ذلك فيقول :

« على الانسان أن يعرف كيف يصفى الألوان على أعماله وأن يكون
بارعاً فى الكذب والغش » . ويضرب مثلاً لذلك البابا اسكندر بورجيا
معاصره الذى كان يجد على الدوام فريسة لكذبه وغشه .

وليس هذا كل ما فى الأمر ، فانه ليس من اللازم للأمير أن يكون
متصفاً بكل الصفات الحسنة ولكن من ألزم ما يلزم له أن يتظاهر بالتحلى
بها ، ويقول ميكافيل : « انى أجتريء على القول بأنه مما يضر بالأمير أن
يتصف بهذه الصفات (الحسنة) وأن يعمل بموجبها فى حين انه من النافع
له أن يبدو متحلياً بها » أى يبدو مثلاً رحيماً صادقاً متديناً على أن يضع
نصب عينيه التخلّى عن هذه الصفات حينما يستوجب الأمر العمل بنقيضها ،
والأمير الجديد بوجه خاص لا يستطيع ممارسة هذه الفضائل لانه فى سبيل
المحافظة على الدولة مضطر الى أن يأتى فى حق الانسانية والدين والفضيلة ،
ولذلك من الملائم أن يكون عقله قلباً وأن يراقب مهاب الرياح ويعرف كما
يقولون من أين تؤكل الكتف .

ولا نزاع فى أن هذه النصائح والتعاليم التى يهديها ميكافيل لأميره
فظيحة مستنكرة ولكنها فى الواقع تأكيد لكل ما لاحظته من تجاربه
السياسية ومخالطته للأمراء والملوك فى عصره ، وهى لا تخرج عن تكرير
القول فيما يردده على الدوام رجال السياسة وهو انهم لا يستطيعون أن
يقولوا الحق وان عليهم أن يخفوا ما فى نفوسهم وما ينتوون عمله واذا
لم يسلكوا هذا المسلك عرضوا أنفسهم ودولتهم وأحزابهم للخطر الشديد ،
والأحوال السياسية التى كانت سائدة فى عصر ميكافيل وما تزال سائدة
الى اليوم فى معظم أنحاء العالم تستوجب ما قاله ميكافيل ، وليس السياسى
رجلاً فرداً يخاطب رجلاً فرداً مثله وانما هو مجموعة أفراد ممثلة فى انسان
فكلماته تختلف قيمتها وأهدافها وتأثيرها عن كلمات غيره من الناس
العاديين ، ولا نزاع فى أن هناك سياسة أمينة صادقة وسياسة خائنة

غادرة ولكن الذى شغل ميكافيلى فى كتاب الأمير هو « فن السياسة » الذى استأثر بالكثير من تفكيره واطلاعه وبخاصة فى التاريخ ، وقد استخلص من تفكيره وتجاريبه أن واجب الأمير الأسمى هو المحافظة على كيان الدولة وأن الوسائل المؤدية الى ذلك جميعها مشروعة ومباحة .

ويرى ميكافيلى فى الفصل التاسع عشر من كتابه ان خير ما يقى الأمير شر المؤامرات هو تجنب اغصاب شعبه ، وذلك لأن المتآمرين عليه يظنون دائما انهم بقتله يرضون الناس ، فاذا قدروا أن قتله يثير نقمة الشعب أحجموا عن ذلك ، والأمير الذى ظفر بحب شعبه وثقته به يستطيع أن يأمن خطر التآمر عليه ، ولكن اذا كان الشعب ناقما على الأمير كارها له فانه سيخاف كل انسان ويخشى كل شيء ، وفى الدول الحسنة التنظيم كان الأمراء العقلاء يتحرون استرضاء الأشراف واستمالة الشعب .



وفى الفصل العشرين يتحدث ميكافيلى عن بناء الحصون وهو يقر سياسة اقامة الحصون فى وجه المغير على البلاد ولكنه مع ذلك يرى أن الأمير الذى يخشى شعبه هو الذى يحرص على بناء الحصون ، أما الأمير الذى يخشى الهجوم على بلاده من الخارج فانه لا يعنى بها ، وخير حصن للأمير هو تجنب كراهة الشعب .

وفى الفصل الواحد والعشرين يوجه ميكافيلى التفاتة نادرة فى كتابه الى عامل آخر من عوامل المجتمع الانسانى غير الحرب والسياسة ، وذلك حيث يوصى الأمير بتقدير المواهب وتشجيع الأكفاء وتكريم مهرة الصناع وتشجيع المواطنين لتمكينهم من متابعة أعمالهم سواء كانت تجارية أو صناعية أو غير ذلك من المهن ، وألا يثقل كاهلهم بالضرائب ، وأن يعنى بالترفيه عن الشعب باقامة الحفلات والمعارض .

وفى الفصل التالى يتناول ميكافيلى مشكلة اختيار الوزراء والمساعدين وعمال الادارة وفى هذا الاختيار تتجلى حكمة الأمير ، ويقول ميكافيلى ان من الناس من يستطيعون فهم الأشياء بضوء ذكائهم وهؤلاء لا يحتاجون الى من يتولى تبصيرهم بحقائق الأمور ، ومنهم من لا يستطيعون أن يفهموا الأشياء بأنفسهم ولا بمساعدة الغير وهؤلاء غير الموقنين ، وهناك فريق ثالث وهم هؤلاء الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم فى فهم الأشياء ولكنهم يستطيعون أن يقدروا ما فى آراء الغير من الصواب . والأمراء من

هذا الطراز يحسنون من ناحية مراقبة وزرائهم ومن ناحية أخرى يفيدون من نصائحهم وعلى الأمير أن يكرم الوزير اذا أخلص في خدمته وتحري مصلحته ، واذا أحسنت العلاقة بين الأمير ووزرائه عاد ذلك بالخير الكثير على الدولة ، ويوصى ميكافيلي الأمير بإبعاد المتملقين وأن يختار حاشية من العقلاء الذين يصدقونه القول ويمحصونه النصيح ، على أن يزن آرائهم بميزان تفكيره الخاص ويأخذ بما يراه أقرب الى الرجحان والأصالة .



وقد استطاع ميكافيلي أن يبسط آراءه السياسية في صورة واضحة محددة لتمثلها في شخصية الحاكم المصلح والأمير الذي يجدد حياة الدولة ، وقد أوحى الى ميكافيلي صورة هذا الأمير الأمثلة التي لحظها في التاريخ القديم مثل رومالاس وليكارجاس وسولون والأمثلة الحية التي رآها في عصره مثل فرانثيسكو سفورزا وشيزاري بورجيا بوجه خاص وفرديناند الكاثوليكي .

وبعد . . فانه علينا أن نراعى ، عند تقدير كتاب « الأمير » انه مهدي لأمر من أسرة المديتشي . وقد حرص ميكافيلي في هذا الكتاب على اثبات بعد النظر السياسي لتلك الأسرة ، وتقديره للتقاليد التي قامت عليها سياستها ، وكيف تحافظ على قوتها وتستبقى نفوذها . وربما يكون هذا الاعتبار قد ساقه الى التورط في بعض المبالغات ، ولكننا خلقاء مع ذلك أن نلمح في ثنايا سطور الكتاب سوء اعتقاد الرجل في الطبيعة الانسانية، وعدم ايمانه بفكرة التقدم . . فالتاريخ في نظره ميدان تلعب فيه المصادفات والحظوظ ، وليست هناك قوانين محتومة مسيطرة عليه ، فاذا أردت النجاح فساير الظروف ، واختر البر والرحمة اذا شمتت فيهما النجاح ، والعب دور الأسد أو دور الثعلب بحسب مقتضيات الأحوال .

● رأى الأجيال في الكتاب وصاحبه

وأثار كتاب الأمير السخط على مؤلفه ، ولكنه أحرز اعجاب عظماء عصره ، لانه خاطبهم باللغة التي يفهمونها ، ويدركون مغزاها ، وفيه تحذيرات نافعة لهم ومشاهدات وتجارب موحية .

ولا تزال آراء ميكافيل تثير خلافات شديدة وخصومات لا تنتهى . .
 لان علاقة السياسة بالأخلاق ليست بالمسألة القليلة الخطر ، والبحث فيها
 يتطلب موقفا خاصا تلقاء طائفة من المسائل الجسام والمعضلات المعقدة . .
 فهى تستلزم أن نعيد النظر فى التاريخ ونستقرئ أطواره ونتتبع
 حركاته ، وأن نجعل الفكر فى النفس وننظر اليها نظرة فاحصة مجردة .
 وأن نتناول بالبحث وظيفة الحكومة وواجبات الدولة ومهمتها ومدى ما يمنح
 لها من سلطة وما يقدم لها من طاعة . وآراء المفكرين فى كل مسألة من
 هذه تختلف باختلاف المشكلات التى يواجههم بها عصرهم ، لأن الفلسفة
 السياسية تمتد من التجربة ، والآراء التى تنتهى اليها المفكرون السياسيون
 هى صدى تأثير الحوادث فى نفوسهم .

فالمؤرخ الانجليزى الشهير اللورد ماکولى كتب رسالة عن ميكافيل
 بدأها بقوله :

« أنا فى شك من أن يكون فى التاريخ اسم يحمل من كراهة الناس
 مثل ما يحمل اسم ميكافيل . وقرأ ما وصفه به الناس والنقاد فأخرج
 بأنه شيطان ، كان فيه للناس غواية ، وللشر أصول ، وأنه زارع الأطماع
 فى قلوب البشر ، ومع الأطماع حب الثأر والنكاية ، وأنه قبل نشر كتابه
 « الأمير » لم يكن فى الناس منافق ولا مستبد ظالم ، ولا غادر خائن . ثم
 كان كل هؤلاء من بعد نشره » .

ومن النقاد من قال : ان كل سياسة بها عوج انما استمدتها صاحبها
 من هذا الكتاب . وناقد آخر قال : ومن هذا الكتاب تعلم سلاطين الأتراك
 كيف يخنقون أخوة لهم تثبيتا لحكم قائم أو طمعا فى حكم يكون . وكنيسة
 روما وصمت ما كتب ميكافيل باللعنة . وحرمة حيازة ونشرا وقراءة على
 عباد الله الصالحين .

وفى عام ١٩٢٤ حاول موسولينى الربط بين الفاشية والميكافيلية ،
 كتب فى مؤلفه « مقدمة عن ميكافيل » يقول : « اننى أؤكد ان مذهب
 ميكافيل يعيش حيا اليوم ، أكثر مما كان حيا منذ أربعة قرون » .

غير أن أجمل مديح ناله ميكافيل ، هو ذلك الذى وجهه اليه ، عن
 غير قصد ، فردريك الثانى (١) ، الذى هاجمه فى البداية فى كتابه « ضد
 الأمير » ، ثم طبق كل مبادئه عندما أصبح ملكا !

(١) فردريك الثانى : (١٧١٢ - ١٧٨٦) ملك بروسيا (١٧٤٠ - ١٧٨٦) .
 أظهر مقدرة فائقة فى الحرب والادارة . اشترك فى الحرب النمساوية وحرب السنين السبع .

ومن ناحية أخرى نجد الفيلسوف الألماني هيجل - وهو من كبار المفكرين السياسيين في القرن التاسع عشر - يؤيد ميكافيل في آرائه ، وينكر امكان التوفيق بين السياسة والأخلاق ، ويقول أن الدولة هي تحقيق للفكرة الأخلاقية ، وليس لها واجب أكبر من المحافظة على كيانها .

والمؤرخ الألماني ترتيشكه يرى أن فرية ميكافيل هي أنه أطلق الدولة من سلطة الكنيسة ، والدولة في رأيه أسمى من الأفراد الذين تتكون منهم ، وهي موجودة لتحقيق أغراض أسمى من السعادة الانسانية ، ولا تستطيع مباشرة وظيفتها الا اذا كانت قوية . . . وهي القوامة على التقاليد ، والوصية على الأجيال التي لم تولد بعد ، وهي غير مدينة بالولاء لأية سلطة خارجية .

ولا ينكر أحد أن دكتاتورى وطغاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة في كتاب « الأمير » . وان قائمة القراء المتلهفين ضخمة : فقد أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دي ميديكى بذلك المؤلف . وحصل أوليفر كرومويل (٢) على نسخة خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها في حكومة الكومنولث في انجلترا . وكان كل من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيان يحمل كل منهما نسخة منه . كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا . واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلية المفضلة » ، ووجدت منه نسخة ذات حواش في عربية نابليون بونابرت في ووترلو ، واستمد نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب . وكان بسمارك (٣) تلميذا مخلصا له . وحديثا احتفظ أدولف هتلر تبعا لقوله هو نفسه بكتاب « الأمير » بجانب سريره حيث كان مصدر إلهاء مستمرا له .

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للأحداث التاريخية ان الطغاة ، أمثال هتلر وموسوليني ، لقوا عموما نهاية مؤسفة لانهم أهملوا أو أساءوا تفسير بعض المبادئ الأساسية التي صاغها ميكافيل .

ولقد اشتقت من اسم ميكافيل كلمتان ، هما الميكافيلية بمعنى الخداع السياسى ، والميكافيللى أى من يعتنق مذهب ميكافيل فى السياسة ، وهما

(٢) أوليفر كرومويل : (١٥٩٩ - ١٦٥٨) رئيس الجمهورية التى أقامها بانجلترا (١٦٥٣) .

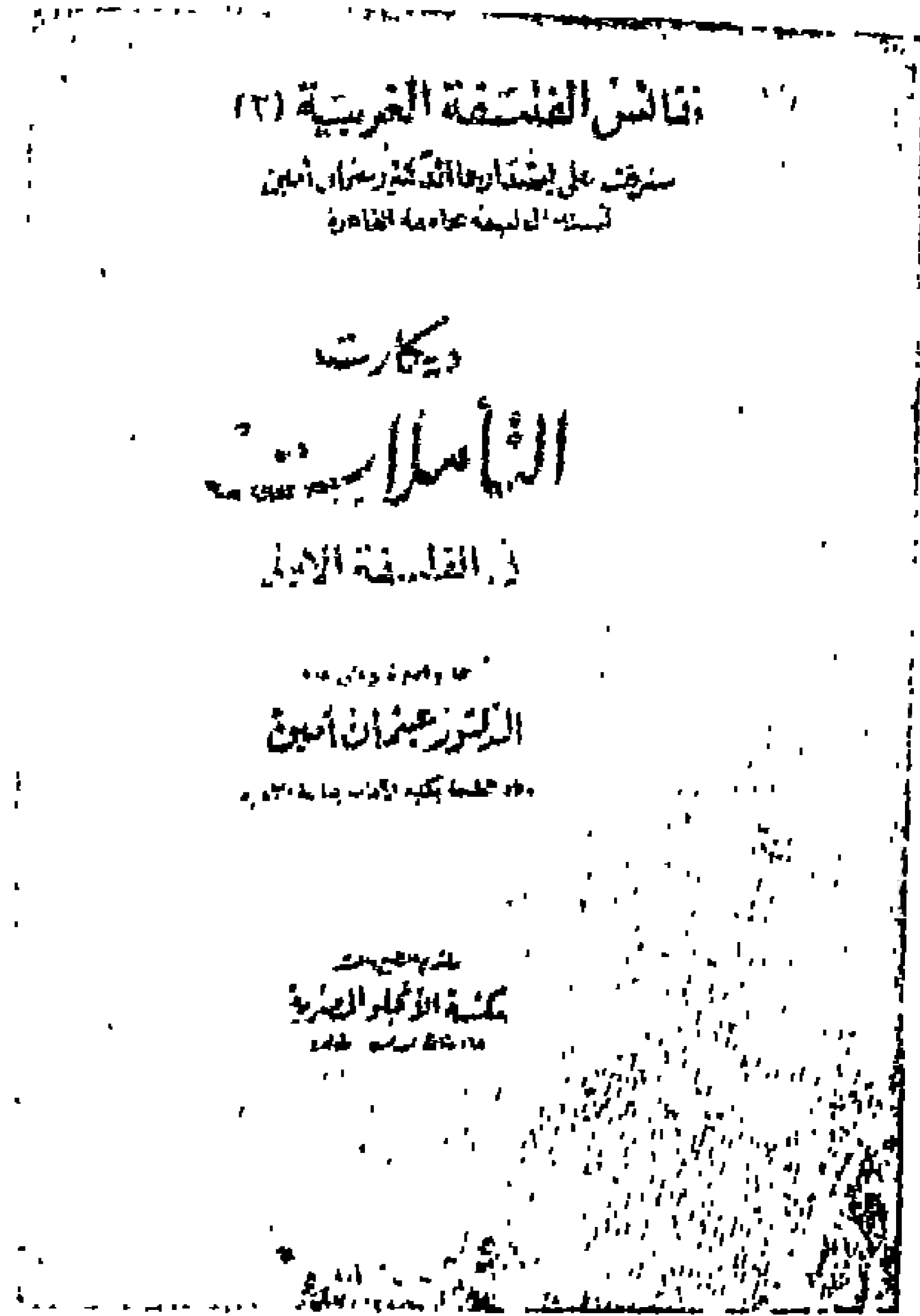
(٣) بسمارك : (١٨١٥ - ١٨٩٨) سياسى المانى . منشىء الامبراطورية الألمانية .

ما أمكن تقريبيهما من معنى السادية والسادى . الا انه فيما عدا شهرتها المبالغ فيها فان عقيدة ميكافيلى تتفق مع مطالب عصر معين ، هو عصر النهضة ، فى بلاد معينة هى ايطاليا ، ومدينة معينة هى فلورنسا . ومع ذلك فهى تخرج عن نطاق الزمن المحدود الذى عاش فيه ، لكى تكتسب هذه القيمة العالمية التى أتاحت لها أن تعبر كل هذه القرون . فلا جدال فى أن كتاب « الأمير » كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى ويحق لمؤلفه أن يلقب باسم « مؤسس علم السياسة » .



(٧) التأمّلات في الفلسفة الأولى

ديكارت



التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ١٦٤١ م

الكتاب الذي هب النفوس للشورة الانسانية الكبرى

ديكارت هو « أبو الفلسفة الحديثة » ، وأول من وصفه بهذا الوصف .
فلاسفة الألمان وعلى رأسهم « هيجل » و « شلنج » . ولقد أحدثت آراؤه
في الفلسفة والعلم هزة عنيفة ، فقوضت مذهب أرسطو ، وقضت على علم
القرون الوسطى ، وأيدت سلطان العقل وناصرت قضية الحرية ، وهيأت
النفوس للتورة الانسانية الكبرى .

وقد اشتهر ديكارت في العصور الحديثة بأنه زعيم « المذهب العقلي »
في الفلسفة . وهذا المذهب عبارة عن القول بأن المشكلات الفكرية العامة
التي تعنى بالانسان بما هو انسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الانساني.
ومن غير معونة من شيء خارج عن العقل ،

وفلسفة ديكارت عرفت بأنها « فلسفة الأفكار الواضحة المتميزة »
كما كانوا يسمونها في القرن السابع عشر ، فقد أرادت تلك الفلسفة أن
تخلص الفكر من نير السلطات أيا كانت ، فلم تقبل دليلا على الحق
الا البداهة العقلية ، أى بداهة العقل الذى يراه الفيلسوف « أعدل
الأشياء قسمة بين الناس » وحظوظ الناس منه متساوية ، فلا فرق بين
شعب وشعب ، ولا تفاضل بين جنس وجنس .

● سيرة ديكارت من خلال مؤلفاته

كانت حياة الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت ، حياة جوانيه فى
صميمها ، أعنى أن للروح فيها المقام الأول ، قضى الفيلسوف شبابه منقبا
عن الموضوعات العقلية ، جادا فى درسها ، متعقبا المشكلات العلمية ، دأبا
على حلها . وأنفق أخصب سنى حياته فى مختلف أنحاء هولندا ، طالبا
ملاذا مأمونا يستطيع فيه أن يفكر وأن يعمل فى خلوة وهدوء . وانتهى
به الأمر الى أن جازف بتلك الخلوة نفسها ، بل بحياته كلها ، حين قصد
الى السويد اجابة لالاحاح ملكة تريد أن تخفف من أعباء الحكم بالوقوف
على شئ من مبادئ الفلسفة .

واذا كانت سيرة ديكارت قد تظهرنا على شخصية الفيلسوف ، فهى
لا تطمع فى أن تفسر لنا عبقريته ومواهبه التى هيأته لأن يكون بطل
الفكر الذى عرفه التاريخ الحديث .

ولد « رينيه ديكارت » فى ٣١ مارس سنة ١٥١٦ فى قرية « لاهى »
بمقاطعة « التورين » فى فرنسا ، من أسرة صغار الأشراف ، وكان أبوه
مستشارا ببرلمان « رن » .

ويمكن أن نقسم حياة ديكارت الى ثلاث فترات هامة :

● الفترة الأولى :

فترة دراساته الأولى فى مدرسة «لافليش» حيث تتلمذ على اليسوعيين.
من سنة ١٦٠٤ الى سنة ١٦١٢ ، فدرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق
والرياضيات والميتافيزيقا .

● والفترة الثانية :

من سنة ١٦١٣ الى سنة ١٦٢٩ ، قضاها في السفر والارتحال . فقد قصد الى باريس سنة ١٦١٣ ، والتقى بالرياضي « ميدورج » ، كما التقى بالأب « مرسن » صديقه وزميله منذ عهد التلمذة . وواصل دراسة القانون والطب في جامعة « بواتييه » . وحصل على اجازات الحقوق من تلك الجامعة سنة ١٦١٦ . ثم سافر الى الدانمرك ، وقضى الشتاء في « نويبورج » ووقعت له حينذاك أزمة من أزمت الشك ، ولم تنجل الأزمة الا باكتشاف المبادئ المهمة كمنهجه ، في ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ . وقضى فترة حمس ونشوة عقلية ، ونذر لله نذرا أن يحج الى « نوتردام دولوريت » . والتحق بجيش دوق بافاريا في « أولم » وشاهد موقعة « الجبل الأبيض » سنة ١٦٢٠ . وفي السنة التالية دخل هولندا وقضى بعد ذلك سنوات في الارتحال والتنقل بين هولندا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا . وقام بفروض الحج الى « نوتردام دولوريت » .

● والفترة الثالثة :

فترة مقامه في هولندا وبقائه بها عشرين سنة (من سنة ١٦٢٩ الى سنة ١٦٤٩) . وفي تلك الفترة الخصبة كتب أهم مؤلفاته :

١ - كتب باللاتينية « قواعد لهداية العقل » سنة ١٦٢٩ وكان في ذهنه أن يحتوي الكتاب على ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه تركه دون أن يتمه . وقد نشر الكتاب بعد وفاته . ويرى « ميه » ان هذا الكتاب هو أعمق وأروع رسالة منطقية عرفت في الفلسفة في جميع عصورها . بلا استثناء .

٢ - وعكف ديكارت في هولندا على النظر الفلسفي الصرف ، ثم وجه اهتمامه الى دراسة علوم الطبيعة ، فحرر كتابا سماه فيما بعد « العالم » سنة ١٦٣١ . وقد أراد ديكارت في هذا الكتاب أن يبسط رأيه في كيفية نشوء العالم على مقتضى قوانين ميكانيكية صرفة فقد أراد أن يوفق بين الايمان بعقيدة الخلق ، وبين فكرة النشوء الحاصل وفقا للقوانين الطبيعية التي لا يستطاع بعد البرهنة عليها .

ولكن حادثا وقع في ٢٣ يونيه سنة ١٦٣٣ فكان له أثر في حياة ديكارت الفكرية . ذلك ان هيئة التفتيش حكمت على العالم الايطالي « جاليليو » بالمروق من الدين لقوله بدوران الأرض . وكان ديكارت نفسه يقول ذلك في كتابه « العالم » فلما بلغه نبأ الحكم على جاليليو خاف أن

ينشر الكتاب ، وكتب الى الأب « مرسن » بانه اذا كانت حركة الأرض باطلة ، فان جميع أصول فلسفته باطلة كذلك ، لان تلك الأصول تثبت الحركة الأرضية بما لا مجال فيه للابهام . وقال أيضا انه لا يستطيع أن يفصل تلك النظرية عن حركة الأرض عن أجزاء كتابه دون أن يتعرض مذهبه كله للخلل . ولكنه لما كان لا يريد أن يصدر عنه قول يمكن أن يوجد فيه ما يخالف الكنيسة ، فانه يفضل أن يكتفم ذلك القول على أن يظهر للناس في صورة شوهاة .

٣ - وفي سنة ١٦٣٧ نشر ديكارت بالفرنسية كتابه المشهور « مقال في المنهج » ، وهو مقدمة لثلاث رسائل هي « الآثار العلوية » و « البصرييات » و « الهندسة » أما « المقال في المنهج » فهو الرسالة الفلسفية الصرفة في ذلك المجموع ، بين فيها تاريخ أفكاره ، وأوضح عن الخصائص المهمة لمذهبه الجديد في نظرية المعرفة وفي الميتافيزيقا . أما الآثار العلوية والبصرييات فقد أعطى الفيلسوف فيهما مثلا أو نموذجا لطريقته في تفسير الطبيعة تفسيراً ميكانيكياً بحتاً . وفي رسالة « الهندسة » استكشف ديكارت الهندسة التحليلية التي ضم بها علم الجبر الى علم الهندسة ودرجهما تحت علم واحد .

٤ - وفي سنة ١٦٤١ نشر كتاب « التأملات في الفلسفة الأولى » والذي نحن بصدده وهو أبداع ما كتبه الفيلسوف في الميتافيزيقا بوجه عام وفي النفس الانسانية وفي الأدلة على وجود الله بوجه خاص .

٥ - وفي سنة ١٦٤٤ نشر كتاب « مبادئ الفلسفة » . وفي هذا الكتاب عرض مبسط للفلسفة الديكارتية يسهل للناس فهمها والامام بها . وقد قام الأب « بيكو » بترجمة الكتاب من اللاتينية الى الفرنسية وقد راجعه ديكارت وبعث الى بيكو رسالة هامة جعلها بمثابة المقدمة للترجمة الفرنسية أوضح فيها الخلاف بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة ، والميزات التي توجد في فلسفته وفضلها في تقدم المعارف البشرية تقدماً مطرداً غير محدود .

٦ - وكانت الأميرة اليزابيث قد طلبت الى ديكارت أن يكتب « رسالة في انفعالات النفس » فأجاب رغبته ، ونشر الرسالة بالفرنسية سنة ١٦٤٩ . ورسالة الانفعالات ، مضافا اليها رسائل الفيلسوف مع الأميرة تحتوى على أهم ما في مذهبه الأخلاقي .

وقد كانت « رسائل الانفعالات » آخر مؤلفات ديكارت . ودعته الملكة كريستين ملكة السويد ، للسفر الى استوكهولم ، ليلقنها بنفسه مبادئ

فلسفته ، ولكى يعلمها « السبيل الى الحياة السعيدة مع الله ومع الناس »
فقبل الدعوة بعد تردد منه والحاح من الملكة . وهناك مات فى ١١ فبراير
سنة ١٦٥٥ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة .

● تحليل التأملات فى الفلسفة الأولى

تعريف بالتأملات :

« التأملات فى الفلسفة الأولى » من زوائج المؤلفات الفرنسية على
الاطلاق ، وهى بلا ريب أهم أجزاء الفلسفة الديكارتية وأجدرها بالاعتبار .
ونظرة الى المسائل التى تناولتها والحقائق التى بينتها تقنعنا بأنها أوفى
ما ألف الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام ، وأبدع ما كتب فى النفس
البشرية ، ووجود الله بوجه خاص ، كما يشير الى ذلك النص الكامل
لعنوان الكتاب : « تأملات فى الفلسفة الأولى ، وفيها يبرهن على وجود الله
وخلود النفس » .

وقد نشر ديكارت « التأملات » سنة ١٦٤١ باللغة اللاتينية دون
الفرنسية ، وكان قصده من ذلك كما يحدثنا هو نفسه أن يقصر كتابه على
الخاصة دون العامة ، اذ انه قد التزم فى شرح المسائل الميتافيزيقية سبيلا
قل سالكوه ، وبعد عن الطريق المؤلف بعدا كبيرا .

وقد رأى ديكارت أن يقدم للتأملات برسالة اهداء الى « العمدة
والعلماء بكلية أصول الدين المقدسة بباريس يسألهم فيها أن يؤيدوا آراءه
ويبين لهم منهجه الجديد فى الفلسفة ، وسوف نذكر نص هذا الاهداء نظرا
لأهميته فى تحليل هذا الكتاب القيم :

« حضرات السادة :

يدفعنى الى تقديم هذا الكتاب اليكم سبب وجيه جدا ، ويقىنى انكم
ستجدون حين تقفون على القصد منه سببا وجيها كذلك لتشملوه برعايتكم .
ولهذا رأيت انى لا أستطيع أن أجد ما يشفع له عندكم خيرا من أن أبين
لكم قصدى فيه بيانا موجزا .

لقد كان رأيى دائما أن مسألتى الله والنفس أهم المسائل التى من
شأنها أن تبرهن بأدلة الفلسفة خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهوت : ذلك انه

وان كان يكفيننا نحن معشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الايمان بان هنالك الها وبأن النفس الانسانية لا تفنى بفناء الجسد ، فيقيني انه لا يبدو في الامكان أن تقدر على اقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان ، بل ربما بفضيلة من الفضائل الأخلاقية ، ان لم نثبت لهم أولا هذين الأمرين بالعقل الطبيعي . وحيث ان الغالب في هذه الحياة أن تثاب الفضيلة ، فإن أغلب الناس كانوا يؤثرون سبيل المنفعة على سبيل العدالة ، لو لم يردهم خوف الله أو توقع حياة أخرى . ومع أن من الحق اطلاقا أنه ينبغي أن نعتقد بوجود الله ، لان هذا هو ما جاءت به الكتب المقدسة ، وانه ينبغي من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة ، لانها جاءت من عند الله (وذلك لانه لما كان الايمان هبة من الله ، فان الموجود الذي يهبنا من فضله ما يعيننا على الاعتقاد بالأشياء الأخرى يستطيع أيضا أن يهب ذلك الفضل ليعيننا على الاعتقاد بوجوده هو) الا اننا لا نستطيع أن نعرض ذلك على الكافرين فانهم قد يتوهمون ان الاستدلال على هذا النحو وقوع في الغلط الذي يسميه المنطقة دورا .

وأنا أعلم انكم وجميع رجال الدين تذهبون الى أن وجود الله يمكن اثباته بالعقل الطبيعي . وتزيدون على ذلك انه يؤخذ من الكتب المقدسة ان معرفتنا له أوضح جدا من معرفتنا لكثير من الأشياء المخلوقة ، وأن هذه المعرفة بلغت من السهولة حدا يجعل غير الواقفين عليها مذنبين ، كما يبدو من أقوال « سفر الحكمة » في الاصحاح الثالث عشر ، اذ ورد فيه : « ان جهلهم لا يغتفر . لانه اذا كانت عقولهم قد أوغلت الى هذا الحد في معرفة أمور الدنيا ، فكيف امكن ألا تكون معرفتهم للرب الأكبر أيسر ؟ » وجاء في الاصحاح الأول من « رسالة بولس الى اهل رومية » انهم « لا عذر لهم » وجاء أيضا في الموضع نفسه قوله : « اذ معرفة الله ظاهرة فيهم » . فيبدو أننا قد أخبرنا بأن كل ما يمكن معرفته عن الله يمكن أن يبين بأدلة لا حاجة الى استنباطها من شيء غير أنفسنا وغير تدبرنا لعقولنا . من أجل هذا بدا لي انني لن أخالف واجب الفيلسوف اذا أنا بينت ها هنا كيف وبأي طريق نستطيع ان نعرف الله معرفة أيسر وأيقن من معرفتنا لأمر الدنيا ، دون أن نخرج عن دخيلة أنفسنا .

أما النفس فان كثيرين من أصحاب النظر قد اعتقدوا انه ليس من الميسور معرفة طبيعتها ، بل ان بعضهم قد اجترأ على القول بأن العقول الانسانية تقنعنا بانها تفنى بفناء الجسم ، وان العقيدة الدينية وحدها هي التي ترشدنا الى خلاف هذا الرأي ، غير أن « مجمع لتران » المنعقد برياسة البابا ليون العاشر ، وما قرره من ادانة هؤلاء ودعوته الفلاسفة

المسيحيين دعوة صريحة الى الرد على أقوالهم ، واستعمال أقصى ما تملك عقولهم من قوة لاثبات الحق كل هذا قد جرأني على محاولة ذلك في هذا الكتاب . على اننى لما كنت أعلم ان الحججة الكبرى التى يستند عليها كثير من الكفار فى رفضهم الاعتقاد بوجود الله وبتميز النفس البشرية عن البدن هى قولهم بأن أحدا لم يتوصل حتى الآن الى اثبات هذين الأمرين ، وانى وان كنت لا أرى رأيهم ، بل أرى خلافا لذلك أن أغلب الحجج التى أوردها كثير من فطاحل المفكرين عن هاتين المسألتين هى فى مرتبة البراهين اذا فهمت على الوجه الصحيح ، وانه يكاد يكون من المستحيل ايجاد حجج جديدة ، الا اننى أعتقد أنه لن يمكن أن يعمل فى الفلسفة شئ أنفع للبحث عن أحسن هذه الحجج وعرضها فى ترتيب واضح متين ، يكون من شأنه أن يظهرها بعد لجميع الناس براهين صحيحة .

وأقول أخيرا انه قد دعانى الى ذلك كثير من الناس ممن يعرفون انى زاولت منهجا لحل جميع ضروب الصعوبات فى العلوم ، وهو منهج ليس فى الحق بجديد اذ لا شئ أقدم من الحقيقة ولكنهم يعلمون انى قد أصبت بعض التوفيق حين اصطنعت فى مواطن أخرى . فبدا لى ان من واجبى أن أقوم بتجربته أيضا فى أمر خطير كهذا .

وقد بذلت قصارى ما فى وسعى للاحاطة فى هذا الكتاب بكل ما استطعت الاهتداء اليه عن طريق ذلك المنهج ، ولست أقصد انى جمعت هنا كل الحجج المختلفة التى يستطيع التدليل بها فى مثل هذا الموضوع الجليل ، فانى ما رأيت قط ضرورة لذلك ، اللهم الا حين لا يوجد بينها دليل يقينى واحد : ولكن اقتضت على أهمها وأولها ، على وجه يجعلنى أجرو على ايرادها مقنعا بانها بديهية جدا ويقينية جدا . وأقول فضلا عن هذا انها جاءت من القوة بحيث لا أظن ان الذهن الانسانى سيجد وسيلة يستطيع بها أن يكتشف خيرا منها ، لان أهمية الموضوع ومجد الله ، واليه مرجع هذا كله ، يضطررنى الى أن أتحدث هنا عن نفسى بشئ من الحرية أكثر مما جرت به عادتي .

غير انى مهما أجد فى حججى من يقين وبداهة ، لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن الناس جميعا قادرون على فهمهما ، ولكن كما أن فى الهندسة حججا كثيرة ، أوردها «أرشميدس» و «أبولونيوس» (١) و «بابوس» (٢)

(١) أبولونيوس : رياضى يونانى من مدرسة الاسكندرية . درس الرياضيات على خلفاء

أقليدس حوالى ٢٦٢ - ١٩٠ ق م .

(٢) بابوس : رياضى يونانى عاش فى الاسكندرية حوالى ٣٠٠ ق م .

وكثيرون غيرهم ، يسلم بها الناس كلهم ويرونها فى غاية اليقين والبداهة ، لانها لا تشتمل على شىء الا ومعرفته ميسورة جدا اذا نظر اليه على حدة ، ولان اللواحق فيها وثيقة الارتباط والاعتماد على السوابق ، ولكن زيادة طولها بعض الشىء وتطلبها استفراغ الذهن ، حال دون أن يحيط بها او يفهمها الا فئة قليلة من الناس ، فكذلك أنا وان كنت أرى ان الحجج التى أستخدمها هنا تعادل بل تفوق فى اليقين والبداهة براهين الهندسة . الا انى أخشى أن يستعصى فهمهما فهما كافيا على الكثيرين ، اما لان بها هى أيضا شيئا من الطول ولان بعضها يعتمد على بعض ، واما لانها تتطلب على الخصوص أذهانا قد تحررت من جميع الأوهام ، فتيسر لها بذلك أن تتخلص من مخالطة الحواس .

واذا أردنا كلمة الحق قلنا انه ليس فى الناس ممن هم أهل للنظر فى الميتافيزيقا بقدر ذوى الاستعداد للنظر فى الهندسة . ويبقى فوق هذا ان هناك فرقا ، وهو انه فى الهندسة ، لما كان كل واحد يعلم انه ما من شىء ييسر فيها الا وقد قام عليه برهان يقينى فان غير المتبحرين فيها يخطئون فى أغلب الأحيان بتأييدهم للبراهين الفاسدة ليوهموا الناس انهم قد فهموها أكثر مما يخطئون بتنفيذهم انبراهين الصحيحة . وليس الأمر كذلك فى الفلسفة ، اذ لما كان كل واحد يعتقد ان مسائلها كلها اشكالية ، فان قليلين من الناس يعكفون على طلب الحقيقة ، بل ان كثيرين يحبون أن يشتهروا بين الناس بانهم من أهل الأذهان الجبارة ، فتراهم ولا هم لهم الا المكابرة فى مناقضة أبين الحقائق وأجلاها .

أيها السادة :

مهما يكن فى الحجج التى أسوقها من قوة ، فلسست آمل ، نظرا لانتسابها الى الفلسفة أن يكون لها اثر كبير على الأذهان اذا لم تشملوها برعايتكم . ولما كان لجماعتكم من تقدير الناس كلهم حظ عظيم ، ولما كان لاسم « السربون » على علو المنزلة مما جعل الناس لا يقابلون أحكام أى جماعة أخرى ، بعد الجامع المقدسة ، بمثل الاحترام الذى يقابلون به أحكام جماعتكم لا فى مسائل العقيدة فحسب ، بل فى مسائل الفلسفة الانسانية أيضا ، ولما كان كل واحد يعتقد انه ليس فى الامكان أن نجد فى الناس أوفر منكم رصانة ومعرفة ولا أكثر فطانة ونزاهة فى الحكم على الأمور ، فلا شك عندى انكم اذا تعطفتم فشملمتم هذا الكتاب بعنايتكم ، وتفضلتم أولا بتصحيحه (لأننى لا أزعم انه خال من الغلط ويمنعنى من ذلك شعورى بقصورى بل بجهلى) ثم باضافة ما ينقصه اليه ، واتمام ما لم يتم منه ،

والتكريم بإيراد شرح أوفى اذا اقتضى الأمر ذلك ، أو تنبيهى على الأقل الى ما قد يكون فيه من عيوب حتى أعمل على اصلاحها ، وبعد أن تكون الحجج التى أثبت بها وجود الله واختلاف النفس الانسانية عن البدن قد بلغت من الوضوح والبدهة المرتبة التى اعتقد امكان بلوغها لكى تعد براهين محكمة ، وبعد أن تفضلوا بإقرارها وتأييدها ، وإعلان شهادتكم بصحتها وقيمتها - أقول انى لا أشك بعد ذلك فى أن كل ما وقع من قبل من غلط وزيف فى هاتين المسألتين سرعان ما يمحي من أذهان الناس .

وسوف يحمل الحق جميع العلماء وأولى الأسباب على قبول حكمكم والانضواء تحت لوائكم ، أما الكفار ، وهم فى العادة قوم يغلب كبرهم وصلفهم على علمهم وحصافتهم فسينزعون من نفوسهم روح المعارضة ، أو لعلمهم يدافعون هم أنفسهم عن تلك الحجج حين يرونها مقبولة لدى جميع أولى الألباب فى عداد البراهين ، مخافة أن يظهروا بانهم لا يفهمونها وسوف يتيسر لسائر الناس أن يتقبلوا هذه الشهادات الكثيرة . فلا يبقى شخص واحد يتجرا على الشك فى وجود الله وفى التمييز الواقعى الحقيقى بين نفس الانسان وبدنه .

فالحكم الآن لكم فيما نجنى من ثمرات هذا الاعتقاد متى توطدت اركانه - لكم أنتم الذين ترون الفوضى الناشئة من الشك فيه . ولكن لن يجعل بى فى هذا المقام أن أطيل الكلام فى التوصية بقضية الله وقضية الدين لدى من كانوا دائما أمتن دعائمها .

« ديكارت »



هكذا بين ديكارت لعلماء عصره أن منهجه الجديد فى الفلسفة ، على الرغم مما بينه وبين منهج « المدرسين » من اختلاف عميق ، يستطيع أن ينصر العقيدة والدين ببراهين قاطعة من شأنها أن تخرس السنة الملحدين ، ولكى يضمن أن يظفر كتابه بحسن القبول عند علماء اللاهوت المسيحيين ، أرسل الكتاب قبل طبعه الى صديقه الأب « مرسن » ليطلع عليه مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، أمثال « أرتو » و « جسندى » و « هوبز » و « كاتروس » و « بوردان » وغيرهم . وتلقى مرسن من هؤلاء العلماء طائفة من الاعتراضات التى أوردوها على الكتاب . وكتب ديكارت ردوده عليها وجمعت الاعتراضات والردود ، ونشرت فى ذيل الطبعة الثانية للكتاب سنة ١٦٤٢ .

هذا وقد ألف ديكارت كتابه هذا ليعرض على الخاصة مذهبه في الميتافيزيقا عرضا علميا منظما . ويلاحظ ان الفيلسوف كان يحيل من اراد الوقوف على جملة نظراته في الميتافيزيقيا الى هذا الكتاب وحده دون سائر كتبه . صحيح انه قد اورد بعض المسائل الميتافيزيقيا في القسم الرابع من كتاب « المقال في المنهج » ولكنه عرضها هناك عرضا سريعا ومسها مساهة رفيقا لم يكن يقصد فيه الى التعمق والاستقصاء . على أن هذا العرض نفسه لا يفهم حق الفهم الا بالرجوع الى التأملات . وصحيح كذلك أن الباب الأول من أبواب كتابه مبادئ الفلسفة يبحث في أصول المعرفة الانسانية ، وهو لهذا كان أدخل في بحوث الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى . لكن هذا الباب أيضا لا ييسر فهمه جيدا الا بعد قراءة كتاب التأملات . أما كتاب البحث عن الحقيقة فهو محاوراة نقدية بين أشخاص مختلفي الآراء . واذن فيجب على الباحث عن الميتافيزيقا الديكارتية أن يلمسها أولا في كتاب التأملات الذي هو المرجع الأول في هذا الباب .

❶ الفلسفة الأولى

والفلسفة عند ديكارت انما تبدأ بالميتافيزيقا ، أي الفلسفة الأولى ، والفلسفة عبارة عن دراسة الحكمة . والحكمة ليست هي التبصر في الأمور فمحسب ، وانما هي أيضا وعلى الخصوص معرفة كاملة لجميع ما يستطيع الانسان أن يعرفه لتدبير حياته ، وحفظ صحته ، واختراع جميع الفنون . ولكن هذه المعرفة الكاملة ليست في المعاني التي يجدها كل شخص في نفسه بدون تأمل ، ولا في المعارف المكتسبة من التجربة والمحادثة والقراءة ، انما هي المعرفة عن طريق العاقل والمبادئ الأولى التي يستنبط منها كل ما يستطاع معرفته . والمبادئ التي يتحدث عنها ديكارت هنا هي الميتافيزيقا عينها : فائنا اذا وضعنا الميتافيزيقا استطعنا أن نستنبط منها سائر ما عداها : « رأيت ان وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول ، واستنبطت منه المبادئ التالية : ان هناك الها هو خالق كل ما في العالم . ولما كان هو مصدر كل حقيقة . فانه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التي نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا . تلك هي المبادئ التي اصطنعها في الأشياء اللامادية أو

الميتافيزيقية ، ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادئ الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، أى ان هناك أجساما ممتدة طولا وعرضا وارتفاعا ، وان لها أشكالا وتتحرك على هيئات مختلفة » .

وكان « المدرسون » يعرفون الميتافيزيقا بما عرفها أرسطو حين قال انها « علم الوجود بما هو موجود » أى انها العلم بالخصائص الجوهرية للوجود . لكن هذا التصور المدرسى للميتافيزيقا لا يقبله ديكرت ، اذ ان المشكلة الكبرى عنده هى أن نتبين متى يسوغ لنا اثبات الوجود ، وبعبارة أخرى ان الميتافيزيقا الديكارتية انما تهتم بالذات التى تعرف والتى تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذى يمكن أن يعرف أو يكون موجودا .

واذا كان الامر كذلك فالميتافيزيقا عند ديكرت هى أشد العلوم يقينا ، وهى العلم الذى ينبغى أن نستيقن من نتائجه قبل أن نستيقن من نتائج العلوم الأخرى . والذى يضيف على الميتافيزيقا يقينها ليس هو طبيعة موضوعها ، بل الطريق الذى يسلكه الذهن فى طلبها . ونحن نقرأ فى كتاب « القواعد » : « ليس أمام الجنس البشرى طرق مفتوحة للمعرفة اليقينية سوى طريق الحدس البدهى والاستنباط الضرورى اللذين بينهما المنهج » .

والمنهج الذى يحدد ماهية الميتافيزيقا هو المنهج الذى وصل اليه الفيلسوف بملاحظة العمل الذهنى فى الرياضيات . فقد لاحظ ان فى الرياضيات استدلالات صحيحة لا نجدها فى غيرها ، وقرر أن من مرن ذهنه على عمليات الرياضيات أصبح أهلا للبحث عن الحقائق الأخرى . لان منهج الفكر واحد فى جميع الأمور .

اذن فالميتافيزيقا علم دقيق يمكن اثبات قضاياها بيقين رياضى .

● طريق التأملات الديكارتية

ولنلق الآن نظرة على الطريق الذى سلكه ديكرت فى تأملاته . .

فقد خصص تأمله الاول لنظر ميتافيزيقى مداره البحث فى الضرورة العقلية التى تقضى بانتهاج سبيل الشك ، باعتباره تمهيدا للفلسفة . ولكى نفهم منهجه فى ذلك يجب أن نتبين الاسباب التى جعلته يدعونا الى

أن تصطنع الاناة ، ونتوقف عن الحكم ، ونرفض التصديق بما يلقي إلينا من أقوال وآراء حتى ما كان منها شديد الرجحان ، فلا نسلم بأن شيئا من ذلك ما لم نتبين بالبدهة انه كذلك ، لأن بداهة العقل عند الفيلسوف هى معيار اليقين بمعنى انها هى العلامة المميزة للمعرفة الصحيحة المبرأة من الخطأ والزلل .

ويلخص فيلسوفنا تأملاته فيقول : « قدمت فى التأمل الأدلة ، الأسباب التى تجعل فى استطاعتنا أن نشك على العموم فى الأشياء جميعا ، وعلى الخصوص فى الأشياء المادية ، على الأقل ما دمنا لم يتيسر لنا من أسس أخرى فى العلوم سوى ما تيسر لنا حتى الآن . غير ان شكنا عاما كهذا ، ان لم يظهر نفعه أول الأمر ، له مع ذلك نفع عظيم جدا ، من حيث انه يخلصنا من ضروب الأحكام السابقة ، ويمهد لنا سبيلا ميسورا جدا لكى نألف التجرد عن الحواس ، وأخيرا من حيث انه يجعل من غير الممكن ، فى المستقبل أن نشك أبدا فى الأشياء التى قد نهتدى فيما بعد الى انها صحيحة » .

« وفى التأمل الثانى نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة فيفترض ان جميع الأشياء التى يقع له عن وجودها أدنى شك هى أشياء معدومة ، لكن يتبين ان من الممتنع اطلاقا حينئذ أن يكون هو نفسه غير موجود . وهذا أمر فيه كذلك نفع عظيم ، فانه بهذا الوجه يتيسر له أن يميز الأشياء التى تخصه ، أى التى تخص الطبيعة الذهنية ، من الأشياء التى تخص الجسم » .

« لكن قد يتوقع بعض القراء منى ان أورد فى ذلك الموضع أدلة لاثبات بقاء النفس . ومن أجل ذلك أرى لزاما على ها هنا أن أنبههم الى اننى حاولت ألا أكتب فى هذه الرسالة كلها شيئا الا ولدى عنه براهين دقيقة جدا . ولذلك وجدت نفسى مضطرا الى اتباع ترتيب شبيه بالترتيب الذى يصطنعه أصحاب الهندسة ، وهو تقديم جميع الأشياء التى نتوقف عليها القضية التى نبحث عنها قبل استنتاج أى شئ منها » .

« وأول وأهم ما يطلب للتحقق من معرفة بقاء النفس أن نكون عنها تصورا واضحا صريحا ومتميزا كل التميز عن جميع التصورات التى يمكن أن تكون لدينا عن الجسم ، وهذا ما صنعته فى ذلك الموضع . ويطلب فضلا عن ذلك أن نعرف أن جميع الأشياء التى نتصورها بوضوح وتميز صحيحة على نحو ما نتصورها ، وهذا ما لم أستطع اثباته قبل التأمل الرابع ويلزم أيضا أن يكون لدينا عن الطبيعة الجسمية تصور متميز ،

يقوم بعضه فى هذا التأمل الثانى ، وبعضه فى التأملين الخامس والسادس .

« ويلزم أخيرا أن نستخلص من ذلك كله أن الأشياء التى نتصور بوضوح ونميز أنها جواهر متباينة ، مثلما نتصور الذهن والجسم ، هى حقاً جواهر متميزة بعضها عن بعض فى واقع الأمر ، وهذا ما انتهيت إليه فى التأمل السادس ، ومما يؤيده أيضاً فى هذا التأمل نفسه أننا لا نتصورها إلا غير منقسمة ، ذلك أننا لا نستطيع أن نتصور نصف أى نفس كما نستطيع أن نتصور لأصغر جسم بين الأجسام ، وعلى هذا النحو نتبين أن طبيعتهما ليستا متباينتين فحسب بل هما متضادتان بوجه عام . ولم أزد على هذا القدر فى معالجة الموضوع فى هذا الكتاب . لأن ذلك ما يكفى لفهام الناس ، بدرجة من الوضوح لا بأس بها ، أن فساد الجسم يقتضى فناء النفس ، ولعل قلوبهم بالأمل فى حياة أخرى بعد الموت ، وكذلك لأن المقدمات التى يمكن أن نستنتج منها بقاء النفس تعتمد على شرح الفيزيقا بأسرها : أولاً لمعرفة أن جميع الجواهر على العموم ، أى جميع الأشياء التى لا يمكن أن توجد دون أن تكون مخلوقة لله ، غير قابلة للفساد بطبيعتها ، وانها لا يمكن أن تنقطع عن الوجود أبداً ، إلا اذا منع الله نفسه عونه عنها فأحالها الى العدم ، ثم للملاحظة ان الجسم على العموم جوهر ومن أجل ذلك أيضاً لا يفنى ، لكن الجسم الانسانى ، من حيث هو مختلف عن الأجسام الأخرى ، ليس مركباً إلا من أعضاء على هيئة معينة ومن أعراض أخرى تشابهها .

أما النفس الانسانية فليست كالجسم مؤلفة من أعراض ، ولكنها جوهر محض : فمنهما تتغير جميع أعراضها ، ومهما تكن مثلاً نتصور أشياء وتريد وتحس بأشياء أخرى . . الخ . . فلن تصير شيئاً آخر ، فى حين أن الجسم الانسانى يصير شيئاً آخر متى تغير شكل بعض أجزائه . ويلزم عن ذلك أن فناء الجسم الانسانى أمر ممكن ميسور ، أما ذهن الانسان أو نفسه فباقية بطبيعتها .

« وفى التأمل الثالث بينت ببعض الاسهاب فيما يلوح لى أهم دليل استخدمته لاثبات وجود الله . ولكنى لم أرد أن أستخدم فى هذا الموضع تشبيهات مشتقة من الأشياء الجسمية ، لكى أبعد أذهان القراء بقدر ما فى وسعنى عن استعمال الحواس والاتصال بها . ولذلك ربما بقيت هنالك مسائل كثيرة غامضة (أرجو أن أوضحها توضيحاً تاماً فى ردودى على الاعتراضات التى وجهت الى الكتاب منذ فرغت من تحريره) ، ومنها المسألة التى أوردها فيما يلى : كيف أن فكرة موجود كامل اطلاقاً - وهى

فكرة نَجدها فينا - تشمل قدرا من الحقيقة الموضوعية ، أى تشترك بالتصور فى قدر من درجات الوجود والكمال بحيث يلزم أن تصدر عن علة كاملة على الإطلاق ؟ وهذا ما أوضحته فى تلك الردود بإيراد التشبيه بآلة فى غاية البراعة والاتقان ترد فكرتها على ذهن صانع ما ، فانه كما ان ما لهذه الفكرة من اتقان موضوعى لا بد له من علة معينة اما أن تكون علم ذلك الصانع أو علم واحد غيره تلقى هو عنه تلك الفكرة ، فكذلك يمتنع بالنسبة الى فكرة الله ، التى هى فينا ، ألا يكون الله ذاته علة لها .

« وفى التأمل الرابع أقمت الدليل على أن جميع الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا هى كلها صحيحة ، كما أوضحته طبيعة الخطأ أو الباطل ، مما تلزم معرفته ضرورة لتوكيد الحقائق السابقة ، ولفهم الحقائق التى تتلوها فهما صحيحا . لكن ينبغى أن يلاحظ انى لا أنظر هنالك فى الخطيئة أى فى الخطأ الذى يقترب فى طلب الخير والشر ، بل الخطأ الذى يقع فى الحكم وتميز الحق من الباطل وليس قصدى أن أتكلم هنالك فى الأمور التى هى من شأن الايمان أو سلوك الانسان فى الحياة ، بل فى الأمور التى تتصل بالحقائق العقلية والتى يمكن معرفتها بمعونة النور الطبيعى وحده . »

ويتحدث ديكارت فى التأمل الخامس عن ماهية الأشياء المادية ، ثم يعود الى الحديث عن الله ووجوده . وهو يستند الى معيار البداهة ، فيرفض مرة أخرى أن يضيف على المادة من الخواص الا الامتداد ، أى خاصة الجسم فى أن يكون ممتدا . ولا يقبل الا الحركة فى المكان ، وينكر فى الوقت نفسه جميع « الصور الجوهرية » و « الصفات الخفية » وغيرها من الكائنات والمبادئ التى كان يتحدث عنها الفلاسفة « المدرسون » .

وينبغى ألا ننسى أن ديكارت عالم رياضى ، وان المثل الأولى للبداهة عنده هو البداهة الرياضية . فهو ينظر الى الفكرة الواضحة التى تكون فى أذهاننا عن الله ، فيجد ان شأنها كشأن فكرة المثلث . ومن ثم يعود الى البرهنة التى قام بها فى التأمل الثالث وينقلها الى هذا المستوى الفكرى الجديد ، منتهايا الى القول بأن القضيتين : « مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، و « الله موجود » هما قضيتان متعادلتان فى اليقين .

فى التأمل السادس من التأملات الديكارتية يبسط لنا النتائج العملية لما انتهى اليه . بعد أن بين ان النفس الانسانية مستقلة عن البدن ، قرر أنها مع ذلك متحدة به اتحادا وثيقا ، وان هذا الاتحاد أمر واقع تشهد به التجربة والمشاهدة ، وكل امرئ لابد متنبه الى انه يجمع فى ذاته بين

طبيعتين متباينتين ، جسمانية ونفسانية وهو أمر واقع لا سبيل الى المنازعة فيه .

ويختتم الفيلسوف تأملاته مبينا أن الأدلة على وجود عالم المادة والأجسام ليست من المتانة والوضوح بمنزلة الأدلة التي تؤدي الى معرفة النفس والى معرفة الله . ويقول ديكارت نفسه في تلخيص التأمل السادس ما يلي : « وانتهى في التأمل السادس بتمييز فعل الفهم من فعل الخيلة ، وأصف علامات هذا التمييز ، وفيه أبين ان نفس الانسان متميزة عن الجسم حقا ، وانها مع ذلك ملتزمة معه التثاما ومتحدة به اتحادا يجعلها وياه شيئا واحدا ، وفيه أبسط جميع ضروب الخطأ الناشئة من الحواس ، مبينا الوسائل لاجتنابها ، وأورد أخيرا جميع الأدلة التي يمكن أن يستنتج منها وجود المادية ، لا لاننى أرى لها فائدة كبيرة فى اثبات ما تثبته - أعنى ان العالم موجود وان الناس أجساما ، وما شابه ذلك من أشياء لم يشك فيها قط انسان ذو عقل سليم ، بل لان امعان النظر فيها يطلعنا على انها لم تبلغ من المتانة والبداهة مرتبة الأدلة التي توصلنا الى معرفة الله ومعرفة النفس . وبهذا الاعتبار تكون الأدلة الأخيرة أوثق وأبين ما يمكن أن يقع للذهن الانساني من معرفة .

« وهذا كل ما قصدت الى اثباته فى هذه التأملات الستة ، ومن أجل هذا أغفلت ها هنا مسائل أخرى كثيرة تكلمت عنها عرضا فى هذه الرسالة » .

● فصل التأملات الديكارتية على الانسانية

وهكذا . . يمكن أن يقال فى فلسفة ديكارت من خلال تأملاته ان روح تلك الفلسفة الجوانية ومنهجها فى التدرج من الشك الى اليقين ، قد بقى كلاهما هاديا للذهن الانساني على مدى العصور . ولعل من فضل ديكارت على الانسانية المفكرة أن أصبح واضحا للعيان ان المثل الأعلى للوجود الانساني لذاته ولمكانه فى العالم ، بحيث يرد جميع آرائه الى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع عن أن يقرر أو أن يعمل ما لم يكن معتمدا على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعا ، وبحيث يتحرى دائما عن المسوغ الأخير لمعارفه وأعماله . وهذا المعنى من معانى النظر الفلسفى هو المعنى

الذي ينبغي أن نحصر كل الحرص على اذاعته وتعميمه ، حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدي في المجتمع رسالتها الجليلة . ويسر كل متتبع لتطور الأفكار في المجتمع الحاضر ان يلاحظ ان مفهوم الفلسفة ورسالتها الحقيقية ، على نحو ما أراد لها ديكارت أن تكون ، قد برزا في أيامنا هذه بروزا لا يدع مجالا لغموض أو ابهام في أذهان المستنيرين .

فقد كان لديكارت أكبر الفضل في بناء صرح المذهب العقلي الحديث، حين وضع قاعدته المشهورة « يجب ألا أقبل شيئا قط على انه حق ما لم يتبين لي ببداهة العقل انه كذلك » ويجب ألا أحكم على الأشياء الا بما يتمثله ذهني بوضوح وتميز ينتفى معهما كل سبيل الى الشك . وقد قيل ان ما يسمى في الفلسفة باسم « الثورة الديكارتية » يتلخص في القاعدة التي تتطلب البداهة في كل معرفة وفي كل يقين . لانها انما تدعو الى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، ولا تقبل الا حكم العقل الذي لا يرى للحقيقة مقياسا الا البداهة والوضوح والجلال .

وكثيرون من مؤرخي الفكر الحديث رأوا في فلسفة ديكارت وتأملاته هذا الطابع العقلي الصريح الذي يجعل من ديكارت « أبا روحيا للثورة الفرنسية ، وفيلسوبا انتصرت بفلسفته قضية البحث الحر وتأييد بها سلطان العقل » .

وكان لفلسفة ديكارت وتأملاته أعظم الآثار في مختلف أنحاء العالم : ذاعت في انجلترا وألمانيا وهولندا وإيطاليا وفي غيرها من البلاد الأوروبية، ابان القرن الثامن عشر وتغلغل الفيلسوف في أبعد أصقاع الدنيا .

كذلك كان لتأملات ديكارت آثارا بعيدة المدى في التاريخ ، فقد كانت آراء الفيلسوف بمثابة ثورة فكرية هائلة ، بل كانت على التحقيق أكبر ثورة فلسفية عرفها الناس منذ أيام الفيلسوف اليوناني « سقراط » حتى عهد الفيلسوف الألماني « كانط » ، وكذلك المثالية « الكانطية الجديدة » عند « فشته » و « شوبنهاور » موافقتين لبداية المثالية الديكارتية ، وان كانتا قد اختلفتا عنها في النتائج الواقعية التي انتهت اليها ، ولقد رأى « شلنج » ان الطابع الذي يميز الفلسفة الحديثة هو الفصل بين « المتناهي » و « اللا متناهي » ، وان ديكارت قد عبر عن الثنائية تعبيرا علميا ، وما الفلسفة النقدية الا تحقيق تلك الفكرة التي بدأت بديكارت . ويبدو مفكرو الألمان اليوم ميالين الى قبول نظرية ديكارت في المعرفة ، وهم يجاون الفيلسوف الفرنسي ورون فيه مثال المفكر الصحيح العميق .

ومن أشهر من تأثروا في عصرنا هذا بفلسفة ديكارت الألماني « ادموند هوسرل » (٣) . وهو نفسه يعترف في مستهل كتابه : « تأملات ديكارتية » بأثر ديكارت عليه ويقول بصدد مذهبه في « الفينومينولوجيا » : « ربما صح أن نسمى هذا المذهب ديكارتية جديدة ، وإن كنا قد اضطررنا الى أن نطرح على التقريب كل ما للديكارتية من فحوى معروف . وذلك لاننا بسطنا بعض المسائل الديكارتية بسطا قائما بذاته » . ولا نزاع اليوم من أن فيلسوفنا كان مصدر الهام قوى لفلسفات الحرية التي ظهرت آثارها في الأجيال اللاحقة في الغرب والشرق على السواء .



وجملة القول أن رائد المذهب العقلي في العصر الحديث قد جعل من التفكير الواعي فريضة على كل واحد ، وآمن بأن الانسان انما خلق لوجود اسمه من وجوده في اطار الزمان والمكان ، وانه لا حياة لحضارة انسانية من غير ميتافيزيقا .

والناظر في تأملات ديكارت وفلسفته يتجلى له منها أمران نعتقه أن عصرنا هذا محتاج الى أن يتدبرهما وأن يطيل الوقوف عندهما : وهما الثقة بالله العليم الحكيم ، والثقة بالعقل البصير المستنير . فلسفة ديكارت هي فلسفة العقل الذي يفتح للانسان آفاق المعرفة والعلم ، ويغزو بنوره عالم السماء والأرض . فاذا أحسن المرء استعماله ، مع دوام الثقة بالله مبدع الكون ، استطاع أن يستخره لخدمة الانسانية واسعادها ، وحفظ صحتها ، وتوفير رخائها . وتوطيد دعائم السلام بين أفرادها وجماعاتها . ولعل أكبر رسالة يتلقاها عصرنا هذا من تأملات ديكارت هي ضرورة تبرير العلم بالميتافيزيقا لا انكارها والتهجم عليها .

ولو بحث « أبو الفلسفة الحديثة » بيننا اليوم لرأى انه ما زال رائدا . لذوى الأصالة من العلماء ، أعنى أولئك الذين لا ينكرون ماجاوز مقاييس الحس ، ويحرصون على أن يفكروا وفقا للعقل .



(٣) ادموند هوسرل : فيلسوف ألماني وضع أسس منهج الفينومينولوجيا (١٨٥٩ -



(٨) المبادئ

اسحق نيوتن

كتاب المبادئ

تأليف : اسحق نيوتن

١٦٨٧ م

أعظم انتاج فكري أنتجه الذهن البشري

● « نيوتن أعظم عباقرة العالم »

يعتبر اسحق نيوتن من أبرز شخصيات التاريخ ومن أعظم العلماء الذين قدموا للانسان خدمات تجل عن الوصف ، ولم تعرف البشرية قط عالما على ذلك القدر من الأهمية والعطاء . فانه أكثر العلماء تأثيرا في هذا الكون .

ان سيرة اسحق نيوتن يصعب ايجازها في سطور ، فقد كان بحرا عميقا من العسير سبر أغواره ويكفى لكى نتلمس عبقرية ذلك العالم الفذ أن ننصت الى ما قاله عنه العالم الأشهر آينشتاين : « ان كل ما عرف من العلوم الطبيعية النظرية مدين لنيوتن . . . وليس غير امتداد طبيعي لآرائه . . » .

اسحق نيوتن كبير عباقرة الانجليز ، لا بل أعظم عباقرة العالم على مر الأجيال . . ولد ضعيفا هزيعا لم يستكمل عدة أيام جنينا ، تضطرب

أنفاسه في صدره . في يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٦٤٢ م . وما أن وقعت
عينا القابلة عليه حتى قالت : « يا الهى انه من أصغر المواليد ، أستطيع ،
بدون مبالغة ، أن أضعه في كوز ماء » وقدرت له حياة يومه أو أقل من
ذلك ، ولكن القدر شاء لهذا الطفل أن يبقى (٧٥ عاما) طواها في تؤدة
وأناة . . . نشر خلالها أعلام المعرفة . . . وكلل مفرق العلم بغار النصر . .
نصر العلم على أسرار الطبيعة .

ودرج اسحق نيوتن على بساط الأيام يطويها من خلفه حتى أن بلغ
الرابعة فأودعته أمه حجر جدته ، وتخلت عنه لتعيش في كنف زوجها
الجديد . لقد مات زوجها الأول (والد اسحق نيوتن) ولم يكن الجنين قد
اكتمل نموه في الأحشاء . ورأت الجدة مخايل الذكاء على حفيدها ، فهو
الطفل الذى لا يفتأ في كل يوم يبتدع لها بآلاته الصغيرة . . . المطرقة
والمنشار . . ألوانا وأشكالا كثيرة مستطرفة لا تدرك سوى كيف كد الصبى
عقله فأوجدتها .

ويكبر اسحق نيوتن مع الأيام . . ويزداد ولوعه في ابتكار الآلات
الصغيرة والدقيقة كبرا . حتى انه استطاع صنع ساعة يدار عقرباها
بنقط من الماء تنحدر عليهما من وعاء مستقل كان يملأه كل صباح . وكان
ابان طولته شغوبا بالعلم ، حريصا عليه ، الا أنه حينما ذهب الى المدرسة
في الثانية عشرة من عمره لم يبد نجابة بادية الأمر ، وظل طالبا عاديا
الى أن استفز أهميته العقلية أحد الطلبة من زملائه الأشداء ، فقد سدد
اليه هذا الأخير ضربة بقبضة يده هوت به الى الأرض فأخذ الطلبة يتضحكون
عليه ، ويتندرون بضغفه ووهنه . وشحن الصبى عقله . . وانتصر على
خصمه انتصارا مبرما . . لا من حلبة المصارعة ، بل في ميدان العلم . .
وبرز اسمه منذ ذلك الوقت بين أقرانه وأصبح التلميذ النابغة في مدرسته
بدون منازع !

لكن صوت الأرض ظل يدوى في أذنيه . . تدعوه اليها ليقوم أمرها ،
ويحرث ويعزق أرضها ، ويحمل على كتفيه تبعات أبيه الراحل ، فهجر
الدراسة ولبى لها النداء ، ولكنه لم يدم على حالته تلك طويلا . فقد حرمت
عليه أمه مطالعة أى كتاب ، وطلبت منه الانصراف بكلية طاقته الى الأرض .
ان فتى مثل اسحق نيوتن لا يستطيع على هذا الأمر صبرا ، فأخذ يسترق
ساعات الزمن في خلسة . . بعيدا عن أعين الرقباء وينكب على كتيب
يتدارسه . . أو مسألة يعالج فك مغاليقها . وقبض عليه خاله في أحد
الأيام وهو ملق برأسه الى ورقة يحبرها بالأرقام والأعداد ، فوضع الخال
يده عليه ، وقال : انك يا اسحق أحد اثنين لا ثالث لهما عندي ، فاما أن

تكون مجنوناً أو عبقرياً فذا ، والله وحده أعلم بحقيقته الأمر ، ومن ثم خلى بينه وبين دراسته . فالتحق بكلية الأقاليم الثلاثة في كمبريدج عام ١٦٦٠ ، وبز اخوانه في الدرس والتحصيل وخاصة في الرياضيات حتى تخرج من الكلية .



وفي عام ١٦٦٩ استقال أستاذه في الرياضة « اسحاق بارو » ، وعين نيوتن خلفاً له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه في ترنتى أربعة وثلاثين عاماً . ولم يكن بالمعلم الناجح . كتب سكرتيه عن ذكريات ذلك العهد يقول : « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى انه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين » . وفي بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين إطلاقاً فيعود الى حجرته كاسف البال . وبني فيها مختبراً — كان الوحيد في كمبردج آنئذ . وقام بالكثير من التجارب ، لاسيما في الخيمياء (١) « وهدفه الأكبر تحويل المعادن » ولكنه اهتم ايضاً بـ « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة » ، وواصل دراساته الخيمائية من عام ١٦٦١ الى ١٦٩٢ وحتى وهو يكتب كتابه المبادئ ، وكان أعضاء الجمعية الملكية متشغولين شغلاً محموماً بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب . ولم يكن هدف نيوتن تجارياً بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن يفسر بها العناصر على انها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة . ولا سبيل لنا الى التأكد من انه كان مخطئاً .

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشى فيها فترات قصيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبة ليسجلها . كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيراً (في رواية سكرتيه) « حتى انتخاله . . . واحداً من جماعة أرسطو » المشائين (٢) . وكان مقلاً في الطعام ، وكثيراً ما فوت وجبة ، ونسى انه فوتها ، وكان ضئيلاً بالوقت الذي لا بد من انفاقه في الأكل والنوم . « ونادراً ما ذهب لتناول الطعام

(١) الخيمياء : كيمياء قديمه . ازدهرت في العرون الوسطى غايتها تحويل المعادن الحسيسة الى ذهب واكتشاف علاج عام لجميع الامراض ووسيلة تعرف باكسير الحياة لاطالة العمر الى ما لا نهاية .

(٢) المشاءون : أتباع أرسطو وتلاميذه . أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يمشون في ممرات اللوقيون الذي اتخذوه أرسطو مدرسة . أشهرهم نوافراسطوس واستراتون .

فى القاعة . فاذا فعل فانه - ما لم ينبه - يذهب فى هيئة زرية . حذاؤمه .
بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط . . . ورأسه غير ممسط الا فيما ندر ! ،
وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه . ويؤكد المؤرخون .
انه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى
ثيابه وقد استغرقه الفكر . وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة .
أخرى ، ويخط أفكارا على عجل ، وينسى أصحابه تماما .

● مجالات عبقريته

لقد كان نيوتن راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس
الثلاثين بكمبريدج . وقد وضع « قواعد للتفلسف » - اعنى للطريقة والبحث
العلميين . ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كبادئ
قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال . وحين قال نيوتن .
« أنا لا أخترع فروضا » كان يعنى انه لا يقدم نظريات حول أى شئ
يتجاوز ملاحظة الظواهر . فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية .
بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها . ولم يزعم انه يتجنب
الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص
لاختبار مئات الافكار والامكانات . وسجله يزخر بالفروض التى جربت
ثم رفضت . كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق
من الوقائع ويفضى الى المبادئ . وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة
للمشكلة ، ويتنبط منضماتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب
والتجربة . وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن
فى هذا - البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر
الأخرى من هذه القوى » . لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن
يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا .

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا . ان لشهرة نيوتن بورتين : حساب
التفاضل ، والجاذبية . بدأ عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد
مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى . ولم يسم طريقته
حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions وفسر هذا المصطاح
تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خير منه .

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها
الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحريك الخطوط ،

والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا في غير ذلك من الكميات . وعلى ذلك فيما إن الكميات ، التي تزداد من أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التي تزداد أو تولد بها ، فأننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التي تولد بها ، وإذا أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق » والكميات المولدة « المتغيرات » . فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق فى عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ ، .

ولعله استخدم هذه الطريقة فى التوصل الى بعض النتائج المتضمنة فى كتابه « المبادئ » عام ١٦٨٧ ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه . وقد أسهم ببيان لطريقته فى الفروق - ولكن دون أن يخفى اسمه - فى كتاب « الجبر » عام ١٦٩٣ . وكان فى طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التي أوحى بها . وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التي خلص اليها . ولو انه صاغها على الأرجح فى ١٦٦٥ .



على أن الرياضه ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهي لم تزعم انها تفقه الحقيقة أو تصفها . فلما تحول نيوتن من الأداة الى البحث الجوهري ، عكف أولا على استكناه سر الضوء . وتناولت محاضراته الأولى فى كمبردج الضوء واللون والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة فى عام ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر .

وكان قد توصل عام ١٦٦٦ الى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات وهو ان الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيل ، والبنفسجى . وجميع مناقشاته حول الضوء فى كتابه « البصريات Opticks » فى عام ١٧٠٤ .

● أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن . شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته ان شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد

الجاذبية الى مدار القمر ٠٠٠ بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر في مداره ، وقوة الجاذبية على سطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا ٠٠٠ في تلك السنين كنت في ربيع عمرى » .

وفي عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعاد نيوتن الى موطنه وولز ثورب طالبا للسلامة . وهنا نلتقى بقصة لطيفة . كتب فولتير في كتابه « فلسفة نيوتن » :

« ذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا في الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق في تفكير عميق في السبب الذي يجذب جميع الأجسام في خط اذا مر قريبا جدا من مركز الأرض » .

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة . وهي لا ترد في كتب مترجمي نيوتن القدامى ، ولا في روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة انها أسطورة . وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهي ان غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها » ومما لا ريب فيه انه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التي تحفظ الكواكب في أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس . ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاصها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الأعوام الثمانية عشرة التالية .

وقد كتب هو نفسه في كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغناطيسية للأرض تعم منطقة القمر ، وكلتاها تتجاوب وتتألف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض اكبر نتيجة لكبر كتلتها » .



كتاب المبادئ، Principia

وقد فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) (٣) علقوا أهمية عظيمة على علم الميكانيكا في بحثهم في الأشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد أن نجوا أشكال المادة (التي قال بها السكولاستيون) (٤) والصفات الغيبية، حاولوا إخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقد طورت الرياضة في هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ٠٠٠ وعليه فانا نقدم هذا المؤلف على انه المبادئ الرياضية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هي في بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الأخرى من هذه القوى » .

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية ، لأن مبررات كثيرة تحملنى على الظن بأنها ربما كانت كلها تتوقف على قوى معينة تدفع بواسطتها جزئيات الأجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضها نحو البعض ، وتتماسك في أشكال منتظمة ، أو تصد وتراجع بعضها عن البعض ، وإذا كانت هذه مجهولة ، فقد حاول الفلاسفة الى الآن البحث في الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادئ الموضوعه هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة » .

وبعد أن وضع نيوتن بعض التعاريف والابديهيات ، صاغ ثلاثة قوانين للحركة :

- ١ - كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه .
- ٢ - تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحركة الواقعة ، ويتم في اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة .

(٣) بابوس : رياضى يونانى (حوالى ٣٠٠) عاش في الاسكندرية . كان لمؤلفه (مجموعة الهندسة) عاملا في نهضة الهندسة في القرن ١٧ .

(٤) السكولاستيون : الفلسفة المدرسية ، فلسفة المدرسين : وهى الفلسفة التى كانت سائدة في القرون الوسطى .

٣ - كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له .

أما وقد تسليح نيوتن بهذه القوانين ، وبقانون التربيع العكسي فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية . وصورة المبدأ الحالية ، وهى ان كل جزيء من المادة يجذب كل جزيء بقوة تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسباً عكسياً مع مربع البعد بينهما ، هذا الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادئ ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى : « ان الجاذبية ... تعمل ... حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ... متناقصة أبداً بما يتناسب مع المربع العكسي للمسافات » . وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التى استنتجها كبلر (٥) . وزعم ان الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة، وتحفظ فى مداراتها ، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسباً عكسياً مع مربع أبعادها عن مركز الشمس ، وفسر جذب المشتري لتوابعه ، والأرض والقمر . وبين أن نظرية ديكرات فى الدوامات باعتبارها الشكل الأول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر . وحسب كتلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء .

(والرقم الحالى ٥٥٥) . وعلل رياضياً تفرطح الأرض عند القطبين. وعزا انبعاجهما عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمر الموحد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمري - الشمسي فسر مبادرة نقطتي الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهذا أيد نبوءة هالى (٦) . وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لانه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخر . ولكن فى هذا الحشد المعقد من الأجرام السماوية رشح نيوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض . ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة .



(٥) كبلر : يوهانس كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) فلكى المانى نشر قوانينه عن المجموعة الشمسية .

(٦) هالى : عالم فلك انجليزى أسهم اسهاماً بارزاً فى دراسة القمر والزهرة وحركة النجوم . كان أول من وضع جدولاً بنجوم نصف الكرة السماوية الجنوبي (١٦٧٩) . وكان أيضاً أول من تنبأ بعودة المذنبات . واليه ينسب « مذنب هالى » .

وقد نفذت الطبعة الأولى من كتاب « المبادئ » سريعا ، ولكن لم تظهر طبعة ثانية الا فى عام ١٧١٣ . وعزت نسخة حتى ان عالما نسخ الكتاب كله بيده . واعترف القراء بانه عمل فكرى من أرفع طراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدلت صفو الثناء عليه . فرفضت فرنسا النظام النيوتونى ، الى أن عرضه فولتير فى سنة ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيل . واعترض كاسينى وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالوا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الأجرام السماوية ، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله . وقال ليبنتز (٧) بانه ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلاف فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على انها شىء أكثر من مجرد كلمة .

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى فى انجلترا ، وزعم فولتير ان المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما . وبينما شكك النقاد فى فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافى ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترا فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلي (٨) فى كتابه « مبادئ المعرفة الانسانية » عام (١٧١٠) لان نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية . فالميكانيكية تطفى على النظام النيوتونى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله .

فلما وافق نيوتن على أن يعد طبعة ثانية للكتاب ، حاول أن يهدى من ثائرة نقاده ، فأكد انه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وانه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم انه لن يحاول وصفه ثم اعترف بصراحة انه لا يفقه طبيعة الجاذبية . وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانية كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى انه « لا يضع فرضا » وأنه « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العامل مادي أو غير مادي » .

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه . فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطة الهية ، فالآلة

(٧) ليبنتز : جو كفريت فيلهام لبنتز : (١٦٤٦ - ١٧١٦) فيلسوف ألماني

معقولة الكون وارتباطه بالله .

(٨) باركلي : فيلسوف ايرلندي (١٦٨٥ - ١٧٥٣) .

الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لابد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسى شذوذات فى المسلك يصححها تعالى دوريا كلما ظهرت . ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن ان آلة العالم تفقد بعض طاقاتها بمرضى الوقت ، وستفقد كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها قوتها . واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه » . وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، أو تفسر بمعنى ميكانيكى .

قال :

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الأجسام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزئيات الأجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاوزت ، وتعمل الأجسام الكهربائية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزئيات المجاورة ، ويرسل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويشنى ، ويسخن الأجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بأمر الارادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، مبنوثة بالتبادل على خيوط الأعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجية الى المخ ، ومن المخ الى العضلات . على ان هذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التجارب التى تتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقا لها هذه الروح الكهربائية المرنة » .

ترى ماذا كان ايمان نيوتن الحقيقى ؟ لقد تطلبت أستاذه فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخدمات الكنسية الانجليكانية . أما صلواته الخاصة فيقول فيها سكرتيه : « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمة من النصيب الأفضل » . ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون . وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله : « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين » . وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية .

وقادته دراساته الى نتائج أشبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها ان المسيح وان كان ابن الله الا انه ليس ساديا لله الأب فى الزمن أو القوة . وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما ، ويبدو انه آمن بكل كلمة من كلمات الكتاب المقدس على انها كلمة الله .



● الكتاب الذى أجلى غوامض الكون للبشرية

هذا وقد بلغ صيت نيوتن الذرى ، فقدر ليبنتز أن كتاب «المبادئ» يعدل فى قيمته كل المؤلفات السابقة . وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وأندر عبقرى ظهر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه » ووافقه فولتير فى تواضع . ووصف لجرانج كتاب « المبادئ » بأنه « أعظم انتاج أنتجه الذهن البشرى » . وضمن له لابلاس الى الأبد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ . ومثل هذه الأحكام لا ثبات لها لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تدبل كالزهرة .

ويرى ميشيل هارت أن من يرجع الى الموسوعة العلمية يجد بأن للعالم الكبير نيوتن من المراجع ما يعادل ثلاثة أضعاف أية مراجع تخص العلماء الآخرين . كما أن من الضرورى عند النظر فى قوانين نيوتن واكتشافاته الرجوع الى ما قاله علماء عصره عنه . . لقد كان بحق العبقرى الذى فاق حدود زمنه والرجل الأكثر أهمية فى اصفاء صفحات من التقدم والحضارة على تاريخ الانسانية .

ولو اننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشار تأثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسى الأديان السماوية . لقد كان تأثيره على الرياضبة الانجليزية - حينا - تأثيرا ضارا ، لأن « فروقه وتنويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القارة . . ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن . أما فى الميكانيكا فقد أثبت عمله انه خلاق الى غير حدود . كتب أرنست ماخ (٩) يقول : « ان كل ما أنجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطورا استنتاجيا ، شكليا ، رياضيا . . . على أساس قوانين نيوتن » .

وقد خشى اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب « المبادئ » على

(٩) أرنست ماخ : (١٨٣٨ - ١٩١٦) . فيلسوف وفيزيقي نمساوى . كانت له بحوث هامة فى نظرية النسبية والرياضيات ، وعلم وظائف الأعضاء .

الدين ، ولكن محاضرات بويل (١٠) التى ألقاها: بنتلى عام ١٦٦٢ ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تأييد الايمان ، لانها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله .

لقد كشف نيوتن فى كتابه الخالد « المبادئ » عن هذه القوة الخالدة على هذا الكون الكبير ، الذى تفصل بين نجومه وسدمه ومجراته مسافات لا يدركها العقل ، بشريا كان أو الكترونيا . مسافات مذهلة تقدر بملايين السنين الضوئية . ولكن رغم البون الشاسع . تبقى الجاذبية المقدسة رباطا للكون ، ويبقى الايمان بالخالق العظيم تفسيرا حكيما لهذا الرباط المقدس الأزلى .

من أجل هذا لم يكن يوم ٢٠ مارس سنة ١٧٢٧ يوم نهاية نيوتن على هذه الأرض ولكنه كان بدء دخوله فى رحاب الخالدين ، فقد عبر البابا ألكسندر عن ذلك بأسطر من الشعر قال فيها : « كانت الطبيعة وقوانينها مختبئة فى الظلام . فقال الخالق : فليكن نيوتن . فاذا بالطبيعة وقوانينها تخرج من الظلام الى النور ! » .

وهكذا يتضح مدى ما كان لكتاب « المبادئ » لنيوتن من تأثير فى العقل البشرى ، فقد خلص الانسان من كثير من دواعى الحيرة التى تنتابه كلما فكر فى أسرار الطبيعة المعقدة والغاز الوجود المبهمة ، اذ علمه أن فى هذا الكون قانونا ونظاما تسير وفقهما الأشياء والأفلاك .



(١٠) بويل : روبرت بويل (١٦٢٧ - ١٦٩١) كيميائى بريطانى أول من ميز العناصر والمركبات ، وقانون بويل مؤداه أنه اذا تساوت درجة الحرارة فان تناقص حجم الغاز المضغوط يناسب مع اذتياد الضغط .



(٩) رواج القوانين

مونتسيكير

روح القوانين
تأليف
مونتسكيو عام ١٧٤٨ م

أكثر الآثار العلمية تشكيلا للفكر الاجتماعى
والسياسى فى العصور الحديثة

لقد كان كثير من النقاد يعدون كتاب « روح القوانين » أعظم المؤلفات التى قادت الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى من القرن الثامن عشر وحتى الآن . وكان مونتسكيو جد فخور بكتابه هذا الذى كان يمثل ثمرة أبحاثه طيلة حياته ولذلك حرص على تصديره فى طبعته الأولى بالمثل اللاتينى المشهور "Prolemsine matre creatam" « طفل مولود بلا أم » . ولقد شرح مونتسكيو ما يقصده من ذلك فقال ان كتابا يؤلف عن القوانين وروحها يجب ألا يظهر الا فى دولة تتمتع بالحرية الحقة ، فالحرية التى تسود بلدا من البلاد هى شرط أساسى لصدور مثل هذا الكتاب اذ هى بمثابة الأم التى تؤدى الى نشأة هذه المؤلفات ورعايتها ، ولكن كتاب روح القوانين « بلا أم لانه ألف فى فرنسا التى لا تتمتع - فيما يرى المؤلف بأية حرية . ولكن لفيما من النقاد يعتقد ان مونتسكيو أراد بكتابه هذا

المثل الفخر بكتابه ، اذ أراد من ذلك انه لم يترسم فيه خطى أى مفكر أو فيلسوف سابق عليه .

ويندر أن تجد مؤلفا يمثل ثمرة حياة علمية بأكملها مثل كتاب روح القوانين الذى يمثل حقا بالنسبة لصاحبه كتاب العمر . حقا أن مونتسكيو قد ألف مؤلفات لا حصر لها قبل تأليفه روح القوانين ، ومن بينها مؤلفات شهيرة اقترن بها اسم مؤلفه مثل « رسائل فارسية » و « ملحوظات عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » وخطبة الافتتاحية فى برلمان بوردو ورواياته وقصصه الى آخر كل ذلك ، ولكن كل تلك المؤلفات كانت مقدمة لذلك السفر الكبير الذى أزمع تأليفه والذى سلخ فى كتابته أربعة عشر عاما أو من سنة ١٧٣٤ حتى سنة ١٧٤٨ . وتقول فى هذا الشأن مدام دى لامبير التى كانت صاحبة منتدى أدبى مشهور فى القرن الثانى لحماية الأدباء والعلماء والمفكرين وتشجيعهم والتى كانت بمثابة أم روحية لمونتسكيو ، ان مونتسكيو لم يفعل بمؤلفاته السابقة على روح القوانين أكثر « من افساح الطريق أمام مشروع كان من شأنه أن يخلد اسمه ويرفعه «بجلا على ممر القرون المستقبلية » .

ولما كان كتاب روح القوانين يدور - كما سنرى - حول القوانين والعادات والتقاليد التى تسود المجتمعات المختلفة ، ولما كان مونتسكيو يعلم تمام العلم أنه بهذا الكتاب يقوم بفتح جديد فى باب الدراسات الاجتماعية والسياسية والقانونية فانه لم يقتصر على قراءة المؤلفات القديمة والحديثة التى رأى فيها فائدة لموضوع كتابه الكبير ، بل رأى أن يتبع ذلك بزيارات يقوم بها للمجتمعات الأدبية المختلفة حتى يرى التباين بين طبائع المجتمعات المختلفة رؤيا العين ويلمسه « على الطبيعة » فزار النمسا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، حتى يكون على بينة فى كتابة مؤلفه .

واذا كانت مؤلفات أى مؤلف تعكس فى ناحية من نواحيها على الأقل الظروف الاجتماعية والسياسية ، بل والعائلية التى كانت تكتنف حياة صاحبها ، فان « روح القوانين » يعد أصدق مرآة للظروف التى كانت تحيط بصاحبه فى حياته العائلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولهذا سنبدأ موضوعنا بملخص لحياة مونتسكيو ثم ننتقل بعد ذلك الى تحليل كتاب روح القوانين . وأخيرا سنعرض للأثر الكبير الذى تركه هذا المؤلف الضخم وآراء العلماء فيه .

● حياة مونتسكيو ومؤلفاته

ولد شارل دى سيكوندا بارون دى لا بريد ودى مونتسكيو ، فى « لا بريد » بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتاني الفرنسية فى ١٨ يناير

١٦٨٩ ، وينتمي لأسرة ذات تاريخ طويل في خدمة البلاط الفرنسي ولقد ورث لقب البارونية عن جد له ، اذ كانت التقاليد تقضى بإطلاق هذا اللقب وغيره من الألقاب الأخرى كالامارة والدوقية على جزيرة أو مقاطعة أو مدينة أو قرية أو اقطاعية ، كما ورث عن أجداده لقب الرئيس القضائي لبرلمان جين ، ذلك ان فرنسا طوال العصور الوسطى وحتى قيام ثورتها المشهورة كانت مقسمة الى مقاطعات ، لكل منها برلمان له اختصاصات تشريعية وقضائية ، وكان للبرلمان رئيس أعلى يتلوه في الترتيب رئيس «ذو قلنسوة» وهو شعار للرأس كان يلبسه القضاة أثناء تأدية وظيفتهم كما كان يلبسه كبار الموظفين . وكانت وطنية الرئيس ذي القلنسوة تورث ، شأنها في ذلك شأن كثير من الوظائف التي تباع وتشترى وتورث وتوهب مثلها في ذلك كمثل الأموال العقارية والمنقولة ، وقد دافع مونتسكيو عن بيع المناصب باعتباره « عملا حسنا في الدولة الملكية ، لانه يجعل من واجب أبناء الأسرات العريقة ان ينهضوا بالمهام التي قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها » . وقد ورث مونتسكيو هذا الاسم عن عمه جان باتست الذي كان قد ورثه بدوره عن جد مونتسكيو . وتربى مونتسكيو في مدرسة كان يشرف عليها جماعة تسمى جماعة الخطابين وهي جماعة ذات نزعات متحررة تجديدية ، تعنى أشد العناية بتدريس أصول الخطابة والبلاغة والتاريخ . ومن هنا نفهم سر ولع مونتسكيو بالتاريخ . وقد حصل بعد دراساته الابتدائية والثانوية على ليسانس في القانون من جامعة بوردو ثم ذهب الى باريس ليمرن على مهنة المحاماة ، وهناك اتصل بالأوساط والمنتديات العلمية وسيدات المجتمع الرفيع مثل مدام دي لامبير ، ثم فنتيل والأب سان بيير وقرأ « رحلة ساردان » في بلاد الفرس ثم « ألف ليلة وليلة » وهو الكتاب الذي ترجمه جالان .

وكان غرام مونتسكيو في الفترة السابقة على تأليف « الرسائل الفارسية » بالعلوم والرياضيات لا يعرف حدودا لاسيما بعد أن انضم لأكاديمية بورديو عام ١٧١٦ حيث حمل على تقييد حرية الفكر والبحث وإبداء الرأي وفعلا أنشأ معملا بالأكاديمية وبدأ يجرى تجارب على الحيوانات بغية هدم نظرية الحيوانات الآلية التي سادت القرن السابع عشر وهي النظرية التي كانت تذهب الى أن الحيوانات لا نفوس لها وانها مجرد آلات متقنة الصنع فلا تتألم ولا تشعر كالانسان .

على أنه كان معجبا بالقرن السابع عشر بحسبانه قرن العلوم قبل أن يكون قرن الآداب ، اذ كان يرى فيه قرن جاليليو وتورشلي وديكارت (العالم لا الفيلسوف) وباسكال (العالم لا الأديب) وهويخبز ونيوتن ، لا فرن كورتى ورأسين وموليير الأدباء . ولقد أفاد مونتسكيو عن دراسة

العلوم والتجارب العلمية اذ ردت اليه ايمانه بالله بعد ان كان يعتقد أن الدين وهم وخيال في خطاب صدر منه عام ١٧١٦ عن سياسة الرومان ازاء الدين ، ويقول في هذا المقام : « ان العجب يملأ الفيلسوف كما تملأه عظمة الله عندما يدرك كيف تعمل عضلة واحدة من العضلات » ثم يشير الى القدرة الجبارة التي تنظم عمل الجسم وما به من شرايين وأورده وأعصاب وغدد ٠٠٠ فالدراسات التشريحية التي أجراها مونتيسكيو قد لعبت أكبر دور - فيما يرى النقاد - في تشكيل الفكر الديني عند مونتيسكيو .

ولقد لجأ مونتيسكيو للدراسات العلمية والتشريحية ليفهم أسس السلوك التي تنبنى عليها العبادات والتقاليد وهي التي سيستعين بها على تفسير كثير من الظواهر التي تعرض لها في كتابه الكبير « روح القوانين » وكتابته عن « الرسائل الفارسية » سنة ١٧٢١ كان دراسة للعادات والتقاليد الشرقية ومقارنتها بالتقاليد الغربية وكان هو الآخر بمثابة مقدمة للكتاب الذي كان يزمع تأليفه ، اذ ألف في نفس الفترة كتاب ملحوظات عن الثروة وأسبابها . وهو فيما يرى كثير من النقاد « الأصل البعيد » لروح القوانين .

وفي عام ١٧٢٥ خطب وهو رئيس لبرلمان بوردو خطبة افتتاحية كان لها أثر كبير في الأوساط القانونية والسياسية ، اذ حمل على الاتجار بالمناصب القضائية وعلى جهل القضاة ، وعدم نزاهتهم وطالب بسن قانون واضح عام لفرنسا يطبق على الناس جميعا بلا تفرقة حتى يطمئن المتقاضون . ذلك ان فرنسا في تلك الفترة لم يكن يسودها قانون عام شامل بل كان القاضي في كل منطقة يحكم حسب عادات وتقاليد في شيء كبير من حرية التقدير مما أدى الى فساد العدالة ، كما كانت هذه العادات والأعراف مختلفة من مكان لآخر وترجع الى أصول متباينة ، ونقد مونتيسكيو في خطبته بطء القضاء وتأخير البت في القضايا « من حفيد الى حفيد حتى يقضى على آخر فرد في أسرة تعسة » . وكان لهذه الآراء النقدية وأمثالها مما كانت تطفح به كلمات مونتيسكيو سواء في خطبته البرلمانية أو في أحكامه أثر جبار في توجيه أذهان العلماء والمفكرين الى اصلاح القضاء الفرنسي ، حتى أن برلمان بوردو مكث عدة سنوات يفتتح جلساته بقراءة خطبة الافتتاح التي ألقاها مونتيسكيو سنة ١٧٢٥ . وكل ما تم من اصلاحات قضائية ومن صدور قانون نابليون الفرنسي بعد ثورة ١٧٨٩ كان من بين الأفكار الجديدة التي نادى بها مونتيسكيو .

ومما يذكر ان مونتيسكيو كان على اتصال وثيق بالعلماء والأدباء المعاصرين له سواء في فرنسا أو في الدول الأخرى من أمثال ريامير

وديدرو (١) وفولتير وميران وبيل ومويرنوى ، كما أصبح صديقا حميما للفيلسوف المشهور هلفسيوس (٢) وفنتيل ونشأت صداقات بينه وبين الفيلسوف السياسى بفندورة أثناء زيارته لألمانيا عام ١٧٢٩ ، كما اتصل بهيوم و ولاس و لوق و نيوتن أثناء زيارته لانجلترا عام ١٧٢٩ .

● الكتاب

لقد رجع مونتسكيو فى تأليفه لهذا الكتاب الى جانب مشاهداته ومحاوراته مع عدد لا يحصى من المفكرين الى عدد ضخم من المؤلفات نخص بالذكر من بينها كتابى «الجمهورية» و «القوانين» لأفلاطون ، و «السياسة» لأرسطو ، و «الحيوات والأعمال الأخلاقية» لبلوتارخس ، و «الأمير» لميكافيللى ، و «خطاب سياسى» عن العقد الأول لحكم تبت ليف لتفيس المؤلف وكتاب «المدينة الخيالية» لتوماس مور ، و «فى المواطن» لهوبس و «بحث عن الحكومة المدنية» للوقه ، و «فى القانون الطبيعى وقانون الأمم» لبوفندرون . . . وهذا الكتاب قيل كما سبق أن أشرنا الى ذلك استغرق حياة مونتسكيو بأكملها اذ يقول المؤلف بعد أن انتهى من تأليفه «اننى أستطيع القول باننى استغرقت فيه حياتى كلها ، اذ عندما انتهيت من دراساتى القانونية وضعته وسط مؤلفات القانون فبدأت أبحث فى تلك المؤلفات عن روح القانون ، فأجهدت نفسى ولم أصنع شيئا ذا قيمة ومنذ عشرين عاما اكتشفت مبادئى وهى جد بسيطة . ولو أن مؤلفا غيرى قام بنفس الجهود لخرج بانتاج أفضل ولكننى أعترف ان العمل فى هذا الكتاب كاد يقتلنى ، اننى أريد أن أستريح ولن أعمل شيئا بعد ذلك » . وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول : «الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لكل خيبة أمل فى الحياة . ولم أجد ضيقا الا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة » .

ويقول استاروبنسكى معلقا على هذا القول ان حياة مونتسكيو السابقة على تأليف روح القوانين كانت موجهة نحو هذا الذى كرس له

(١) ديدرو : (١٧١٣ - ١٧٨٤) فيلسوف فرنسى وشخصية بارزة فى عصر التنوير .

أنشأ أول دائرة للمعارف .

(٢) هلفسيوس : (١٧١٥ - ١٧٧١) فيلسوف وموسوعى فرنسى . ذهب الى أن

الناس جميعا ذوو قدرات متساوية بطبيعتهم ، ثم تعمل ظروف التربية على تفاوتهم .

كل جهوده والذي ملأ عليه حياته ، فهو قد طبق قول المفكر والفيلسوف الانجليزى جون لوقه الذى قال « ان الانسان يجب عليه أن يفقد نصف وقته لكى يستطيع أن يفيد من النصف الآخر » اذ قضى أوقاتا ثمينة فى التردد على المنتديات والملاهى فى الرحلات والمناقشات والحوار واستقاء المعلومات بالطريق الشفوى وعن طريق الرسائل وقام بكتابة القصص . . كل ذلك كان يمثل نصف وقته الذى « اضاعه » لكى يفيد من النصف الآخر بتأليفه كتاب « روح القوانين » . ولقد فقد مونتسكيو بصره كله تقريبا أثناء تأليف هذا الكتاب مما اضطره فى النهاية الى املاء الأجزاء الأخيرة منه .

وكان كلما كتب فصلا أو جزءا عرضه على أصدقائه ولاسيما مدام دي لامبير التى استشارها فى معظم أجزاء الكتاب ، كما كان يستشير الوزير الأديب دأرجنسون والأب جاسكو . وأخيرا ظهر الكتاب كاملا فى جنيف سنة ١٧٤٨ فى مجلدين من القطع الكبير .

وما أن ظهر « روح القوانين » حتى أحدث ضجة كبرى اجتاحت فرنسا من أقصاها الى أقصاها فانقسم الفلاسفة ورجال الفكر والدين بين مؤيدين لآرائه ومعارضين لها ولكن رجال الدين على العموم على اختلاف مذاهبهم قد نقدوا الكتاب نقدا مبرا ، لان ما ورد به من نظريات تتعلق بنشأة الفلسفة والدولة وأثر النظم السياسية والهيئة الطبيعية على نشأة الأديان وما تنادى به من نظم . . كل تلك النقاط كانت - فيما يرى رجال الدين - تتعارض مع ما ورد فى الكتاب المقدس . ولا نكاد نجد أديبا أو فيلسوفا فى فرنسا الا وعلق على هذا الكتاب ، اما بالنقد الموضوعى أو بتجبيذ ما ورد به من آراء أو بالجملة عليه ، مما اضطر مونتسكيو عام ١٧٥٠ الى اصدار رده على تلك الانتقادات فى كتاب عنوانه « دفاع عن روح القوانين » . ولقد راقبت الكنيسة الكاثوليكية فى روما الكتاب فى شئ كبير من الاعتدال ، وفحصه علماء السربون بدون أن يصدرُوا حكمهم عليه رسميا . وأخذ ديبان الملتزم العام للضرائب فى فرنسا فى دحض ما ورد به من آراء اقتصادية . وفى سنة ١٧٥١ وضعت السلطات الدينية كتاب « روح القوانين » فى القائمة السوداء أو قائمة الكتب المحرمة قراءتها .



ويحتوى الكتاب على تصدير يأتى بعده واحد وثلاثون بابا أو جزءا ، وكل جزء مقسم الى فصول وتبلغ الفصول فى مجموعها ستمائة وخمسة .

وقد وضع المؤلف لكتابه عنوانا طويلا يعطى للقارئ ملخصا لما ورد فيه . فقد كانت العناوين على أيامه توضيحية حقا ، دقيقة غالبا ، ولذا سمي كتابه « روح القوانين » أو « العلاقات التي يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة وغيرها » . وفى التصدير يتوسل مونتسكيو الى القارئ ألا يتسرع فى الحكم على الكتاب بناء على نظرة خاطفة لبعض ما ورد به « ان لى رجاء أخشى ألا يتحقق ، وهو ألا يحكم قارئ عابر على عمل استغرق عشرين عاما ، وأن يقبل القارئ هذا المؤلف أو يرفضه جملة ولا يقتصر على قبول أو رفض عدة جمل ، لان الانسان اذا أراد أن يفهم فكرة المؤلف فان يستطيع الوصول اليها الا اذا فهم فكرة الكتاب » .

ثم يقول : « لقد خبرت الناس أولا ووجدت فى هذه الأشكال المتباينة ، بشكل لا نهاية له ، من العادات والقوانين أن الناس ليسوا مساقين بمحض أهوائهم . فوضعت المبادئ العامة لسلوك الناس ووجدت الحالات الضرورية تخضع لها فى يسر ، كما وجدت ان تاريخ جميع الأمم ليست الا نتائج لتلك المبادئ العامة وان كل قانون خاص مرتبط بقانون آخر او يعتمد على قانون آخر أعم منه . ولما اتجهت لدراسة العصور القديمة بذلت الجهد فى استخلاص مبادئها حتى لا يشكل على الأمر فأعتبره من قبيل التشابهات حالات مختلفا بعضها عن بعض ، وحتى لا تغيب عنها الفوارق الفاصلة بين حالات قد تبدو متشابهة ، اننى أستخلص مبادئى قط من آراء ظنية وانما من طبيعة الأشياء » .

وبعد التصدير تأتى الأجزاء أو الأبواب الواحدة والثلاثون وهى التى سنقسمها وفقا لرأى النقاد الى ثلاثة أقسام : القسم النظرى ، والقسم العملى ، ثم أخيرا قسم نسميه المتفرقات ويشمل بعض أجزاء متفرقة وموضوعات خاصة .

● بحث فى تصنيف القوانين

القوانين : ويعالج المؤلف فى هذا القسم موضوعات مجردة ، فى الجزء الأول يتكلم عن القوانين على وجه العموم فيقول : « ان القوانين فى أوسع معانيها عبارة عن علاقات ضرورية تشتق من طبيعة الأشياء ، واكل الموجودات قوانينها بهذا المعنى ، فلآلهة قوانينها وللعالم المادى قوانينه وللعقول المتعالية على الانسانية والحيوانات قوانينها وللانسان قوانينه » .

والقوانين أيا كان نوعها ليست إلا علاقات بين قوى متفاعله يؤثر في بعضها بعض ، ويتأثر بعضها ببعض وهذه القوى على نوعين ، فزيائية ومعنوية أو أخلاقية فالطبيعة ومبادئ الحكومات والتعليم والضرائب والمناخ وعادات الأمة وتقاليدها وعدد السكان والدين السائد - كل تلك قوى تتفاعل والقوانين ليست شيئا آخر إلا العلاقات التي تنتج عن ذلك التفاعل بشكل ضروري . ويحمل مونتسكيو حملة شعواء على الفلاسفة الذين أخضعوا القوانين والظواهر التي تسود العالم لقدرية عمياء ، إذ كيف يمكن أن نتصور أن تخلق مثل هذه القدرية موجودات مفكرة ، وهناك إذن عقل مبدئي وهو الله والقوانين عبارة عن العلاقات التي توجد بينه وبين الموجودات المختلفة فيما بينها وبين بعض ، فعلاقات الله بالكون تتلخص في أنه خلقه وفق قواعد وضعها هو وهو يحفظه ويصونه وفق نفس القوانين التي خلقه بمقتضاها ، والعالم المادي والحال هذه مسود بقوانين لا تتغير لأنها أساس وجوده واستمراره ، أما الموجودات العاقلة فتخضع لنوعين من القوانين نوع طبيعي وهي القوانين التي تستق من طبيعة تكوين تلك الموجودات مباشرة وهي تلك القوانين التي كانت تسود الإنسان البدائي قبل تكوين المجتمعات لأن مونتسكيو كان يعتقد كأصحاب المذهب التعاقدى أن الإنسان قبل تكوين المجتمعات قد مر بمرحلة طبيعية وكان في هذا متأثرا بهوبس Hobbes ولون على وجه الخصوص ، ففي هذه المرحلة مثلا كان الخوف يسيطر على الإنسان وكل إنسان كان يشعر أنه أقل من الآخر وبذلك لم يكن بين الإنسان وأخيه أية نزعات عدوانية ، كما كان يسيطر على الإنسان نزعة البحث عن الطعام والمحافظة على حياته والانجذاب الجنسي . . كل تلك تمثل عينات من القوانين الطبيعية ، ويبدو أن مونتسكيو كان يقصد من القوانين الطبيعية تقريبا ما نسميه اليوم الدوافع الغريزية . أما النوع الآخر من القوانين فهو القوانين الوضعية التي يضعها الإنسان لنفسه بعد تكوين المجتمعات ، وإذا كانت القوانين الطبيعية مفروضة على الإنسان، لأنه ليس مصدرها فإن القوانين الوضعية لما كانت صادرة عنه فإنها متبعثرة حسب ظروف كل مجتمع ، وهذه القوانين على أنواع فمنها قانون الأمم الذي ينظم العلاقة بين المجتمعات ، والقانون السياسى الذى ينظم شئون الحكم ، والقانون المدنى الذى ينظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ولما كانت القوانين ليست شيئا آخر إلا العلاقات التي تربط العقل الأول أو الله بالموجودات وتربط الموجودات المختلفة بعضها ببعض فإن « روح القوانين » يتلخص فى البحث فى العوامل التي تؤدي الى تغيير هذه العلاقات سواء بين الخالق والمخلوقات أو بين المخلوقات بعضها وبعض من جماعة لأخرى ومن عصر لآخر .

● الأسس التي تركز عليها القوانين

ولقد بحث مونتسكيو في فلسفة السابقين والمعاصرين فلم يجد حلا يشفي غلته فوجد خليطا من المذاهب والآراء كما وجد معظم المؤلفين ينظرون للموضوع من زاوية ضيقة بدون المام شامل به ، فعلماء القانون وعلى رأسهم الرئيس داجسوا الفرنسي يذهبون الى أن القوانين تصدر عن فكرة أو فلسفة خاصة لسلطة عليا متحركة في المجتمع ومشبعة بتلك الفكرة ، والقانون الوضعي ليس في هذا المعنى الا تعبيرا عن ارادة الله .

وقريب من هذا ما ذهب اليه سبينوزا Spinoza الفيلسوف الهولندي المشهور من ان العالم يسير بالقضاء والقدر وان كل ظواهر هذا العالم فيزيقية كانت أم انسانية انما تعتمد على الارادة الالهية ، ولم تكن مثل تلك التفسيرات لتروق في رأى مونتسكيو الذي كان مشبعا بالروح العلمي والذي كان يهدف الى ايجاد وتفسير علمي لاختلاف القوانين ، أى تفسير يقوم على منهج علمي يستند الى المشاهدة والتجربة والاستقراء ، في حين أن هذه التفسيرات كانت تعتمد على أسس دينية ميتافيزيقية غامضة والى جانب هذه المذاهب الدينية وجد مونتسكيو فريقا من رجال السياسة والقانون يستندون الى أسس أخلاقية وذلك مثل جروسيوس وبفندورف وباربيراك ، ويذهب هؤلاء الى أن فكرة العدل سابقة على كل قانون وصفى ، فهناك نموذج من العدالة وهو نموذج مثالي يرجع اليه كل المشرعين في تشريعاتهم ، وهذا النموذج المثالي ليس مصدره الانسان بل هو مفروض على الانسان ، وهو يتكون من الحقوق والالتزامات اللازمة لتنظيم العلاقات بين الأفراد الكائنين في مجتمع واحد ، ولتنظيم العلاقات بين المجتمعات المختلفة ، وهذا النموذج هو ما يسمى بالحق الطبيعي . والانسان يشعر بهذا الحق الطبيعي بشكل تلقائي كأنما ولد الانسان مزودا بحاسة تجعله يفرق بين العدل والظلم وفقا لهذا القانون . وهذا القانون خالد أبدي أزلى لا يتغير بتغير الزمان والمكان وبناء على ذلك تصبح مسألة تفسير القوانين مسألة بحث مدى التطابق بين القوانين السائدة في المجتمعات المختلفة والقانون الطبيعي . ولقد تأثر مونتسكيو بهذه النظرية ردحا من الزمن ولكنه وجدها هي الأخرى نظرية ميتافيزيقية لا يؤيدها الواقع لانها تتعارض مع فكرة الصيرورة ولا تفسر كيف ان فكرة العدل تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر .



واذا كانت المذاهب السابقة قد فشلت فى ضم مونتسيكيو الى صفوفها فان ثمة عددا من المؤلفين بمثابة نور أدى بمونتسيكيو الى المنهج العلمى السليم لدراسة مشكلة القوانين فى أصلها وروحها وأول هؤلاء العلماء هو الايطالى جرافينا Gravina الذى كان ينصح الباحثين فى الدراسات القانونية بأن يضعوا فى اعتبارهم ان المشرعين عندما يشرعون انما يأخذون فى اعتبارهم الأول اختلاف الشعوب من حيث العادات والتقاليد التى تسودها والوسط الجغرافى الذى تعيش فيه ، والثانى هو الفيلسوف الألمانى أوتو افرارد Everard الذى نادى بضرورة الابتعاد عن التفسيرات التوكيدية والبحث عن « دوافع القانون » التى تتلخص فى فائدة الدولة وعقلية الشعوب والعادات والأفكار السائدة فيها والعدالة الطبيعية .

أما الثالث فهو اللورد الانجليزى بولنجبروك Bolingbroke الذى قال بضرورة مراعاة الأخلاق والعادات والتقاليد والمناخ والروح العام فى كل دولة عند التشريع لها . وكان ان انضم مونتسيكيو الى رأى هؤلاء العلماء .

وبدأ يبحث عن سرائل القوانين الوضعية قاصرا على بحثه على القوانين الوضعية مقتصرنا فيها على القوانين السياسية والمدنية ، أما قانون الأمم الذى ينظم علاقة الدول بعضها ببعض فانه ثابت لانه يرتكز على ركيزتين : الأولى ضمان السلام بين الأمم والثانية ضمان الاستقرار والبقاء لكل أمة . ولكن ما هى العوامل التى تتوقف عليها القوانين السياسية والمدنية السائدة ، فى كل مجتمع ؟ ثمة - فيما يرى مونتسيكيو - فئتان من العوامل : عوامل أخلاقية أو اجتماعية تنحصر فى العامل الأخلاقى الأول وهو شكل الحكومة الذى يتخذه المجتمع ، وعوامل فيزيقية تنحصر فى العامل الفيزيقي الأول وهو المناخ الذى يسيطر على الاقليم ثم تأتى بعد ذلك بقية العوامل الأخلاقية والفيزيقية لكى تدور حول هذين العاملين الرئيسيين ، فالقوانين تتعلق تعلقا ضروريا بنوع الحكومة السائدة والمبدأ الذى تقوم عليه . . كما تتعلق بالعوامل الفيزيقية كالمناخ ونوع الأراضى والموقع والمساحة التى يشغلها المجتمع . . كما تتعلق بدرجة الحرية التى يمنحها دستور الحكم بالدين السائد بين السكان وميول الشعب وثروته . . كما تتعلق أخيرا بعضها ببعض (أى كما تتأثر القوانين بهذه العوامل تتأثر كذلك بعضها ببعض) وبالمصدر الذى صدرت عنه وغاية المشرع من سننها والموضوعات التى تنظمها ولا تؤثر هذه العوامل على القوانين بدرجة واحدة، بل بدرجات متفاوتة ، فالعوامل الأخلاقية تؤثر بدرجة أكبر من العوامل الفيزيقية ، ذلك « ان العوامل الأخلاقية - فيما يرى مونتسيكيو - تشكل الطباع العامة للأمة وتحدد نوع روحها العام بدرجة أكبر مما تفعل العوامل الفيزيقية » ، ويؤكد الفيلسوف هذا المعنى قائلا : « ان النظم والعادات

والتقاليد والأخلاق تستطيع أن تتغلب بسهولة على قسوة المناخ » .
والعوامل الفيزيائية والأخلاقية التي تكشف مجتمعا من المجتمعات لا يقتصر تأثيرها على نشأة القوانين ، بل هي تؤثر كذلك على تطورها ونضوجها وتقويتها أو اضعافها ، حتى اننا نجد كل عصر « جيلا من القوانين » يختلف عن جيل العصر السابق أو اللاحق ، اذ ثمة أجيال من القوانين على غرار أجيال بنى الانسان . وكل « جيل من القوانين » ليس بلا شك الا نتيجة لتفاعل كل هذه العوامل وتضافرها .

واذا كانت هذه العوامل هي الأسس التي تركز عليها القوانين فان مونتسكيو يتناولها بالتحليل ، كل منها على حدة .

● القوانين ونظم الحكم

ويبحث مونتسكيو هذه النقاط فيقول ان الأشكال التي يمكن أن يتخذها نظام الحكم ثلاثة : جمهورية وملكية وطيغان . وهذا التقسيم كان محل نقد عنيف من العلماء لان الطغيان لا يعد شكلا قائما بذاته ، بل هو شكل ينحدر اليه كل أشكال الحكم اذا تطرق اليها الفساد . ولكن مونتسكيو قد فصل بين الملكية والطغيان لكي يحمل حملة شعواء على الحكم الطغياني بدون أن يسيء مع ذلك الى البلاط الفرنسي الذي كان يقوم على الحكم التحكيمي ، والحكم الجمهوري - في رأى مونتسكيو - هو حكم الشعب أو من ينوبون عنه أو جزء من الشعب . والحكم الملكي هو الذي يتولى الحكم فيه شخص واحد وفق قوانين واضحة الحدود لا يتعداها ، أما حكم الطغيان فهو يقوم على شخص واحد يحكم بلا قانون ولا قاعدة الا أهواؤه وعواطفه . والحكم الجمهوري على نوعين : فاما أن يحكم الشعب أو من يمثلونه وفق قواعد نيابية خاصة تلك هي الديمقراطية وأما أن يكون الحكم في أيدي فئة من أغنياء الشعب وتلك هي الأرستقراطية . وفي الديمقراطية يستطيع كل شخص وفق قواعد خاصة تمثيل الشعب أو حكم الشعب باسم الشعب ، أما في حالة الأرستقراطية فان الحكم محصور في طبقة معينة أو عدة طبقات لا يتعداها وأحسن شكل للحكم الأرستقراطي هو ذلك الذي يقترب قدر الامكان من الحكم الديمقراطي . أما الحكم الملكي فهو الذي يقوم على هيئات تتوسط بين الملك والشعب وتكون لها اختصاصات محدودة تحديدا دقيقا يحد من سلطان الملك . ومونتسكيو اذ يتحدث عن هذه الأنواع من الحكم انما كان يفكر في الحقيقة في النظام

الملكى الاقطاعى الذى ساد معظم الشعوب الأوروبية فى العصور الوسطى ، حيث كانت هيئات النبلاء والأشراف ورجال الدين والمدن الحرة تحد من سلطان الملك وتباعد بينه وبين الطغيان ، اذ بدون هذه الهيئات يصبح الملك - فيما يرى مونتسكيو - لا حدود لسلطانه ولا رادع لتصرفاته . اذ : « لا نبلاء بلا ملك ولا ملك بلا نبلاء ، اذ فى هذه الحالة الأخيرة يصبح الملك طاغية أما فى حكم الطغيان فان الطاغية يخلق بجانبه بعض الأمراء الكسالى الجهلاء ذوى الشهوات التى لا تحدّها حدود » . ومن سمات هذا النظام أن يعين الطاغية وزيرا يحمل الأعباء اسما ، بحيث يسمح هذا النظام للطاغية بأن يفعل كل ما يرضى نزواته ورغباته باسم ذلك الوزير .

والقوانين تحت الحكم الجمهورى تركز على التفصيلية لان من يضعون القوانين هم أنفسهم الخاضعون لها والمتحملون لمسئوليتها والتفصيلية هنا تعنى التمسك بواجبات المواطن الصالح الشريف أى بتضحية المصالح الفردية ازاء الصالح العام ، أما الحكم الملكى فأساسه الشرف وثقة الشعب فى ملكه أما أساس حكم الطغيان فهو الخوف والرغبة . لأن الرعايا ليسوا أحرارا بل هم عبيد أذلاء للطاغية الذى يبقى حكمه مرتكزا على هذه الرهبة من جبروته وسلطانه .

واذا كانت تلك هى الأشغال المختلفة لنظم الحكم فانها تؤثر تأثيرا كبيرا على القوانين المدنية والجنائية والادارية التى تنظم الحياة الاجتماعية فى قوانين التربية والتعليم يعمل الحاكم على توجيه تلك القوانين بحيث تخدم أغراضه وتربى فى مواطنها هذه المبادئ التى يقوم عليها النظام الأساسى أى غرس مبادئ الفضيلة أو الشرف أو الخوف بحسب ما اذا كان النظام جمهوريا أو ملكيا أو طغيانا . وكذلك يؤثر نوع الحكومة فى القوانين الأخرى التى لا تتعلم بالتربية والتعليم ، فهو يؤثر على القوانين التى من شأنها أن تطمئن الناس على أشخاصهم وأموالهم حتى تستقر الأمور فى المجتمع وحينئذ لابد من سن القوانين الجنائية وإنشاء المحاكم ، وهذه القوانين تقوم على عقوبات خفيفة عادة تحت النظم التى أساسها الفضيلة أو الشرف ، أما فى النظام الطغيانى القائم على الخوف فنجد العقوبات صارمة وحشية غير انسانية . كما يؤدى الشكل السياسى للدولة الى سن قوانين تحمى الفرد من سوء استخدام النظام أو استغلاله ، وذلك فيما عدا النظام الطغيانى الذى يخضع الفرد فيه لكل أنواع الظلم والاستغلال بلا ضمان . أما فى النظامين الجمهورى والملكى فتسن قوانين تحمى الفرد وحرياته المختلفة ، على انه من الملاحظ - فيما يرى مونتسكيو - انه كلما كانت الحكومة ديمقراطية تقوم باصلاحات يشعر بها الأفراد ، تقبل هؤلاء بسهولة ما تفرضه عليهم من أعباء مالية حتى تستطيع أن تضع ما يأتى كقاعدة

عامة : « فى مقدور الحاكم أن يجمع من الضرائب مقدارا يتناسب طرديا مع حرية المحكومين » .

ويتعلق بشكل الحكومة أيضا ما سماه مونتسكيو قوانين الترف . فالترف فى أية دولة من الدول إنما يكون نتيجة للتفاوت بين الثروات . فالدولة التى تكون الثروة فيها موزعة توزيعا عادلا بلا فوارق كبيرة لا يكون ثمة ترف يأتى من تمتع الانسان بعمل الآخرين ، وعلى ذلك نجد أن الترف قليل أو معدوم - فى رأى مونتسكيو - فى الدول الديمقراطية أو الجمهوريات التى تكون الثروة فيها موزعة توزيعا عادلا ، وعلى ذلك فالجمهوريات المثالية هى التى يسودها حسن التوزيع وعدالته ، وهذا هو السر فى أن الأفراد فى كثير من الجمهوريات القديمة كانوا يطالبون دائما بإعادة توزيع الثروات .

وهكذا اذا رحنا نبحث فى جميع أنواع القوانين التى تسود الدولة لوجدناها متعلقة تعلقا وثيقا بالنظام السياسى القائم فيها على أن النظام السياسى ككل شىء آخر قابل للفساد اما بطول « الاستعمال » أو بفساد القائمين عليه وحينئذ ينتشر الفساد والرشوة ، الملكية تتحول بالفساد الى طغيان حاكم واحد والارستقراطية الى طغيان عدة أفراد بينما يؤدى فساد الديمقراطية الى طغيان الشعب . فالسبب الأول مثلا فى فساد الديمقراطية هو أن يفقد الناس روح المساواة التى يجب أن تسود بينهم ، ومن ناحية أخرى تفسد الديمقراطية اذا زاد التمسك بروح المساواة عن حدود معينة ، اذ فى هذه الحالة سيعتبر كل انسان نفسه مساويا لرئيسه فى العمل وبذلك يرى من الخطأ أن يتلقى أول مرة منه وأن من حقه أن يعصيه ، فستضيع الثقة بين الناس وتضطرب المقاييس وتنتشر الفوضى .



واذا كان القسم الأول يعالج القوانين وأنواع الحكومات وعلاقتها بالقوانين السائدة فى مجال التعليم والعقوبات والترف ، ثم فساد الأنواع المختلفة للحكومات ، فان القسم الثانى يعالج مسائل هى بطبيعتها أقرب الى العمل منها الى النظر فيعالج مشكلة الحريات السياسية وأثرها على القوانين ومشكلة الرق السياسى والاسترقاق المنزلى وقوانين الدفاع والهجوم فى الدولة ، وأثر المناخ فى تشكيل القوانين ، وكذلك الدين وما سماه الروح العام للمجتمع . . . وهى موضوعات أقرب الى مشكلة تطبيق القوانين منها الى فلسفة القوانين كما أن موضوعات القسم الأول تميل أكثر الى وصف ما هو كائن فعلا بينما موضوعات القسم الثانى

لا تقتصر أحيانا على ما هو كائن بل تتبعه بتوجيهات عملية تطبيقية . على أن هذا القسم من ناحية أخرى يعد استمرارا للقسم الأول من حيث أن كلا القسمين يبحث في موضوع واحد وهو العوامل المختلفة التي تشكل القوانين في كل مجتمع من المجتمعات . وسنتناول موضوعات القسم الثاني في شيء من التفصيل لأنها أهم ما يتناوله الكتاب .

● الحرية السياسية

يتكلم مونتسكيو عن علاقة القوانين بحالة الدفاع عن الدولة وحالة الهجوم وأهم ما يذكر له هنا هو دفاعه عن الحرب والغزو ويوصف انهما وسيلتان من وسائل الأمة على بقائها وضمان استمرار حياتها ، فهما اذن وسيلتان مشروعتان « ان حق الدفاع الطبيعي قد ينطوى أحيانا بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال ان حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام » .

ثم ينتقل بعد ذلك لبحث في علاقة القوانين بالحرية السياسية وذلك موضوع من أهم الموضوعات التي تعرض لها اذ خصص له ثلاثة أبواب طويلة كاملة . والحرية في رأيه لا تعنى ان يفعل الفرد كل ما يريد ، ففي المجتمع الذي تسوده قوانين لا يمكن أن تعنى الحرية الا القدرة على عمل ما يجب أن يريده الفرد ، وعدم الزامه بفعل ، لا ينبغي أن يفعله . وأكبر ضمان للحرية السياسية هو في مبدأ تقسيم السلطات الى ثلاثة سلطات : تشريعية وتنفيذية وقضائية بحيث تستقل كل منها بالتشريع وتنفيذ القوانين والقضاء على التوالى ولا تتدخل في شئون السلطتين الآخرين . ويعزى الى مونتسكيو الفضل الأول في نشر هذا النظام الذي نقله عن النظام السياسى الانجليزى مع بعض اصلاحات أدخلها عليه ، فأصبح مبدأ فصل السلطات بفضل مونتسكيو السنة الأولى لكل حكم ديمقراطى في العصور الحديثة . فالحرية السياسية يجب أن تكون مقيدة وفي حدود القوانين السائدة وذلك « لاننا لو أبحنا لكل مواطن أن يفعل كل ما يريد أو ما تحرمه القوانين فانه لن يكون حرا ، لأن الأفراد الآخرين سيكون عندهم نفس هذه السلطة » .

ولكن اذا فرض وتحققت الحرية في شعب من الشعوب فكيف السبيل الى ضمان بقائها واستمرارها ؟ « ان التجربة الحالدة قد دلت

على أن ثمة ميلا لدى كل رجل ذي سلطة الى اساءة استخدام هذه السلطة ، ومن جهة أخرى دلت التجربة على أنه لابد في المجتمع من رجل أو سلطة تتولى شئون الحكم ، وليس والحال هذه ثمة ضمان لتحقيق الحرية أو استمرارها في أى من النظم السياسية من ديمقراطية أو أرستقراطية أو ملكية لأنها قد يتطرق اليها الفساد ، فكيف السبيل اذن الى ايجاد نظام سياسى لا يتطرق اليه الفساد ؟ السبيل الوحيد يتلخص فى توزيع السلطات على عدة قوى تتوازن وتتكافأ معها ، اذ لا يوقف السلطة الا سلطة توازنها وتتكافأ معها اذ « لكيلا يستطيع أى ذي سلطة اساءة استقلال سلطته لابد من ترتيب الأمور بحيث توقف سلطته سلطة أخرى تعادلها » . فالسلطات يجب أن تنقسم الى ثلاثة سلطات تشريعية/تنفيذية وقضائية . وهذه السلطات وان كانت منفصلة فى اختصاصاتها ستكون مضطرة بحكم حركة الأشياء للعمل سويا فى انسجام ووثام . فمونتسكيو لم يتجاهل كغيره من الفلاسفة طبيعة الانسان بل نظر الى هذه الطبيعة نظرة موضوعية مقدرا بحساب دقيق ما جبلت عليه من شر وخير ونظر الى القوى التى تسيطر على الحياة السياسية ووضع لها توجيهها سليما يكفل تعاونها وانسجامها ، ولكى « نصل الى حكومة معتدلة لابد من ربط القوى بعضها ببعض والحد من غلواتها وتوجيهها للعمل مع تنظيمها ، أى تقوم بعمل ما يشبه الرافعة فى العالم الفيزيقي حيث نجد قوة فى جانب تعادلها مقاومة فى جانب آخر » .

● « المناخ وعلاقته بالقوانين »

لم يكن مونتسكيو اول قائل بأثر العوامل الجغرافية على تشكيل العادات والتقاليد والقوانين السائدة فى المجتمع ، بل سبقه الى ذلك كثيرون نخص بالذكر منهم أبقراط فى رسالته « عن الأجواء والمياه والأمكنة » وأفلاطون فى كتاب القوانين وارسطو فى كتاب السياسة وكثير من العلماء الرومان مثل أوميدوس ، وابن خلدون عند العرب . ومن العصور الدينية نجد مالبرانس وبودان الفرنسيين وميكافيلى الايطالى والطبيب الانجليزى الشهير جون آرثيوى . ويبحث مونتسكيو هذا الموضوع فى أبواب خمسة كبرى من كتاب « روح القوانين » فالعادات والنظم والقوانين تتأثر بالمناخ السائد فى الأقليم ذلك « أن الناس فى المناطق الباردة تقل حساسيتهم لأنواع السرور ، على حين تكبر هذه

الحساسية فى المناطق المعتدلة وتصل الى درجتها العظمى فى المناطق الحارة .
وكما نستطيع تمييز أنواع المناخ بخطوط العرض . نستطيع بنفس الطريقة
أن نميز درجات الحساسية ويتبع الألم نفس القاعدة فان الله قد أراد
أن يكون الألم متناسبا فى شدته مع ما يحدثه من اضطراب فى الجسم .
ولما كان من المحقق أن الأجسام الكبيرة والألياف الغليظة للشعوب الشمالية
أقل قابلية للاضطراب من ألياف شعوب المناطق الحارة الرفيعة والرقية
فان نفسية تلك الشعوب الأولى أقل حساسية للألم فالمناخ ذو أثر فيزيقى
ضخم لا شك فيه على الأعصاب والعضلات الانسانية ومن ثم على أخلاق
الأفراد وتصرفاتهم . والعقل نفسه والانفعالات ترجع الى عوامل فزيولوجية
ترجع بدورها الى عوامل مناخية ، وعلى ذلك يجب أن تكون القوانين السائدة
فى المجتمعات متناسبة مع الظروف المناخية المختلفة » .

ويحاول مونتسكيو فى عدة فصول طويلة بيان كيف ان للمناخ
أثر على كل جزء فى الجسم الانسانى وما به من عصابات وافرازات وأثر
ذلك على مزاج الانسان وأخلاقه وعاداته وطباعه « فقرة الناس أو حيوييتهم
مثلا تكون أكبر فى المناطق الباردة . . وهذا من شأنه أن يؤدي الى نتائج
ضخمة اذ يكون لدى الأفراد ثقة أكبر فى أنفسهم وشجاعة أكبر وشعور
أكبر بتفوقهم ورغبة أقل فى الانتقام وتكون لديهم صراحة أكثر وتبسط
أقل من الرياء السياسى والشك والحداع ! ولكن هذا فى المناطق الحارة
وحرارة الجو تبلغ أحيانا من الارتفاع فى بعض المناطق بحيث يصير الجسم
بلا قوة وينتقل ذلك الى العقل نفسه وينتج عن ذلك سلبية الأفراد ،
فلا حب للاستطلاع ولا مشروعات ذات قيمة ، مع ميل للكسل وتحمل
للعقاب الجسدى الجسمى مع عدم التأثير بالعقاب المعنوى وتأنيب الضمير ،
ومع ذلك مع ميل للاستبعاد ومن هنا نرى كيف يرجع مونتسكيو وجود
نظام الرق الى المناخ !

● « الروح العام فى المجتمع »

والروح العام يتكون فى المجتمع من تعادل العوامل الطبيعية
والثقافية التى تكتنفه . فالناس يخضعون فى حياتهم لعدة عوامل : المناخ،
والدين والقوانين ومبادئ الحكومة السائدة . . والعادات والتقاليد ، ومن
كل هذه الأشياء يتكون الروح العام وكلما زادت قوة أحد هذه العوامل
فى أمة من الأمم ضعفت قوة العوامل الأخرى بنفس النسبة ، فمثلا نجد .

أن الطبيعة والمناخ يوجهان وحدهما تقريبا حياة المجتمعات البدائية وتسيطر العادات على الصينيين وتسود القوانين في اليابان

وهذا الروح العام بمثابة تيار فكري عام يسيطر على المجتمع وهو يختلف من جماعة لأخرى ، وفى نفس الجماعة فى فترة لأخرى وفق ما يحيط بالمجتمع من ظروف جغرافية وثقافية ويقول مونتسكيو بأن على المشرعين أن يراعوا هذا الروح العام فى تشريعاتهم فلا يصدر من التشريعات ما يتنافى معه لأنه يمثل الذوق العام للمجتمع فالاصلاح السياسى والاجتماعى يجب أن يكون متمشيا مع هذا الروح والا فتسل واثى بعكس المقصود منه . فاذا وجدت فى المجتمع عادات وتقاليدهم تعد ملائمة فان اصلاحها لا يتم بسن تشريع يحرمها لانها متعلقة تعلقا وثيقا بالروح العام وعلى ذلك سيكون مثل هذا القانون تعسفيا ، انما يتم الاصلاح هنا عن طريق غرس عادات وتقاليدهم جديدة يوجهها المصلحون ويعملون على نشأتها ونموها وتطورها . « فاذا أراد الحاكم القيام باصلاحات فيجب عليه أن يلجأ للقانون الا فى النواحي المنظمة بقانون ، أما فى النواحي المنظمة بعادات وتقاليدهم فيجب أن يلجأ فى شأنها الى غرس عادات وتقاليدهم جديدة » . ولا شك أن العادات والتقاليد تخضع خضوعا شديدا للمناخ ومن هنا نجد ان ثمة شعوبا تسودها روح المحافظة على التقاليد وأخرى روح التجديد والتغيير بحسب ما يسودها من مناخ ، فالكسل المسيطر على شعوب المناطق الحارة يجعلها تتخذ مواقف سلبية من عاداتها وتقاليدها ومن هنا تنتج عندها روح المحافظة التى تتسم بها على حين يسود التغيير والتجديد المناطق الباردة ويجب أن يلاحظ المشرعون كل تلك الظروف عند تشريعاتهم .

● الدين وعلاقته بالقوانين

وكنا نود أن نعرض لرأى مونتسكيو فى الدين فى شئ من التفصيل لولا انه قد غلب عليه التعصب الأعمى للديانة المسيحية ضد الاسلام مما باعد بينه وبين المنهج العلمى السليم . فعندما ينتقل الى الكلام عن علاقة الأديان بالقوانين السائدة ، فيدعى أن الديانة المسيحية تتفق مع الحكم الديمقراطى بينما الأديان الأخرى تتفق مع حكم الطغيان !! ويسوق كتعليل لذلك ان المسيحية حرمت تعدد الزوجات ومن ثم سمحت للحاكم بأن يكون أكثر صلة بالناس .

أما الأديان التي تسمح بتعدد الزوجات فانها تؤدي الى قطع صلة الحاكم بالناس ! وهذا هو السبب في انتشار المسيحية في أوروبا لأنها تتفق مع النظم الديمقراطية التي تسود تلك القارة بينما انتشرت الأديان الأخرى في آسيا لأنها تتفق مع حكم الطغيان السائد في تلك القارة ، وأخيرا يوازن مونتسكيو بين المذهب البروتستانتي والمذهب الكاثوليكي فيذهب الى أن المذهب الكاثوليكي يتناسب مع النظام الملكي بينما يتلاءم البروتستانتي مع النظام الجمهوري .

ولما كانت الشعوب الشمالية في أوروبا تتميز بروح الاستقلال والحرية بقسط أكبر من شعوب جنوب أوروبا فانها لم تتردد في اعتناق البروتستانتية لأنه مذهب يقوم على الحرية أكثر مما تقوم الكاثوليكية ، اذ لا تعرف البروتستانتية التنظيم الكنسي التصاعدي في شكله الحاد الصارم كما تعرفه الكاثوليكية ، ولا تعرف تلك الرئاسات التصاعدية التي تنتهي بالبابا ، وكل تلك الصفات تتفق مع النظام الجمهوري . بينما تعلقت دول جنوب أوروبا بالكاثوليكية لأنها لا تعرف بالتدرج الكنسي الذي يتناسب مع تدرج الملكية والرئاسات التي تسود فيها . ثم يدرس مونتسكيو الشعور الديني دراسة مستفيضة أدت به الى استخلاص بعض القوانين فهو مثلا يذهب الى أن التعلق بالدين يزداد كلما ازدادت الطقوس التي تفرض على أتباعه لأن كثرة الطقوس تؤكد الصلة بين الفرد والايان الذي يعتنقه ويستنتج قانونا آخر وهو انه لما كان الناس ميالين بطبيعتهم الى الرجاء أو الأمل المشوب بالخوف فان الديانات التي قالت بالجنة والنار والثواب والعقاب في حياة أخرى قد استهوت الشعوب والأفراد أكثر من الديانات التي لا تقول بحياة أخرى يسودها العقاب والثواب ، ويدل ذلك بأن شعوب اليابان التي لا تعرف ديانتها الثواب والعقاب في حياة أخرى لا تتركها كثيرا بديانتها اذ تتركها بمجرد التبشير لتعتنق المسيحية أو الاسلام مثلا . وتلك هي بعض أمثلة من بين كثير من الأمثلة التي يبين بها العلاقة بين الدين والقوانين .



ويمثل هذا الأسلوب يتكلم مونتسكيو عن علاقة القوانين بالأرض والتربة ، ثم التجارة ثم النقود والسكان ، فيدرس علاقة القوانين بهذه النواحي مستنتجا استنتاجات على درجة خطرة من الأهمية : فمثلا اذا كانت الأرض قابلة للزراعة فاننا نجد السكان مشغولين بمصالحهم الخاصة ولا يكون لديهم أي اهتمام بتحقيق حريتهم مما يجعلهم أسهل انقياد للحكم الطغياني ، بينما اذا كانت الأرض جديبا لا يجد السكان ما يشغلهم عن

تحقيق حريتهم ، كما أن هذه الأرض لا تكون عادة مطمعا للغزاة وبذلك تسود عند أهلها الشجاعة والعزة والتمسك بالحرية .



هذا هو ملخص لمحتويات كتاب روح القوانين تعرض فيه مونتسكيو لكل ما من شأنه أن يؤثر من قريب أو بعيد في تشكيل القوانين . ولقد كان المؤلف يستعين بمئات الأمثلة من النظم المختلفة التي كانت سائدة عند القدامى ومجتمعات العصور الوسطى والحديثة ليدل بها على صحة استنتاجاته . فكتاب روح القوانين من هذه الناحية موسوعة كبرى في شتى العلوم والفروع من قانون وفلسفة واجتماع واقتصاد ، بل وطب وفسيولوجيا . . . الى آخر كل تلك الفروع . ولا يسعنا الآن الا أن نتكلم عن آراء العلماء وموقفهم من هذا السفر الضخم الذي يمثل رغم ما فيه من تعصب أحيانا ضد بعض الأديان وضد بعض الشعوب مؤلفا كان له من الأثر ما لم ينله كتاب آخر غيره من مؤلفات القرن الثامن عشر على الإطلاق .

● أهمية « روح القوانين » في نظر العلماء

لقد اختلف العلماء - كما هي العادة دائما - على تقدير آثار مونتسكيو العلمية ولا سيما كتاب روح القوانين الذي كان المؤلف يستهدف فيه ادخال اصلاحات دستورية وقانونية واقتصادية واجتماعية لا في فرنسا وحدها بل في جميع الدول . ولذلك نجد « ميسار » وزير جمهورية جنيف آنذاك والذي لعب دورا ضخما في سبيل نشر كتاب روح القوانين ، يقول : « ان مونتسكيو بتأليفه هذا الكتاب كان عالميا ، ذا دراية بجميع أقطار وجميع الأزمنة وجميع أنواع الحكم » . ويقول الفرنسي فرنيه Vernet بمناسبة قراءته لروح القوانين مخاطبا مونتسكيو : « انك فرنسي عالمي صالح ، فكم أعطيت للجنس البشري في كتابك من دروس !! اننا نجد في روح القوانين أشياء نافعة بقدر ما نجد من كلمات ، كما نجد أشياء عظيمة وأصيلة ومفيدة للجنس البشري » . ذلك المفكر الايطالي تشراري Cerari الذي خاطب مونتسكيو قائلا : « ان ملاحظاتك صالحة لرفع مجتمعات كل دولة الى مستوى الكمال والسعادة بالقدر الذي يستطيعه كل منها » . لقد اكتشفت نظاما وسط الخليط اللانهائي غير المنظم

للأهواء الانسانية . وانك لتوحى اليها بآراء تحمل فى طياتها قدر المستطاع
اصلاح الاتصالات وأنواع الخبرة التى تسود كرتنا الأرضية .

والواقع أن مؤلفات مونتسكيو على العموم وروح القوانين على
الخصوص كانت بالنسبة للعصر الذى فيه أفقر ما تكون نشرا لروح الحرية
والمناداة بالاصلاح الاجتماعى ومن هنا كان تقدير معظم المؤلفين لآرائه .
لذلك كان اللورد يولكلى الانجليزى يشنى عليه لنقده للدستور الانجليزى ،
وهو النقد الذى أدى الى اصلاح كثير من نواحي هذا الدستور وأدى الى
تثبيت الحياة الديمقراطية فى انجلترا . ويقول والمير فى مقدمة الموسوعة
« ان روح القوانين » كتاب سيعمل أثرا خالدا يشهد لعبقرية مؤلفه
وفضيلته وبتقدم العقل البشرى فى قرن سيعد منتصفه فترة خائنة فى
تاريخ الفلسفة .

والى جانب ذلك نجد كثيرا من العلماء والمفكرين ينقدون مونتسكيو،
فقولتير بالرغم من ثنائه على روح القوانين فى عدة رسائل ، يحمل على
استقراء مونتسكيو فى كثير من رسائل أخرى ، ثم تحول نقد قولتير الى
اطراء فنجدته يمتدح « روح القوانين » ومؤلفه فيقول : « ان الانسانية
كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو .

وفى ذات الوقت كان الفلاسفة الناشئون آنذاك مستائين حيث
اعتبروا « روح القوانين » كتيباً فى المحافظة على القديم ، واستنأوا ورعه
العارض واعتدال اصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح
الدينى . وكتب هلفسيوس الى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على
أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه .

ولكن كل تلك الآراء واشباهها لا يمكن أن تحجب حقيقة لا شك
فيها وهو أن الكتاب يعد أولا موسوعة علمية كبرى فى علم الاجتماع
الوصفى اذ يصنع فيه مؤلفه وصفا شاملا لمئات العادات والتقاليد والقوانين
التي سادت المجتمعات فى شتى عصورها ، كما أنه من أوائل المؤلفات
التي أظهرت أن النظم الاجتماعية لا تسير بلا ترتيب ، بل هى تخضع
لقواعد وقوانين دقيقة صارمة لا تقل فى وقتها عن القوانين التى تسود
العالم المادى فكان مونتسكيو بهذا المبشر الأول لظهور علم الاجتماع
الحديث ، حتى أن مؤلفا مثل اميل لازباكسى قد أطلق على مونتسكيو
اسم « أرسطو علم الاجتماع » فأثره فى إنشاء هذا العلم وفى توجيه
المفكرين فيه فى العصور اللاحقة عليه لا يقل بحال ما من رأى لازباكسى

عن أثر أرسطوا فى الفلسفة والفلاسفة • ويقول فاجيه : ان كل الأفكار
الحديثة العظيمة بدأت بمونتسيكيو •

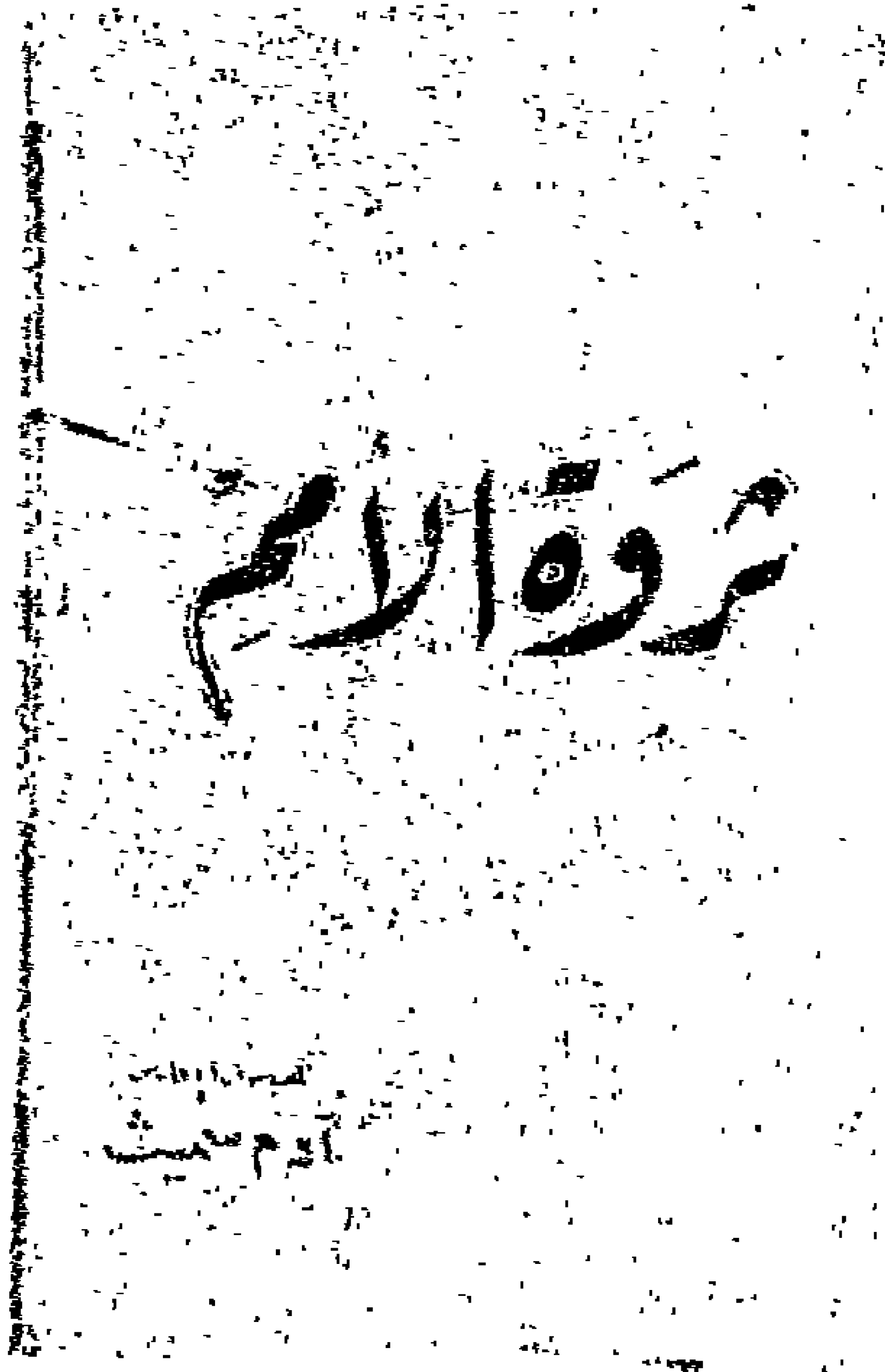
وبعد •• فقد أعتبر كتاب روح القوانين أعظم انتاج عقلى فى القرن
الثامن عشر له آثار بعيدة المدى فى التاريخ ، فقد كانت آراء مونتسيكيو
فى هذا الكتاب بمثابة ثورة فكرية هائلة فى الفكر السياسى والاجتماعى
والفلسفى ••• وحسبنا أنه منظر مبدأ السلطات « التشريعية / التنفيذية /
القضائية » الى يومنا هذا •





(١٠) ثروة الأمم

آدم سميث



ثروة الأمم
تأليف : آدم سميث
عام ١٧٧٦ م

وثيقة هامة في تاريخ الفكر الاقتصادي لا تدانيها أية وثيقة أخرى

يعتبر آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) من أئمة الاقتصاد في القرن الثامن عشر ، وقد سماه البعض « أبو الاقتصاد الحديث » وان كانت الموضوعات التي طرقها هذا المفكر غير جديدة على الجنس البشرى - اذ أن المعاملات الاقتصادية قد نشأت منذ أن وجد الانسان على وجه البسيطة - فانه قد تناول هذه الموضوعات من زاوية جديدة فكانت معالجته لها فاتحة عهد جديد في تاريخ علم الاقتصاد .

فآدم سميث هو حقا مؤسس المدرسة الفكرية الكلاسيكية التي ظهر فيها مفكرون وفلاسفة اتسموا بخط فكري يكاد يكون موحدا أساسه حرية الفرد في نشاطه السياسي وحريته في أن يمتلك ما شاء له أن يمتلك

من الثروة المادية التي تنقله الى أعلى درجات المجتمع وحريته فى أن يمارس التجارة الداخلية والدولية دون ثمة تدخل من جانب الحكومة .

كذلك فان المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى هى وليدة آراء آدم سميث ثم ريكاردو Ricardo ومالتس malthus من بعده هى أيضا وليدة الثورة الصناعية واكتشاف قوة البخار فى تسيير العدد والآلات ، وهى وليدة المصانع الكبيرة والمنافسة الحرة بين الوحدات الاقتصادية المختلفة . وفى كلمة موجزة فان المدرسة الكلاسيكية وليدة الرأسمالية المبكرة التى غلفت العالم الغربى منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن !

والمعروف - علميا - عن المدرسة الكلاسيكية - أنها من تلك المراحل التاريخية التى نعم الناس فيها بالاستقرار وسكينة النفس وراحة البال ، لا لشيء الا لأن هناك توافقا بين المكتوب من جهة والواقع الاقتصادى الذى يعيش فيه الناس من جهة أخرى .

وقد أودع آدم سميث أفكاره الاقتصادية كلها فى هذا الكتاب الذى يعتبر بحق آية من آيات الفكر الانسانى .

ولهذا كله كانت الكتابه عن آدم سميث وكتابته « ثروة الأمم » ، بل كان مجرد استرجاع سيرة حياته وخلاصة فلسفته ، فى الوقت الحاضر ، مساهمة مفيدة من أجل فكرة لتقدم الاقتصاد .

● سيرته ومؤلفاته

ولد آدم سميث فى ٥ يونيو ١٧٢٣ فى مدينة كيركالدى باسكتلندا . وفى سنة ١٧٣٧ التحق بجامعة « جلاسجو » حيث تميز عن أقرانه فى دراسة الرياضه والفلسفه .

وفى سنة ١٧٤٠ أوفد الى أكسفورد لكى يعد لسلك القساوسة ، وهناك درس اللغات وتذوق روائع الشعر الانجليزى بجوار آداب اللغة اليونانية واللاتينية والفرنسية والايطالية . وبعد أن أقام سبع سنوات فى أكسفورد ، لم يلق خلالها معاملة طيبة لشغفه بالاطلاع وتحرر فكره ، تركها ، رغم نصيحة أصدقائه ، وعاد الى كيركالدى ليغيش فى كنف أمه ،

وعدل عن اختيار سلك القساوسة . وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين انتقل الى أدنبرة وألقى محاضراته فى الأدب والبلاغة .

وفى سنة ١٧٥١ عين استاذا للمنطق فى جامعة « جلاسجو » ونقل فى العام التالى استاذا للفلسفة الأخلاقية فى نفس الجامعة خلفا لأستاذه فرنسيس هتشو . وكان الاقتصاد السياسى يدخل ضمن دراسة الفلسفة . وقد قسم آدم سميث منهاج دروسه الى أربعة أقسام كبرى الأول : يتناول اللاهوت الطبيعى حيث يعالج الأدلة على وجود الله ، ويتناول صفاته الحسنى والمبادئ التى يقوم عليها الدين ، والثانى : يشمل مبادئ الأخلاق والثالث يدرس مبادئ الأخلاق المتصلة بالعدالة ، أما القسم الرابع : فيتناول بحث النظم السياسية التى من شأنها زيادة الثروة والقوة والرخاء فى الدولة .

وفى سنة ١٧٥٩ نشر كتابه الشهير « نظرية المشاعر الأخلاقية » وتناول فى هذا الكتاب القسم الثانى من دروسه ، الخاص بمبادئ الأخلاق .

وبعد أن نشر سميث هذا الكتاب الذى أذاع اسمه فى أوروبا كلها ، أخذ نصيب هذا الجزء الخاص « بمبادئ الأخلاق » ينكمش فى دروسه ، وبدأ يتوسع فى دراسة القسم الثالث الخاص بمبادئ الأخلاق المتصلة بالعدل، آملا أن يصل الى صياغة المبادئ العامة فى القانون ونظام الحكم مع بيان تطورها .

ولكن لم يطل المقام بآدم سميث فى جامعة جلاسجو ليحقق آماله فى البحث الفلسفى القانونى ، اذ ترك الجامعة سنة ١٧٦٣ بعد سنوات أربع من اخراجه لكتاب « العواطف الأخلاقية » ورحل الى فرنسا كمراقب ومعلم لدوق « بكنلىة » Duke of Buccleuge ولكن ما ترامى اليه من دروس آدم سميث فى أواخر أيامه فى جامعة « جلاسجو » قبل رحيله الى فرنسا يدل على انه قد رسم فى هذه الدروس الخطوط العريضة لكتابه الثانى « بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم » المعروف عادة باسم « ثروة الأمم » .

أقام سميث فى « تولوز » ثمانية عشر شهرا تمكن خلالها ، بسبب علاقاته ببعض رجال السياسة من التعرف على النظم السياسية والاقتصادية السائدة فى فرنسا ، وبعد رحلة له فى جنوب فرنسا واقامة شهرين فى « جنيف » بلغ باريس حيث اتصل بمشاهير الفلاسفة السياسيين من

«الفيزيوقراطيين» (١) الذين كانوا يسمون «بالاقتصاديين» ومنهم «كزنای»
و «ترجو» .

ثم عاد الى «كيركالدي» ليعيش عشر سنوات يقضى معظمها في
البحث والتأمل ليتم كتابه الكبير «ثروة الأمم» . وكانت الخطوط العريضة
لهذا الكتاب قد نبنت من القسم الرابع من دروسه في الفلسفة الأخلاقية
خلال الأعوام الثلاثة عشر التي قضاها أستاذا في «جلاسجو» ويتضح
ذلك مما نقل إلينا عن دروسه في سنة ١٧٦٣ . ولقد كان لاقامة آدم
سميث في «تولوز» أثرها في تبلور أفكاره وتحديدتها . أما اخراج
الكتاب في صورته النهائية فقد استغرق عشر سنوات طويلة قضى سميث
معظمها في عزلة وتأمل ، وان كانت تخللتها زيارات للندن وأدنبرة في
تزويده بمعلومات وحقائق أفادته في اخراج الكتاب على النحو الذي
نعرفه .

وقد قسم سميث كتابه «ثروة الأمم» خمسة أجزاء أو خمسة
موضوعات أساسية :

يعالج في الجزء الأول أسباب تحسن القوى الانتاجية العمالية
وتوزيع الثروة على من أسهم في انتاجها ، فيناقش فكرة تقسيم العمل
التي تصل بالانتاجية الى مستواها الأمثل ، ومن هنا يعرج الى فكرة التبادل
والى النقود ، ثم الى الأسعار ويدرسها جميعا دراسة مستفيضة . وهو
ينتقل بعد ذلك الى دراسة مشكلة التوزيع ، فيعالج الأجور والربح
والفائدة والربح معتبرا اياها عوامل الانتاج - العمل والأرض ورأس
المال ، والتنظيم على الترتيب - وهكذا يمكن أن يقال : ان الجزء الأول من
ثروة الأمم يعالج كلا من الانتاج والتوزيع .

ويخصص سميث الجزء الثاني من كتابه لدراسة رأس المال ودوره
في العملية الانتاجية فينادى بضرورة زيادته وتجميعه طالما أن المنظم يسير
قدما في عملية الانتاجية مسجما عملية التجميع هذه بظاهرة التجميع
الرأسمالي معتبرا اياها سمة من سمات الرأسمالية الصناعية وبدونها قد
تقف تماما الصناعة الرأسمالية .

(١) الفيزيوقراطيين : مدرسة فكرية اقتصادية سادت فرنسا في منتصف القرن ١٨ .
تؤمن بوجود قوانين طبيعية تكفل سعادة البشر ولا ينبغي للدولة التدخل في سير هذه
القوانين . وان الزراعة وحدها هي مصدر الثروة . ومن أبرز قادة هذه المدرسة «كيناي» .

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد خصصه سميث لدراسة التنمية الاقتصادية والظروف الملائمة لها ، وهو الموضوع الذى يعالج بتفصيل واف فى هذه الأيام . وسميث حين يتعرض لمشكلة التنمية يبدى بعض التحفظ والشك فى امكان تحقيق تنمية اقتصادية بمعدل معقول فى الدول والشعوب المستعمرة : فالاستعمار - فى رأيه - ظاهرة من ظواهر العصر الذى وجد فيه ، والمستعمرات وجدت لتغذى الدول الصناعية العظمى بالمادة الأولية والطعام بأسعار زهيدة وليس لها الحق فى أكثر من هذا . وهو رأى استعماري سخيف لا يجد له مكانا بالطبع بين الاقتصاديين المعاصرين .

ويعمل سميث فى الجزء الرابع من مؤلفه الى نقد بعض المدارس الفكرية التى سبقته : فانتقد التجاريين (أى أصحاب المذهب التجارى الذى ساد ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر) وهو فى انتقاده هذا يرسى الحجر الأساسى فى بناء المدرسة الكلاسيكية التى تدين أولا وقبل كل شئ آخر بالحرية الاقتصادية : أى رفع القيود والاجراءات التى فرضها التجاريون لتنظيم الاقتصاديات القومية الأوروبية حين ذاك .

أما الجزء الخامس فقد خصصه لرسم سياسة مالية واقتصادية أمثل لزيادة الإيرادات المالية فى الدولة وترشيده الانفاق . وهو فى هذا لا يباعد بينه وبين الحرية الاقتصادية ، وانما يعتمد الى اقرار هذه الحرية فى ظل التجارة الدولية الحرة بين الدول على أساس تخصص كل دولة فيما هى أهل له فى الانتاج ومبادلته بشكل حر مع انتاج آخر لدولة أخرى تتمتع فيه بميزة انتاجية مطلقة .

فكان آدم سميث قد قضى أكثر من عشرين عاما فى الاستقراء والبحث والتفكير والتأمل ليخرج كتاب « ثروة الأمم » فى أوائل سنة ١٧٧٦ . وقد ساعدته اقامته فى البيئة التجارية التى اشتهرت بها مدينة جلاسجو واتصالاته برجال الأعمال على تكوين فكرة حقيقية عن النشاط الاقتصادى . كما أن سفره الى فرنسا واتصاله « بالفيزيوقراطيين » كان له أثره فى تأكيد فكرته عن مزايا الحرية الاقتصادية وأصالة النظام الطبيعى .

وبعد أن أخرج سميث كتابه بسنتين عين مراقبا للجمرى باسكتلندا وهى وظيفة ذات أهمية كبرى . وانتخب فى سنة ١٧٨٧ مديرا للجامعة جلاسجو وقد كتب بهذه المناسبة ما يدل على مدى تعلقه بالحياة العلمية يقول :

« لا يستطيع رجل أن يكون مدينا لجماعة ما بقدر دينى لرجال

جامعة « جلاسجو » . فلقد علموني ثم بعثوا بي الى « اكسفورد » . وعند عودتي الى اسكتلندا اختاروني عضوا معهم ثم نقلوني لأشغل مركزا أحاط به الشرف ، اذ شغله الدكتور هتشسون من قبل . ان فترة الثلاثة عشر عاما التي قضيتها عضوا في هذه الجامعة أذكرها باعتبارها أنفع فترة في حياتي وبالتالي أكثر فترات حياتي سعادة وأكبرها شرفا . والآن وقد مضى ثلاثة وعشرون عاما على تركي الجامعة أجد أصدقائي القدامى يذكرونني بانتخابهم اياي مديرا للجامعة فيمتلئ قلبي بسرور لا يتأتى التعبير عنه .

وقد قضى سميث الفترة الأخيرة من حياته مريضا ، واستطاع في مرضه أن يعيد طبع كتابه « نظرية المشاعر الأخلاقية » بعد ادخال بعض الاضافات عليه . ولم يترك لنا آدم سميث شيئا آخر غير كتابيه الكبيرين فيما عدا بعض الأبحاث الفلسفية التي نشرت بعد وفاته سنة ١٧٩٥ .

● الفلسفات المؤثرة في آراء سميث

اذا نظرنا الى الفكر الاقتصادي قبل أواسط القرن الثامن عشر لم نجد بحثا شاملا يحاول تفسير الظواهر الاقتصادية في جملتها . والفلسفة الاقتصادية التي كانت تتحكم في العالم خلال القرون الثلاثة التي سبقت القرن الثامن عشر هي فلسفة التجاريين التي كانت ترى تنظيم الحياة الاقتصادية على نحو يزيد من كمية الذهب والفضة داخل الدولة ، فالهدف النهائي للسياسة الاقتصادية عند التجاريين كان ينحصر في التحكم في ميزان المدفوعات لتحقيق فائض ، أما أساليب هذه السياسة فكانت تختلف من دولة لأخرى تبعا لظروفها الخاصة ووفقا للفلسفة التجارية التي تسود حكامها . واذا كان بعض الكتاب قد حاولوا في أواخر القرن السابع عشر أن يقارنوا الميزة النسبية بين التجارة والزراعة وكان الفكر قد بدأ يتجه في أوائل القرن الثامن عشر الى مناقشة مذهب تقييد التجارة ، الا انه لم توجد أية دراسة تقوم على بحث شامل للمشكلة الاقتصادية قبل منتصف هذا القرن . ولم تظهر هذه الدراسة الا على يدي الفيزيوقراطيين وآدم سميث .

ونود أن نشير قبل التعرض للفيزيوقراطيين الى أسماء بعض الفلاسفة الذين اتفق المؤرخون على أن آدم سميث قد تأثر بهم تأثرا مباشرا .

فقد قيل ان سميث قد تأثر بفرنسيس هتشسون الذي سبقه في

شغل كرسى الفلسفة الأخلاقية فى جلاسجو ، نظرا لوجود شبه بين كتاب « ثروة الأمم » وبين دروس هتشسون من ناحية منهاج البحث وترتيب المواد ، وكذلك لان هتشسون قد عالج فكرة تقسيم العمل وبعض المسائل المتصلة بنظرية القيمة ، كما ان كان من المدافعين عن فكرة الحرية .

وكذلك قيل ان آدم سميث تأثر بدافيد هيوم نظرا لانه قد عالج فى دراسات قصيرة بعض المسائل الاقتصادية الهامة التى تعرض لها آدم سميث فيما بعد ، مثل موضوع النقود وسعر الفائدة وحرية التجارة ونقد مذهب « التجاريين » الذين كانوا يخلطون بين النقود وبين ثروة الأمم وقيسون درجة غنى الدولة ورخائها بما لديها من المعادن النفيسة ، وكذلك نقد سياسة التجاريين فى تقييد التجارة ، وبيان أن رخاء دولة ما لا يضر الدول الأخرى بل يفيدها .

وممن قيل بأنهم أثروا فى فلسفة آدم سميث بل فى فلسفة « الفيزيوقراطيين » الطبيب الفيلسوف برنارد دى مندفيل الذى كتب فى سنة ١٧٠٤ القصيدة المشهورة « قصة النحل » وفكرتها الأساسية ان المدينة بما تتضمنه من ثروة ومن علم انما ترجع الى ما غرس فى نفوسنا من رغبة فى اشباع حاجتنا غير المحدودة وسعيها الى الرفاهية والمتعة . فردائل الانسان ، لا فضائله ، هى أساس المدنية فى رأى « مندفيل » . هذه الفكرة نجدها عند آدم سميث أيضا فى كتاب « نظرية المشاعر الأخلاقية » . ثم نجد نفس الفكرة « فكرة الرغبة الانسانية » أو « المصلحة الشخصية » فى كتاب ثروة الأمم أساسا عريضا لكل فلسفته فى النظام الطبيعى . باعتبارها الدافع الأساسى للنشاط الاقتصادى فى جميع صوره .

أما عن « الفيزيوقراطيين » فانهم قد حاولوا البحث عن سر الرخاء ومصدر الثروة وعن أفضل النظم لتحقيق الرخاء وزيادة الثروة . وقد وجدوا أن المصدر الأصلى لكل ثروة هى الأرض . وان العمل الزراعى هو العمل الوحيد المنتج ، لانه يترك ناتجا صافيا يزيد عما أنفق على الانتاج . أما الأعمال الأخرى كالعمل الصناعى أو التجارى فان ما يضيفه من قيمة جديدة يتعادل تماما مع ما أنفق على عملية الانتاج ، وذلك لان الطبيعة التى تتعاون مع الانسان فى الانتاج الزراعى لا تتعاون معه فى صور الانتاج الأخرى . وقد بين كيناي Kenai فى كتابه الشهير « الجدول الاقتصادى » سنة ١٧٥٨ أن الناتج الصافى لطبقة الزراعة يتداول فى جسم الهيئة الاجتماعية كما يسرى الدم فى جسم الانسان . وبين « الفيزيوقراطيين » ان هذا النظام الطبيعى الذى وصفه الخالق هو الذى يؤدى الى قدر من الرخاء ، وهو نظام يقوم على احترام الملكية والحرية

ولا يحتاج الى قانون وضعى يقرره ، وان مهمة الدولة تنحصر فى ضمان احترام الملكية الفردية والحرية الاقتصادية . ولذا كان من الواجب اطلاق الحريات الاقتصادية بصورة كاملة حتى يتحقق الرخاء . وقد كان « الفيزيوقراطيون » يرون أن خير من يحكم هو المستبد العاد الذى يوجه الأفراد الى النظام الطبيعى ولا يتدخل فيه . وكان من رأيهم ان النظام المالى للدولة يجب أن يقوم على فرض ضريبة وحيدة هى ضريبة الأرض الزراعية .



واذا كان آدم سميث قد تأثر بمن سبقه من الفلاسفة والباحثين فى المسائل الاقتصادية ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فانه قد تلقى طابع فلسفة عصره ، فالقرن الثامن عشر قد تميز بفلسفة القانون الطبيعى التى تقول : ان ثمة مجموعة من القواعد تبين ما هو صواب وما هو عدل ، ومتماشى مع الأخلاق بصفة عامة ، وانه من الممكن التعرف على هذه القواعد عن طريق العقل أو الاحساس الخلقى ، كما تقول أيضا : ان لهذه المجموعة من القواعد سلطة أعلى مما تمليه سلطة الحاكم الانسانى أو يقضى به العرف . ولقد حاول آدم سميث أن يكشف عن هذه القواعد بالنسبة للنظام الاقتصادى . هذا ولما كان النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد شهد بدء التحول الى النظام الرأسمالى الصناعى القائم على المنافسة ، وتبدت عيوب النظام الاقتصادى القديم المؤسس على القيود المفروضة على حرية العمل والمبادلة ، فقد أدى هذا التطور المادى ، كما أدت الدعوة الفلسفية سالفة الذكر الى زعزعة الثقة بفلسفة التجاريين وسياستهم ، وأخذ يحل محل هذه السياسة فى العمل قدر من الحرية الواقعية ، سواء أكان ذلك بالنسبة للقيود المفروضة على التجارة الدولية وعلى حرية العمل فى بريطانيا أم بالنسبة للقيود المفروضة على حرية المبادلات الداخلية فى فرنسا .

فآدم سميث قد وجد فى فترة مكنته من أن يشاهد عيوب النظام الاقتصادى القديم المتداعى ، وهو نظام كان قوامه القيود العتيقة على نظام الانتاج والمبادلة ، وقد استطاع أن يلاحظ بشائر نظام الحرية الوليد . واذا كان آدم سميث لم يستشعر الثورة الصناعية التى كان ميلادها قد تم باختراع المحركات الآلية فانه قد استنبط ان ثمة نظاما أفضل قوامه الحرية والمصلحة الفردية ومن شأنه أن يؤدى الى الخير العام . ولقد جاء ما كتبه تعبيرا رائعا عما كان يختلج فى ضمير عصره ، ولذا فان كلمته لم تذهب أدراج الرياح ، بل كان لجرسها وقع عميق فى خيال جيله ، وفى نفس من تبعه من الأجيال .

● المظاهر الكبرى لاقتصاديات آدم سميث

واذا كان آدم سميث قد رأى مدى ما تنطوى عليه سياسة التجاريين من أخطار الثروة وجد في البحث عن سر الرخاء ومصدره ، واذا كان أيضا مثل « الفيزيوقراطيين » الذين عرفهم وأعجب بهم قد تأثر بفلسفة القانون الطبيعي التي سادت القرن الثامن عشر ، فانه قد وصل الى تحديد صورة للنظام الطبيعي تختلف كثيرا عما قال به الفيزيوقراطيين كما انه كان أكثر منهم احساسا بحقائق الحياة وأقل تعبدا بالفكرة الواحدة المجردة . ذلك أن آدم سميث كان أبعد ما يكون عن المذهبية العمياء .

وقد وجد سميث ان المصدر الأول للثروة ليس الأرض بل هو العمل وبدأ كتابة « ثروة الأمم » بتلك الجملة المشهورة : « العمل السنوى لكل شعب هو الرصيد الذى يمونه بالمواد التى يستهلكها خلال السنة من ضروريات المعيشة وكماليات الحياة سواء أكانت هذه المواد مما ينتجه العمل الوطنى أم مما يشتري من الشعوب الأخرى مقابل منتجات العمل الوطنى » . وبالتالى فان ثروة الأمم تزداد كلما زادت قوة العمل . وتحقق هذه الزيادة فى رأى آدم سميث عن طريق التخصيص وتقسيم العمل ، وكذلك تزداد ثروة الأمم بازدياد عدد العمال المشتغلين على نحو يتمشى مع زيادة المستهلكين « عدد السكان » وهو ما لا يأتى فى رأيه الا بزيادة رؤوس الأموال المستثمرة .

● النظام الطبيعى يؤدى الى الصالح العام

ولكن ما هى القوى التى تعمل على أن تبلغ الثروة أقصاها وبفضلها يتحقق تقسيم العمل وتوزيع الاستثمار على أوجه النشاط على النحو الأمثل ؟ يرى آدم سميث أن ثمة غريزة قد ركزت فى الانسان وهى المصلحة الشخصية التى تدفع به الى محاولة تحسين حاله . هذه الغريزة التى تحكم تصرفات الأفراد تؤدى الى تحقيق الخير كله للجماعة . وذلك لان الأفراد عند سعيهم لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، تقودهم كما يقول آدم سميث « يد خفية » ولا شك فى انه يقصد يدا الهية ، تقودهم الى غاية

لم يقصدونها وهي تحقيق الصالح العام . والنظام الطبيعي عند آدم سميث نظام تلقائي ينبثق عن الدوافع النفسية للإنسان ، وهو نظام يؤدي الى تحقيق الصالح العام ما دامت هناك حرية اقتصادية . فتقسيم العمل مثلا لم يأت نتيجة تفكير انسان نظم العالم ، بل انه ينشأ من سعي الانسان لتحقيق مصلحته . فالفرد الذي يعيش في جماعة يعرف انه يستطيع الحصول على ما يريده من انتاج الآخرين لو باعهم فائض انتاجه ، ولذلك يتخصص في انتاج السلعة التي يمتاز في انتاجها ثم يستبدل بها السلع الأخرى . فتقسيم العمل أساسه رغبة الفرد في تحسين حالته ، كما أن أساسه غريزة المبادلة وكذلك الحال بالنسبة للنقود فانها لم تنشأ من قرار من السلطة العامة ، ولكنها خرجت من الغريزة الانسانية ، فكل فرد يسعى الى أن يكون لديه كمية من مواد أو منتجات معينة ، يمكن أن يستعملها لتسهيل عملية المبادلة للحصول على ما يحتاج اليه من منتجات ، هذه السلع التي تتميز بالقبول العام في جماعة معينة هي الأصل التاريخي للنقود ، فالنقود أيضا تعود بشأنها الى الغريزة الانسانية ، وكذلك تكوين رأس المال يتم بصورة طبيعية تلقائية نتيجة سعي الأفراد الى تحسين حالتهم . فهذا الميل يدفع بهم الى الادخار ، ويحثهم على استثمار هذه المذخرات ، وبالتالي يؤدي الى زيادة رؤوس الأموال وإلى زيادة انتاجية العمل وزيادة عدد العمال المشتغلين ، أي الى زيادة ثروة الأمم .

وقد مضى آدم سميث في شرح تفاصيل هذا النظام الطبيعي المنبعث من الغرائز الانسانية ، المؤدى الى زيادة ثروة الأمم ونمو نظمها الاقتصادية على نحو يصل بالأمم الى الرفاهية وراح يبسط القول في هذا النظام الطبيعي سواء أكان ذلك من ناحية الانتاج أم المبادلة .

ولنا أن نسأل : ماذا كان رأى آدم سميث بشأن الدور الذي يتعين اداؤه على الحكومة أو « الحاكم أو الكومنولث » كما دعاها ؟ الجواب عنده بسيط جدا . فهو يرى أن يقتصر دور الدولة على محاولة توسيع نطاق السوق بشق الطرق وتنظيم النقد وضمان تنفيذ العقود تنفيذاً أميناً . وعلى الدولة أن تعمل على تحقيق حرية الصناعة والتجارة بامتناعها عن التدخل ، فعليها أن تلغى نظام « المنع » ونظام « الاعانات » وأن تمتنع عن التدخل في التنظيم الصناعي وأن تترك الحرية الكاملة للعمل ورأس المال، اذ أن رأس المال في هذه الحالة سيتجه تلقائياً الاتجاه الذي يتمشى مع صالح صاحبه ، ويؤدي الى زيادة الثروة القومية .

● الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى

هذا ولم يكن آدم سميث ، فى بحثه عن تفسير الظواهر الاقتصادية ، وفى عرضه للنظام الطبيعى ، وفى تفاؤله بنتائج هذا النظام ، وفى دعوته الى الحرية والفردية ، بغافل عن عيوب هذا النظام أو عن جشع الانسان ومخاطر هذا الجشع . ولذا فقد أدخل الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى ، ودفع بهذا العلم فى نطاق العلوم الاجتماعية ، معارضا بذلك الاتجاه الفيزيوقراطى الذى اتجه بالاقتصاد السياسى الى زمرة العلوم الطبيعية . هذه الناحية فى آدم سميث من أمتع نواحيه وأكثرها ابرازا لطبيعته ، التى تأبى الانسياق وراء الاعجاب باتساق البنيان النظرى ، ولا تنسى حقائق الوجود الانسانى .

فنراه ، وان كان من أنصار المشروع الخاص والنظام الفردى ، متيقظا لاحتمال قيام الاتفاقات بين أصحاب المصالح من أرباب الأعمال ، مما يعطل قيام النظام الطبيعى القائم على المنافسة ويفوت ما كان يراه من آثار الطبيعة بالنسبة للجماعة ، فيقول « انه لا يتأتى لأفراد من مهنة واحدة أن يجتمعوا ، حتى ولو كان اجتماعهم لمجرد التسلية ، الا واتجه الى التآمر ضد الجمهور أو التحايل على رفع الأسعار » .

واذا كان آدم سميث قد بين دور الدولة على النحو الذى أوضحناه ، الا أنه قد وافق على القوانين المحددة للفائدة تفاديا من أن يستشرى خطر الربا . وكذلك نادى بتنظيم اصدار النقود حتى لا تؤدي المحافظة على « حرية بضعة أفراد الى تعريض أمن الجماعة كلها للخطر وهو ما يفرض على قوانين الدولة أن تقيد مثل هذه الحرية سواء أكانت حكومتها أكثر الحكومات تحررا أو أشدها دكتاتورية » .

وكذلك اذا كان آدم سميث من أنصار حرية التجارة ، فإنه قد أجاز الحماية التجارية لحماية الصناعة التى تعد ضرورة للدفاع الوطنى ذلك لانه كان يرى « أن الدفاع أكبر أهمية من الثراء » .

وكذلك أجاز فرض رسوم تعويضية على الواردات مماثلة للرسوم المفروضة على الانتاج المحلى . كما أجاز المعاملة بالمثل بالنسبة للدول التى تتخذ اجراءات حماية ضد الصادرات الوطنية ، وكان من رأيه التدرج عند الغاء نظام الحماية التجارية رعاية للصناعات الوطنية التى كانت تتمتع بتلك الحماية والتى تستخدم عددا كبيرا من العمال .

أما عن نظرتة الى الطبقة العاملة فانه كان شديد الحساسية لظروفها ، الى درجة انه يبدو غير مؤمن بعدالة النظام الطبيعي فى التوزيع رغم ايمانه بفائدته فى الانتاج فنراه بعد أن يقرر فى صدر الفصل الثامن من الجزء الأول انه « فى الوضع السابق على تملك الأراضى وتكوين رأس المال كان للعامل كل نتاج عمله ، فلم يكن له مالك أو سيد ليقتسم معه » . ثم يبين كيف أن نظام الملكية واستخدام رأس المال فى الانتاج يؤديان الى اقتطاع جزء من دخل العمل لكل من هاتين الفئتين .

ولاحظ سميث كذلك انعدام المساواة فى قوة المساومة بين الاجراء وارباب الأعمال وفى هذا يقول : « ان بين السادة دائما وفى كل مكان تفاهما شبه خفى ، ولكنه دائم ومتجانس ، من حيث عدم رفع أجر العمل فوق العدل الفعلى » وقلما سمع الجمهور بهذه الاتفاقات فيما بينهم ، ولكن محاولات العمال من أجل التكتل ومقاومة خفض الأجور أو زيادة الأرباح ، كانت تؤدى الى الاستنكار الشديد ، كما أن العنف الذى لازم أحيانا أمثال هذه الحركات كان يقمع بشدة .

ولم يفت سميث أن يلاحظ الحاجة الى المنافسة كشرط لقيام نظام الحرية الطبيعية الذى يتحدث عنه . لقد كان عدوا عنيدا للاحتكار ما عدا وظائف قليلة تكون فيها المنافسة باعثا على الاسراف كما هى الحال فى شق القنوات . وكان يقول : « ان الاحتكار عدو الادارة الحسنة التى لا يمكن توافرها الا نتيجة المنافسة الحرة العامة التى ترغب كل امرىء على الالتجاء اليها كوسيلة للدفاع عن النفس » .

ويعلن سميث أن الريع فى جوهره سعر احتكارى . ان كمية الأرض الجيدة أو المرغوب فيها محدودة ، والذين يملكونها يمكنهم استخلاص شئ من المستهلك ، وهو ما لا يدفعه مقابل العمل أو رأس المال الضرورى فالريع المرتفع ليس الا وليد الثروة القومية الكبيرة أو الأجور العالية . وحين يحلل سميث الريع فانه يستبق مذهب « الريع غير المكتسب » الذى أصبح له تأثير كبير ، كما أنه فى هذا التحليل انما يعكس لنا شعور المنتج الصناعى ضد مخلفات النظام الاقطاعى والملاك الزراعيين .

● العمل ودوره الأساسى فى خلق الثروة

وينحصر الهدف الأساسى من كتاب « ثروة الأمم » كما يدل عنوانه فى البحث فى طبيعة هذه الثروة وأسبابها . ولقد سبق أن عرضنا

باختصار نظرية آدم سميث في النظام الطبيعي الذي يحكم تطور ثروة الأمم ويؤدي الى زيادتها ، واذا ترك الأفراد أحرارا في اتباع غرائزهم ، وسعوا لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، وكفلت لهم الدولة الأمن والعدالة والتعليم . فآدم سميث يؤمن بتلقائية التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، ويرى من ناحية أخرى أن النظام الطبيعي يعفى الحكومة من المسئولية الاقتصادية ، ويعفيها من واجب تعرضها لمحاولة أدائه الى حالات كثيرة من خيبة الأمل ، وذلك لان أداء هذا الواجب يستلزم ما تنوء به راحة أي عقل ونفاذ كل عام ، مهما كان هذا الواجب الذي يتضمن مراقبة نشاط الأفراد وتوجيههم الى الأعمال الأكثر تمشيا مع الصالح العام . فهو لم يكن يتخيل وضع برنامج مفصل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية على أساس علمي .

وفي النظام الطبيعي الذي رسم آدم سميث صورته ، يلعب العمل الدور الأساسي في خلق الثروة ، سواء أكان عملا صناعيا أم زراعيا أم تجاريا . وهو في هذا الصدد قد تقدم كثيرا عن الفيزيوقراطيين الذين كانوا يرون أن العمل الزراعي هو العمل المنتج الوحيد . ولكن آدم سميث لم يستطع التحرر تماما من فكرة عدم إنتاجية بعض صور النشاط الانساني ، بل ظل يقسم الأعمال الى أعمال منتجة وأعمال غير منتجة . فالأعمال المنتجة هي الأعمال التي تزيد من قيمة المواد التي تتركز عليها ، أما الأعمال غير المنتجة فهي الأعمال التي قد تكون نافعة ولكنها لا تزيد من تلك القيمة . وهذه الأعمال كما يقول سميث : « تهلك في نفس لحظة أدائها ، مثل عمل الخادم » ويلحق به أعمالا أساسية مثل عمل الحاكم والقسيس وراقص الأوبرا . الخ . فالخدمات لا تدخل عنده في باب الأعمال المنتجة .

واذا كان آدم سميث قد أدخل في نطاق الأعمال المنتجة الى جانب العمل الزراعي ، العمل الصناعي والتجاري ، فانه برغم ذلك قد رتب أهمية أوجه النشاط في التقدم وفقا لما أسماه « السير الطبيعي للأمور » وأعطى المرتبة الأولى للنشاط الزراعي ، باعتباره أكثر صور النشاط توظيفا للعمال ، ثم أعطى المرتبة الثانية للنشاط الصناعي ، والثالثة للنشاط التجاري ، مقسما هذا النوع الأخير الى درجات متفاوتة الأهمية .

وتزداد إنتاجية العامل تبعا لمدى تقسيم العمل ، وبالتالي تزداد ثروة الأمم كلما انتشر فيها تقسيم العمل . وذلك لان تقسيم العمل يؤدي الى زيادة مهارة العامل والى توفير الوقت اللازم للإنتاج ، كما أن التخصص

الذى يترتب على تقسيم العمل يؤدى الى الوصول الى افضل الطرق لاداء العمل والى اختراع الأدوات التى تساعد العامل على زيادة الانتاج . وقد ضرب لذلك المثال المشهور فى زيادة انتاج الدبابيس تبعا لتقسيم العمل :

وان الفقرة الشهيرة التى أوضح فيها أن تخصص العمليات فى عمل الدبابيس يرفع من انتاجية العامل ، لتعد نموذجا فى حسن الشرح والايضاح :

« ولنضرب على ذلك مثلا نستقيه من احدى الصناعات القليلة الأهمية التى روعى فيها تقسيم العمل وهى صناعة الدبابيس ، فالعامل الذى لم يتدرب على هذه الصناعة ربما يعجز عن صنع دبوس واحد يوميا حتى ولو بذل أقصى جهده ، وبالتالي لا يستطيع أن يصنع دبوسا . ولكن بالطريقة المتبعة الآن فى هذه الصناعة لا يصبح العمل بأكمله حرفة خاصة بل انه ينقسم الى فروع يعتبر معظمها حرفا قائمة بذاتها . اذ يقوم أحد العمال بجذب السلك بينما يقوم الثانى بجعله على استقامة واحدة ويقطعه عامل ثالث ثم يجعل عامل رابع أحد طرفى الدبوس مدببا ويتولى عامل خامس اعداد الطرف الآخر من الدبوس الذى ستثبت عليه الرأس . أما عملية صناعة رأس الدبوس فهى تتطلب عمليتين أو ثلاث عمليات مستقلة ، ونضيف الى ذلك أيضا عملية تثبيت رأس الدبوس وتلميعه . بل يمكننا أن نعتبر عملية وضع الدبوس فى الورق لاعداده للبيع حرفة فى حد ذاتها . بهذه الطريقة تنقسم عملية صناعة الدبوس الى حوالى ١٨ عملية منفصلة يقوم بها عمال مستقل كل منهم عن الآخر فى بعض المصانع بينما يقوم فى المصانع الأخرى عامل واحد بعمليتين أو ثلاث عمليات فى وقت واحد .

وقد شاهدت مصنعا صغيرا لصناعة الدبابيس يعمل فيه عشرة عمال فقط يقوم بعضهم بعمليتين أو ثلاث عمليات ولكن على الرغم من أنهم كانوا فى غاية الفقر ولم تكن لديهم الآلات اللازمة فإنهم كانوا يستطيعون أن يصنعوا - اذا بذلوا جهدهم - ١٢ رطلا من الدبابيس يوميا .

ولما كان الرطل يحتوى على ٤٠٠٠ دبوس من الحجم المتوسط . فان هؤلاء العمال العشرة يستطيعون أن يصنعوا ما يربوا على ٤٨ ألف دبوس يوميا ، يعنى ذلك أن كل عامل يصنع ١/١٠ هذا العدد ، أى يبلغ متوسط عدد الدبابيس التى يصنعها ٤٨٠٠ دبوس يوميا . ولكن لو كان كل منهم يعمل مستقلا عن الآخر ودون أن يتعلم أى منهم صناعة الدبابيس لما تمكن كل منهم من أن ينتج ٢٠ دبوسا بل ربما لم ينتج كل عامل منهم

دبوسا واحدا أى ما استطاع كل منهم أن ينتج الى ٢٤٠ أو ربما ١ الى ٤٨٠٠ من متوسط عدد من الدبابيس التى يمكن أن ينتجها كل عامل بفضل تقسيم العمل والتعاون فى العمليات المختلفة .

ان نتائج تقسيم العمل فى أى فن أو صناعة أخرى تتمثل فى النتائج التى أمكن تحقيقها فى هذه الصناعة القليلة الأهمية . هذا على الرغم من أنه لا يمكن تقسيم العمل فى الكثير من الصناعات ولا يمكن أن نصل الصناعة الى مثل هذه البساطة .

ولكن المعروف أن تقسيم العمل عموما يتيح بقدر الامكان زيادة نسبية فى القوى الانتاجية للعمال فى كل حرفة . ويبدو أن الفصل بين الحرف المختلفة قد حدث نتيجة لهذه الميزة .

ويبلغ هذا الفصل بين الحرف أقصى حد له فى تلك الدول التى تنعم بأقصى درجات التقدم فالعمل الذى يقوم به شخص واحد فى المجتمع البدائى يقوم به عدد من العمال فى المجتمع المتقدم .

وهذه الزيادة العظيمة فى كمية الانتاج التى يستطيع أن يحققها العمال بفضل تقسيم العمل تسفر عن ثلاث نتائج مختلفة :

اولا : زيادة مهارة كل عامل

ثانيا : توفير الوقت الذى ينفق فى الانتقال من نوع من أنواع الانتاج الى نوع آخر .

ثالثا : اختراع كثير من الآلات التى تسهل العمل وتقلل تكاليفه وتمكين العامل الواحد من القيام بأعمال عدد كبير من العمال .



وأوضح سميث فى كتابه الحدود التى رأى انها تقصر التقدم وتوقفه عند وضع معين ، فتقسيم العمل يحده الطلب على المنتجات ، يحده بالتالى نطاق السوق . فاذا كان السوق ضيقا كان احتمال تقسيم العمل محدودا ، وكانت احتمالات زيادة الثروة أو ما نسميه الآن احتمالات التقدم الاقتصادى محدودة أيضا .

وهذه الآراء كثير غيرها مما أبداه سميث أصبحت اليوم جزءا من تراثنا بحيث تبدو عادية ، ولكنها لم تكن كذلك حين طلع بها .

● نواحي الاختلاف عن المذاهب السابقة عليه

من أعنف أجزاء كتاب سميث ذلك الجزء الذى هاجم فيه المذاهب التجارية ، وهو أمر يترتب حتما على آرائه . فاذا كانت المنافسة وحرية التجارة والتخصص أمورا مرغوبا فيها داخل الشعب الواحد ، فيجب أن تكون مرغوبا فيها بالقدر ذاته بين الشعوب ، اذ ما من شعب يكسب من انتاج شيء يستطيع أن يشتريه بثمن أرخص من مكان آخر ، ولكن تحقيق هذا الاسراف هو الهدف الكامن وراء التعريفات الجمركية والاعانات المالية، فبدونها نجد أن كل شعب يتخصص طبعا فى تلك الأنواع من الانتاج التى يكون أكثر استعدادا لها . وعلى أى حال فان انتاج هذا الشعب هو المصدر الوحيد لثروته . وكلما زاد مقدار ما ينتج من القيمة باستخدام العمل المتوافر لديه ، زاد ثراؤه وغناه . وهكذا يتضح ان الاحتكارات التى تؤثر فى التجارة الدولية غير مرغوب فيها ، شأنها شأن الاحتكارات بالداخل .

وبوصفه بريطانيا ذا عقلية عقلية نراه يسمح بالاستثناء ، فمن المرغوب فيه لأغراض تتصل بالأمن العسكرى ، العمل على تنمية الملاحاة البريطانية ، وينبغى فرض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة اذا كان الانتاج المحلى منها يتعرض لنفقات أعلى بسبب فرض ضريبة خاصة عليه ، وبذلك يمكن أن تتساوى المنافسة . وكذلك يمكن استخدام الرسوم الجمركية لأغراض المساومة ، وأخيرا يمكن تبرير خفض الرسوم تدريجيا بدلا من خفضها دفعة واحدة اذا ترتب على التغيير المفاجئ متاعب لاداعى لها .

أما الاتهام الأساسى الموجه ضد السياسة التجارية فقد لخصه آدم سميث بقوله انها تضحي بمصلحة المستهلك من أجل مصلحة المنتج ، مع أن « الاستهلاك هو الغاية الوحيدة من الانتاج » .

ويشارك سميث الطبيعيين فى الكثير من آرائهم ولكنه ينتقد مذهبهم اذ يعده رد فعل مغالى فيه للكولبيرتية ، اذ طبقا للمثل : « اذا أمكن أن تشنى العصا كثيرا فى أحد طرفيها لجعلها مستقيمة يجب أن تشنى الطرف الآخر بالدرجة ذاتها » وهذا ما فعله الطبيعيون اذ اعتبروا الزراعة المصدر الوحيد للثروة . ان للزراعة أهمية أولية عند سميث ولكنه يرى فى الوقت نفسه أن الصناعة والتجارة حرفتان منتجتان .



● سميت ٠٠ أبو الاقتصاد السياسي !

كان كتاب آدم سميث ذات المجلدين قنبلة زمنية في حينه . وقد صادف الكتاب في حياة صاحبه وبعد مماته نجاحا منقطع النظير ، فبمجرد نشر الكتاب تلقفه المثقفون في بريطانيا بل في أوروبا كلها وتناولوه بالتعليق والمناقشة ، ولقد ظل هذا الكتاب المحور الأساسي للمناقشات الاقتصادية والسياسية خلال قرن من الزمان . وما زالت بعض المبادئ والنظريات التي قررها أساسا للبحث حتى وقتنا هذا .

وقد نال آدم سميث من التكريم والنجاح في حياته وبعد مماته ما لم ينله الا عدد نادر من الكتاب في العلوم الاجتماعية . وقد ذهب بعض المؤرخين الاقتصاديين الى اعتبار آدم سميث أباً لعلم الاقتصاد السياسي ومؤسساً لمبادئه . بينما ينكر عليه البعض صفات الابداع ويضعونه في مصاف الناقلين عن الفيزيوقراطيين ، أو ضمن سبقه من الاقتصاديين الانجليز أو من تقدمه من الفلاسفة . ونرى في كل من الرأيين مبالغة ، فالمسائل الاقتصادية قد شغلت تفكير الفلاسفة ورجال السياسة منذ أقدم العصور ، وكان للقدماء والمحدثين ممن سبقوا آدم سميث آراء يختلط معظمها بما قاله ، فالبحوث الاقتصادية أقدم بكثير من آدم سميث . كما أن التوافق بين ما جاء في « ثروة الأمم » وما كتبه سابقوه لا يضع آدم سميث في مركز الناقل غير المجدد . ومما لا شك فيه ان « علم الاقتصاد » قد جمع وتبلور في كتاب « ثروة الأمم » على نحو لم نشهده في كتاب سابق عليه .

وعلى أية حال فقد أجمع كل من نقاد آدم سميث ومريديه ان كتابه « ثروة الأمم » وثيقة هامة في تاريخ الفكر الاقتصادي القديم لا تدانيها أية وثيقة أخرى في ذلك الوقت . ويكفيه فخرا انه ضمن كتابه هذا أفكار قرن بأكمله - أي القرن الثامن عشر - قرن الثورة الصناعية أو ثورة البخار :

وهذا خير مديح يمكن أن يزجي الى العمل الذي قام به سميث ، كذلك فان مهاجميه ومؤيديه يسلمون باتفاق تام بأن علم الاقتصاد السياسي بدأ بآدم سميث ، ومن ثم فانه (أي سميث) يجب أن يسمى بحق بأبي الاقتصاد السياسي . ذلك العلم الإنساني الهام الذي يدرس اليوم في جميع الجامعات والمعاهد .



فالمعالم الأساسية لفلسفة آدم سميث الاقتصادية قد قدمت للعالم في القرن الثامن عشر تفسيراً معقولاً للظواهر الاقتصادية ، ووضعت أساساً منطقياً لسياسة اقتصادية تتمشى مع ظروف تلك الحقبة واحتياجاتها . بين أن هذا وحده ما كان ليكفى إلى إيصال آدم سميث إلى قمة المجد التي بلغها ، لو لم تكن كتاباته وبحوثه قد امتدت إلى جذور الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . فقد تعرض لمختلف المشاكل الاقتصادية ، وحاول أن يربط بين الظواهر الاقتصادية بتفسير نظري متماسك وبين الصفة التلقائية للظواهر الاقتصادية . وفتح بذلك السبيل إلى التركيز على دراسة القوانين الاقتصادية .

ومما ساعد على تعميق أثر آدم سميث ، أن من سبقه من الكتاب في فرنسا وبريطانيا كانوا قد مهدوا له السبيل إلى النجاح . هذا إلى أن قيام ثورة الاستقلال الأمريكية ونجاحها وما ثبتت نتيجتها ، وبسبب زيادة المبادلات وازدهارها بين بريطانيا وبين مستعمراتها الأمريكية القديمة بعد تحرر هذه المستعمرات ، من أن التنظيم التحكيمي بين الدولة المستعمرة وبين البلد المستعمر قد لا يكون أفضل تنظيم بالنسبة للدولة الكبرى ، وإن إقامة العلاقات بين هذين البلدين على أساس من الحرية قد يأتي بنتيجة أفضل وأكثر ربحاً بالنسبة للدولة التي فقدت سيطرتها الاستعمارية . كل ذلك قد أوجد حجة عملية كبيرة تسند فلسفة النظام الطبيعي القائم على الحرية . وكذلك فإن قيام الثورة الفرنسية وقضاءها على النظام القديم في فرنسا ، بما كان يتضمنه من تنظيمات عتيقة للنشاط الاقتصادي . كل ذلك قد رفع فلسفة الحرية بكل صورها إلى مصاف العقائد الثابتة في نهاية القرن الثامن عشر ، ومكن لهذه العقيدة من أن تحكم الفلسفة والسياسة الاقتصادية قرابة قرن من الزمان ، ومكن بالتالي لآدم سميث - أكبر المنادين بمبادئها في النطاق الاقتصادي - أن يجد سبيله إلى مكان الصدارة بين الطلائع الموجهة للفكر الانساني . وكذلك قد أدت الثورة الصناعية إلى إيجاد توافق تام بين مصالح الرأسماليين وأصحاب الصناعة وبين فكرة الحرية الاقتصادية طوال القرن التاسع عشر ، مما دعم أثر آدم سميث ومدّ ظله على هذا القرن كله .

إن ما امتاز به سميث من سعة في الأفق ومعرفة موسوعي الطابع لا يمكن أن يستحقا سوى الإعجاب ، وما كان في الوسع إن يوضع مثل هذا الكتاب الضخم الشامل كل شيء والثابت اللازم والذي يمتاز بالعمق إلا في القرن الثامن عشر القرن الذي كانت تسوده الفلسفة الإحيائية

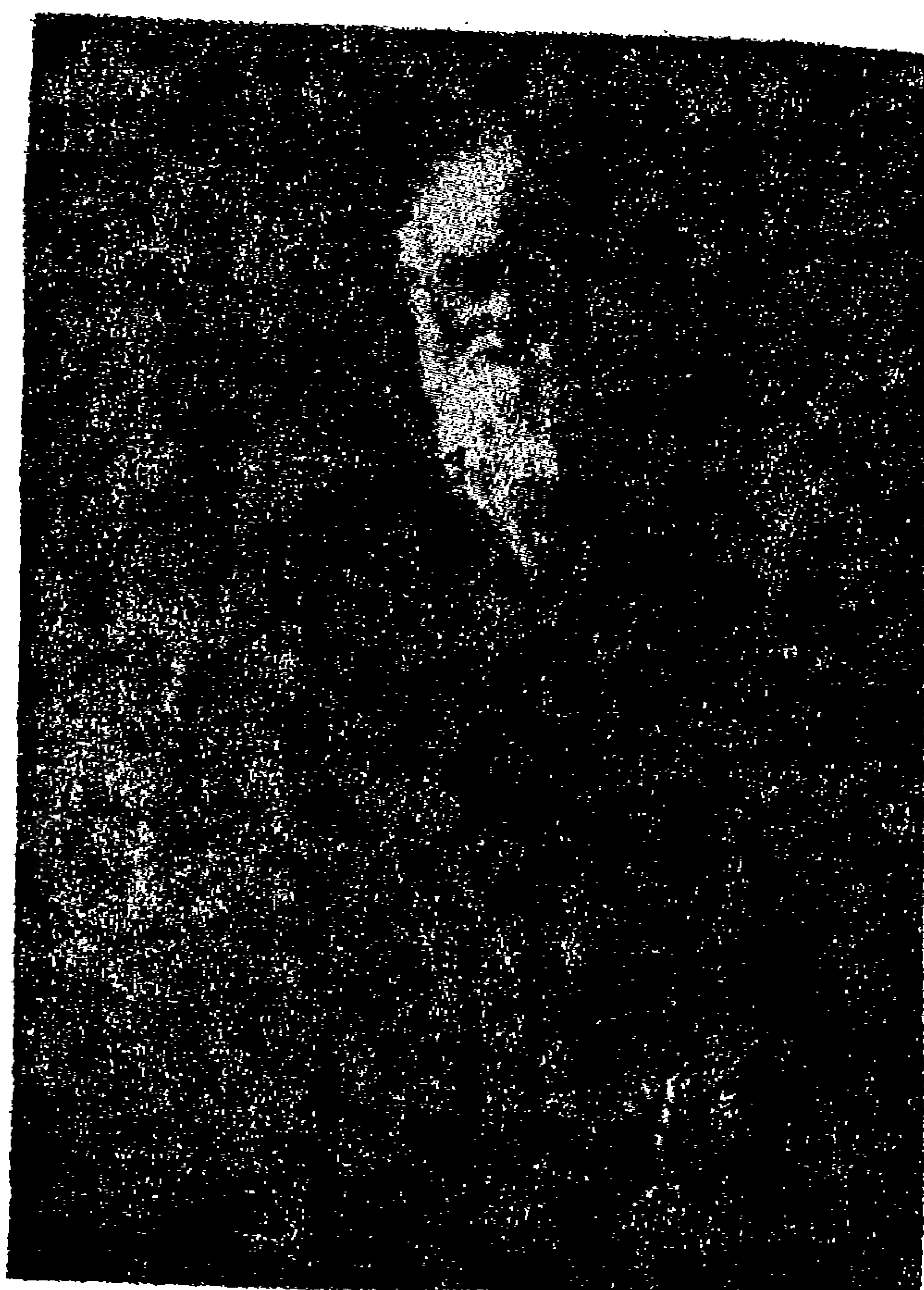
والعقل . وربما لن يظهر من جديد اقتصادى يمثل هذا الالمام الشامل
كما فعل آدم سميث .



وفى أواخر أيام سميث انهالت عليه مظاهر التكريم والاحترام فترجم
كتابه الى الدنمركية والفرنسية والألمانية والايطالية والأسبانية ، وكغيره
من العظماء المفكرين كان سميث مبعث الالهام لمجموعة من الاقتصاديين
العظام أمثال : جان بابتيست ساي وجيمس مل Jamesmill ، وجون
رمزى ماكولوخ ، ونساو وليم سينيور وأيضا دافيد ريكاردو David Ricardo
الذين تناولوا نظريات سميث بالصياغة والصقل والتصحيح دون أن
يضيفوا الى الموضوع شيئا كثيرا من الحقائق وعمق النظرة .

والجدير بالذكر انه حين دفن سميث فى كنيسة كانونجيت نقش
على قبره هذه العبارة :

« هنا يرقد آدم سميث مؤلف كتاب « ثروة الشعوب » . ومن
الصعب أن نتصور تمثالا يمكن أن يعيش كما تعيش هذه العبارة . »



(١١) أصل الأنواع

تشارلز داروين

أصل الأنواع
لداروين
١٨٥٩

ميلاد نظرية التطور التي ما زالت تثير العلماء حتى يومنا هذا

نظرية التطور من النظريات الكبرى التي تسيطر على الثقافة العالمية ،
وتصبح عقلية المفكرين في جميع أنحاء العالم الآن . وهي قائمة في الأصل
على درس التاريخ الطبيعي للإنسان والحيوان والنبات .

والواقع ان أية نظرية علمية ، لم تحظ بجدل واسع ، وتقاسم
مستمر ، مثلما حظيت به نظرية التطور ، وأصل الأنواع ، وظهور الإنسان
على هذا الكوكب ، وعلاقته بما ظهر قبله من ملايين الأنواع - الباقية منها
والمنقرضة - وطبيعي أن الجدل المستمر في أية مسألة علمية ، هو ظاهرة
صحية ، خاصة اذا قام بهذا الجدل علماء متخصصون ، وليس ذلك مرده
الى رداءة أو قصور في النظرية ، لأن الردى لا يستحق جدلا أو مناقشة
يضيع العلماء فيها وقتهم ، ويستهلكون طاقتهم ، فالردى هو الذى يسقط

نفسه بنفسه ، بل يرجع استمرار الجدل حتى اليوم ، أو فيما قد يتلوه من أجيال الى اختلاف فى وجهات النظر على النظرية التى وضع داروين بذرتها ، أو النظريات الأخرى التى جاءت بعدها .

ورغم مرور أكثر من مائة عام على موت داروين ، الا ان نظريته لا زالت حية بل انها تزيد حيوية واشراقا - لا فى عقول الناس ، بل فى عقول العلماء الذين يفكرون بطريقة منظمة ، مستمدين زادهم الفكرى من فوائين الكون وشرائع الحياة ، اذ كلما مرت السنون وتطورت البحوث ، وزادت حصيلة العلماء من الأسرار الكثيرة التى تنطوى فى خلق الكائنات ، كلما أصبحوا من حقيقة التطور قاب قوسين أو أدنى .

وبعد . . فان من حق القارىء أن يعرف شيئا عن ترجمة هذا المفكر العظيم ، لانه لا يمكن أن ينفصل مؤلفا عن مؤلفاته ، اذ هى تصطبغ وتصاغ وفق مزاجه وذكاؤه ، وقبل كل ذلك وفق العوامل الثقافية التى تعاصره .

● حياة داروين وتكوين فكره

ولد تشارلس داروين فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ فى «شرو سبورى» من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية حيث خرج منها قبل مؤلفنا عالم آخر نال شهرة كبيرة وهو « ارازموس داروين » جد تشارلس ومؤلف كتاب « قوانين الحياة الحيوانية » وهو الكتاب الذى نجد فيه بذور النظرية التطورية التى خلدت اسم داروين .

وقد ظهر الميل الى جمع نماذج النباتات والحشرات عند تشارلس داروين فى سن مبكرة . وذكر هو نفسه ذلك فى مذكراته التى كتبها عن تاريخ حياته اذ يقول : « كان حب جمع النماذج عميقا فى نفسى مما يدفعنى الى التاكيد بانه كان عندى غريزة فطرية ، اذ لم يظهر هذا الميل عند واحد من أشقائى أو شقيقاتى . ولا شك ان هذا الميل هو الأساس الذى يجعل من الانسان عالما طبيعيا مدققا أو يجعل منه أحيانا مهووسا أو شحيحا » .

وفى سن السادسة عشرة رحل داروين الى أدنبرة ليدرس الطب ولكنه ما لبث أن أظهر امتعاضه وكراهيته لتلك الدراسة ، وان كان فيما بعد:

قد أسف أسفا شديدا لانه فوت على نفسه الفرصة التي كان يستطيع أن يتقن فيها فن التشريح . وبعد مضي سنتين على التحاقه بدراسة الطب أدرك والده الدكتور روبرت وارنج داروين أن ابنه تشارلس لا يرجى منه أمل في أن يكون طبيبا ناجحا . وفكر في تحويله لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الكنيسة . ولم يكن يدور بخلد الوالد أن ابنه ، بدلا من أن يصبح خادما لمبادئ الكنيسة ، سيعلم بنظريته عن العالم وخلق الكائنات وتطورها مبادئ تقلب نظريات اللاهوت رأسا على عقب ، وتقيم الكنيسة وتقعدها وتجعلها تشن حربا لا هوادة فيها ضد هذا الرجل الذي اتهمته بالالحاد والكفر والمروق .

ورحل داروين الى كمبردج في أوائل عام ١٨٢٨ . ولكنه لم يدرس اللاهوت بل أمضى في هذه المدينة الجامعية ثلاث سنوات انصرف فيها الى حياة اللهو ، على أن هذه السنوات الثلاث في الحقيقة لم تضع كلها هباء . اذ أن معيشة داروين في المدينة الجامعية القديمة قد ساعدت على ظهور الموهبة الكامنة فيه ، ونعنى بها موهبة العالم الطبيعي . وكما يحدث في كثير من الحالات ظهرت هذه الموهبة على اثر قراءته لبعض الكتب . فاستطاع على اثر هذه القراءة أن يتعرف على مواطن القوة في نفسه ، وأن يقبل على البحث في المجال الذي يتفق مع ميوله واستعداداته . واستحوذت على نفسه فكرة سامية أراد أن ينفذها بعزم وقوة وهي أن « يضيف الى بناء العاوم الطبيعية الشامخ حجرا يضعه بنفسه مهما كانت قيمته المتواضعة » .

وما لبث أن ظهرت فرصة أخرى ساعدت على توجيه الشاب الجامعي نحو هوايته الحقيقية قراءته لأخبار « همبولت » Humboldt وصداقته للأستاذ « هنسلو » . أستاذه في علم النبات ، وانتماءه « لنادى الذواقين » . فقد اقترح بعض أعضاء هذا النادى القيام بأبحاث تجريبية على أنواع من النبات والحيوان قد تؤدي الى استنباط « آكلات جديدة » غير تلك التي ألفها الناس . هذه الظروف لفت الطالب في جو غريب امتزج فيه حماسه للعلوم التجريبية بخياله عن البلاد والقارات النائية التي تحوى عجائب من الحيوان والنبات وبتعلقه المتهوس بجميع الطوائف والغرائب . ففي هذا الوقت أخذ داروين يجمع الحشرات ويحلم بالرحلة الى « جزر كنارى » فى المحيط الأطلسي .

وعندما ترك داروين كمبردج حاملا درجة الماجستير في الآداب عام ١٨٣١ كان يدرك تمام الإدراك انه ما من شيء يستحق منه الاهتمام سوى دراسة التاريخ الطبيعي .

● الرحلة التي كونت فكره

وبينما كان داروين على هذه الحال ، اذ آتت له فرصة ذهبية مكنته من تحقيق جميع أحلامه ، فتحت أمامه مجال البحوث وجمع المعلومات التي أدت في أواخر الأمر الى نظريته عن « أصل الأنواع » .

فقد كتب أستاذ الفلك في كمبردج الى « هنسلو » أستاذ داروين يطلب اليه أن يختار له شابا له المام وولع بدراسة التاريخ الطبيعي ليرافق بعثة علمية الى « أرض النار » والأرخبيل الهندي . وفكر هنسلو على الفور في داروين . وكتب الى تلميذه يقول : « اننى لم أخترك لاننى أعتبرك عالما طبيعيا بلغ منتهى الكمال ، ولكنى أعرف انك تستطيع أن تستغل أحسن استغلال هوايتك لجمع النماذج وملاحظة الأشياء وتدوين هذه الملاحظات بدقة وعناية . ولا شك انك ستسجل كل ما يستحق أن يسجل بالقياس الى التاريخ الطبيعي » .

وبالرغم من ان هذه البعثة قد استغرقت خمس سنوات فهي تعد أخصب فترة من حياته ، فقد كانت سلسلة من المجهودات الشاقة والمتاعب المضنية .

وكان أعضاء البعثة التي أبحرت على ظهر سفينة الأبحاث « بيجل » مكلفين بدراسة أجواء وتضاريس سواحل بتاجونيا وأرض النار وشيلي وبيرو وبعض جزر المحيط الهادى ، أما داروين فقد كلف بدراسة النبات والحيوان فى تلك المناطق . وقبل أن ترسو السفينة على الشاطئ لأول مرة كان داروين قد استطاع أن يحلل الأتربة التى يحملها الهواء فى جو المحيطات ، ويميز فى هذه المحيطات سبعة وستين نوعا من الحيوان والنبات . ورست السفينة على أرض النار حيث استطاع مؤلفنا أن يتأمل لأول مرة الانسان فى حالة البدائية ، وتركت هذه المشاهدة فى نفسه أثرا لا يمحو . فكان قوة تأثيره بهذا المنظر دليلا على ان المشكلة العلمية والفلسفية الخاصة بأصل الانسان كانت قد بدأت تشغل ذهنه وتحتل مكانا معينا من تفكيره .

ومما لا شك فيه ان النظريات الأساسية التي أعلنها داروين فى كتابه « أصل الأنواع » قد تكونت فى ذهنه رويدا رويدا خلال هذه الرحلة . فدراسته لحفريات الحيوانات فى سهول « البمباس » وملاحظته للاختلافات البسيطة التى تحدث عند الحيوانات التى من أنواع متقاربة كلما تقدم نحو الجنوب من القارة الأمريكية ، جعلته يتصور بوضوح فكرة التغير التدريجى للأنواع . كما أن التجارب والملاحظات التى أجراها خلال هذه الرحلة الطويلة كانت بمثابة الغذاء والمؤونة التى عاش عليها طوال حياته العلمية .

وبعد عودته من رحلته عام ١٨٣٦ استقر فى لندن ، ثم انتقل بعد ذلك الى كمبردج . وبدأ فى ترتيب الوثائق والمجموعات النباتية والحيوانية التى جمعها ، ويكتب فى الوقت نفسه « رحلة عالم طبيعى » عام ١٨٣٩ . وتجسست فى ذهنه نظرية « أصل الأنواع » والواقع أن هذه النظرية لم تكن عنده وليدة تأملات فلسفية حاول بعد ذلك أن يدعمها بالملاحظات ، بل ان الأمر على العكس من ذلك تماما فان الظواهر التى لاحظها والعلاقات التى لمسها بين هذه الظواهر وأوجه الشبه التى صادفها هى التى قادته الى هذه النظرية التى أصبحت كشفا عظيما فى علم الحياة . وقد كان داروين نفسه يدهش أحيانا أشد الدهشة من عدد الظواهر التى تقع تحت ناظره فى تسلسل واضح ، ولا تدع لديه أى مجال للشك فى صدق نظريته . وكتب الى صديق له يصف هذا الأمر بقوله : « لقد ملأت كراسات بعد كراسات بالملاحظات ، ودهشت للظواهر التى كانت تتجمع من تلقاء نفسها بوضوح بحيث يسهل وصفها تحت قوانين ثانوية » .

ولما كانت حياة داروين تسير وفق نظام دقيق ، فقد خلقت له هذه الحياة خير الظروف لازدهار جميع قواه ومذاهبه وللانتفاع بها على أحسن وجه . والواقع ان التنظيم الدقيق لمواعيد يومه هو الذى يسر له جميع ملاحظاته العديدة وتبويبها وترتيبها . وكان يعمل فى صبر وأناة لتدعيم مستقبله العلمى بدون أن يهتم بالمظاهر أو ألقاب الشرف أو النياشين ، كما لم يكن عنده غرور أولئك العلماء الذين يصمون آذانهم عما يتردد فى العالم الخارجى . ولم يكن يحتد أو يغضب لما ينشر عنه من نقد مجحف بسبب ما يصل اليه من نتائج علمية جريئة ولم تستطع المناقشات الحادة والجدل العنيف الذى ساد أوساط العلم على اثر صدور كتابه « أصل الأنواع » أن تعكر من صفو حياته الرتيبة المنتظمة أو تبدل من هدوء ذلك الرجل .

وفى الوقت الذى ظهر فيه كتاب « أصل الأنواع » أى فى عام ١٨٥٩ كان لداروين مؤلفات أخرى وبحوث عديدة فى علوم النبات والحيوان

« الانتخاب الطبيعي » كان أهم عامل في حدوث هذه التغيرات ، التي طرأت على الأنواع ، وإن لم يكن العامل الوحيد .

إن هذه الفقرة ، علاوة على ما تبينه لنا من اقتناع داروين بمذهبه الجديد ، اقتناعا لا يشوبه أى تردد أو شك ، فإنها تلخص كذلك أهم الآراء والاتجاهات التي سيعنى الكتاب بإبرازها وإثباتها بالبراهين العلمية .



استرعى انتباه داروين ، في بادئ الأمر الاختلافات الواضحة بين سلالات نوع واحد من الحيوانات المستأنسة أو المنزلية ، كما استوقف نظره استمرار عملية التنوع ، وتكوين سلالات جديدة بدون انقطاع . وقد شهد بنفسه ، وفي خلال حقبة من الزمن قصيرة نسبياً ، ظهرت سلالات جديدة من الكلاب والخيول ، والمواشى والحمام في إنجلترا . وبذلك تأكد له « أن أى نوع من الأنواع المنزلية أو المستأنسة عرضة للتنوع والاختلاف الذي لا نهاية له » .

وقد بدا له ، في أول الأمر ، « أن ظروف الحياة المنزلية ، أو الظروف التي تخضع لها حياة الحيوان المستأنس ، هي السبب الأساسي في أحداث هذه التغيرات الملحوظة في الأنواع الحيوانية » . ومال إلى الاعتقاد ، بصفة خاصة ، « أن عملية الانسال عند الحيوانات المستأنسة ، لا بد أن تكون قد تأثرت بتغير ظروف حياتها فإذا كانت حياة الاستئناس تغير ، إلى حد كبير ، من طبيعة الحيوان نفسه ، فليس من العجيب أن تؤثر كذلك على عملية الانسال عنده » .

بحث داروين هذا الاحتمال ، ولكنه رفض أن يعتبره تفسيراً كافياً للتغيرات التي تطرأ على الأنواع ، (فليست تغيرات الطقس ، أو ظروف الحياة عوامل يمكن أن تفسر على أساسها التغيرات العميقة ، التي تؤدي مثلاً إلى تلك التنوعات المتباينة من الطيور ، التي تبتعد في كثير من صفاتها عن الحمام العادى . والحقيقة أن العامل الحاسم في حدوث هذه التغيرات ، وهو المربي نفسه (ونعني بذلك المشتغل بهواية تربية الحمام) . فهو الذي يختار للانتاج ، والتوالد زوجاً معيناً ، اجتذبه فيه صفة من الصفات . ولا تلبث هذه الصفة أن تتأكد ، بعد عدة أجيال ، وتفتح المجال أمام أنواع من التغيرات الأخرى ، حتى يصل بعد وقت يختلف مداه ، إلى سلالة جديدة ، لا تربطها بالنوع القديم إلا الصفات العامة ، وفي غالب الأحيان تكون الصفة المختارة التي أراد المربي أن ينميتها ، قد ظهرت بمحض الصدفة ، ولكن توجيه عنايته لها يجعلها تتأكد في الأجيال اللاحقة عن طريق

التزاوج ، وخصوصا اذا اختير له ذكر وأنثى يتصفان بتلك الصفة الجديدة .
واذا حرص المربي بعد ذلك على استبعاد الأفراد الذين لا تظهر فيهم هذه
الصفة المطلوبة أولا بأول ، فانه بعد مضي وقت معين لا يصبح في حوزته
الا حماما من ذلك النوع الجديد ، الذى يمكن القول انه شكله بنفسه
وحسب رغبته .

هذه الملاحظات التى لاحظها داروين على الحيوانات والطيور المستأنسة
أدت الى القول « انه يبدو أن تأثير « الاختيار » ، الذى يتضاعف من جيل
الى جيل ، هو العامل الأساسى ، فى حدوث التغيرات . وسواء أكان هذا
الاختيار يتم بطريقة منهجية - أى عن طريق تدخل الانسان - أو بطريقة
لاشعورية ، فان أثره لابد أن يحدث ، وكل ما هنالك ان التدخل المنهجي
يظهر أثره سريعا . وفى وقت قصير ، أما الاختيار الذى يتم بطريقة
لاشعورية ، فان أثره يظهر ببطء ، ويستلزم لحدوث التغير الملحوظ ،
وقتا طويلا .

هذا هو ما خلاص اليه داروين ، فيما يتعلق بالتنوعات التى تظهر
فى محيط الحيوانات المستأنسة .

● نظرية التغيرات المتلازمة (١)

« اذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر - حتى ولو كان من أشد أعداء
نظرية التطور - ان عملية « الانتقاء » المقصود تؤدى الى ظهور تنوعات أو
فروع جديدة للنوع الأصلي واذا كانت هذه الحقيقة قد لاحظها بالسليقة ،
وأفاد منها البستاني كما أفاد منها هواة تربية الحيوانات والدواجن .
الا انها لم تمنع من اثارة اعتراض له وجاhte . فقد قيل ان هذا « الانتقاء »
المقصود الذى يباشره البستاني أو مربي الطيور قد يفسر تكوين التنوعات
أو الفروع varieties ولكنه لا يفسر ظهور أنواع جديدة species .
ولتوضيح ذلك بمثال حسن نقول انه ليس هناك ما يبعث على الدهشة من
تفرع « الحمام الطاووسى » عن الحمام العادى بتأثير العناية التى يبذلها

(١) نظرية التغيرات المتلازمة correlated variations ومعناها ان أى تغير فى
الشكل يصاحبه أو يلزمه تغير عضوى أو وظيفى .

المربي لاستنباط هذا الفرع الجديد . ولكننا لم نر قط ان أحد الهواة استطاع - مهما بذل من جهود وأظهر من حرص - أن يوجد « طيرا » يختلف تمام الاختلاف عن « الحمام » .

أحسن داروين بقيمة هذا الاعتراض واهتم اهتماما كبيرا بالإجابة عليه وحرص على أن ينطبق تفسيره على كل من « الانتقاء المصطنع » أو المقصود و « الانتقاء » الطبيعي . وقد ضمن هذا التفسير ما سماه بنظرية « التغيرات المتلازمة » Correlated variation .

ومضمون هذه النظرية ان التغيرات الشكلية morphodogiques التى يعنى مربى الطيور بتأكيد ظهورها فى الفروع الجديدة كلون الريش أو شكل المنقار . . . الخ تؤدي بطريق التلازم الى ظهور تغيرات يصعب ملاحظتها فى بادىء الأمر فى أعضاء الحيوان أو الطير وأجهزته الداخلية كالجهاز التناسلى ، الجهاز العصبى . وهذه التغيرات العضوية هى أساس الانتقال من تفرع variely الى « نوع ثانوى » sub-species ثم الى « نوع » species جديد فى النهاية . وإذا كانت هذه التغيرات العميقة التى تؤدي الى ظهور الأنواع الثانوية ثم الى ظهور الأنواع الجديدة لا تظهر فى مجال « الانتقاء » المقصود فما ذلك الا لقصر الوقت الذى يمارسه فيه الانسان . فلا يمكن أن يظهر نوع جديد من خلال عمر انسان أو عدة أفراد يهتمون الواحد بعد الآخر باستنباط سلالة جديدة ولكن الأمر يحتاج الى مئات بل أحيانا الى آلاف من السنين . ولكن ما دمنا قد اقتنعنا بإمكان الانتقال من النوع الأصيل الى تنوعات تظهر فيها صفات جديدة ثم الى أنواع فرعية تتأكد فيها هذه الصفات وتفسح المجال أمام تغيرات عضوية أساسية فليس من الصعب أن نقنع بعد ذلك بان هذه الأنواع الفرعية تؤدي بمضى الوقت الى ظهور الأنواع الجديدة . وهناك كثير من الشواهد فى حياتنا اليومية تؤيد صحة هذه النظرية فنحن اذا نظرنا الى بعض الحيوانات المستأنسة وجدنا أن تنوعاتها تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية حتى يمكن القول انها تكون أنواعا تختلف بعضها عن بعض ويلاحظ ذلك بصفة خاصة بين سلالات الكلاب . فأين « البلدج » بوجهه المفرطح وفمه الغائر ومشيته المتثاقلة من « السلوقى » ذى الجسم النحيل والأرجل الطويلة . وتختلف هاتان السلالتان عن سلالة « الكلب الاسباني » ذى الحجم الصغير والأذنين الطويلتين والشعر الكثيف ؟ هل نستطيع أن ننكر ان هذه الأنواع المختلفة تمام الاختلاف تنتمى فى الأصل الى نوع واحد هو « الكلب » بصفة عامة ؟ وهل نستطيع أن ننكر ان هذا التباين الشديد فيما بينها لم يحدث

الا نتيجة لتغيرات وتنوعات طفيفة تأكدت من جيل الى جيل بتدخل الانسان حتى انتهت الى ظهور هذه الأنواع المختلفة ؟ •

• كذلك يوجد على الأقل عشرين تنوعا متباينا من تنوعات الحمام لا يتردد هواته تربية هذا النوع من الطيور في تصنيفها كما لو كانت أنواعا منفصلة باعتبار الاختلاف في بعض صفاتها الأساسية • وهذا الاختلاف منشؤه التهجين والعناية باستنباط سلالات جديدة •

وبعد عرض هذه الأمثلة وغيرها ينتهي داروين الى القول باننا « في الحقيقة لا نستطيع أن نرسم خطا فاصلا بين الأنواع والأنواع الفرعية أى بين الأشكال التى قد يميل بعض علماء التاريخ الطبيعى الى اعتبارها أنواعا مستقلة بالرغم من عدم استحقاقها تماما لهذه التسمية • كما اننا لم ننجح كذلك فى تحديد خط فاصل أو حدود ثابتة بين الأنواع الفرعية و « التنوعات » Varieties التى تأكدت بوضوح أو بين « التنوعات » التى بدأت تظهر فى النوع والاختلافات الفردية • هذه الاختلافات يندمج بعضها فى بعض فى تدرج غير ملحوظ بحيث تكون سلسلة محكمة الحلقات • ومما لا شك فيه أن معنى التسلسل يتضمن فكرة التغير الحقيقى • »

هذه هى النتيجة التى وصل اليها داروين من ملاحظاته العديدة على انتقاء فصائل جديدة من الحيوانات المستأنسة أو النباتات بتدخل الانسان وتوجيهه للتطور وفق ما يبتغيه من صفات معينة • ومفتاح هذه العملية التى تتطلب وقتا وصبرا طويلى هو مقدرة الانسان على تجميع الصفة أو الصفات المختارة Power of accumulative selection •

ولا نستطيع أن نقول ان ملاحظات داروين عن استنباط سلالات جديدة بفعل الانسان تتصف بطابع الجدة ولكن ما يعتبر بحق كشفا جديدا وهو استغلاله لنتائج هذه الملاحظات فى الوصول الى قوانين « الانتقاء الطبيعى » وتمكنه من أن يضع يده على وجوه التشابه بين تلك العملية المنهجية التى تتم باختيار الانسان وعملية الاختيار التى تتم بفعل الطبيعة ثم وصوله فى النهاية الى معرفة العوامل التى تتدخل بدلا من الانسان لاحداث التغير الطبيعى • وقد أطلق داروين أحيانا على عملية الانتقاء اسم « الانتقاء اللاشعورى » . inconscious selection • وغايته تحسين الأنواع الموجودة بالفعل ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكون فى ذلك أى اتجاه محدد لخلق صفات جديدة • »



● تنازع البقاء .. والبقاء للأصلح

ويوضح داروين ان التنوع يحدث في حالة الطبيعة أى في حياة الغابة والأحراش والسهول كما يحدث عند الحيوانات المستأنسة . ووجود الاختلافات الفردية الواضحة بين أفراد نوع واحد بل وضروب الشذوذ عن الصفات والملامح النوعية أمور قد أثبتتها المشاهدات العديدة .

ولا شك أن عامل « العدد » له أثره الفعال في اظهار الفروق الطفيفة ووضوحها ومعنى ذلك أن الأنواع كثيرة العدد تتطور بأسرع مما تتطور الأنواع النادرة أو القليلة العدد . كما أن كثرة العدد ذاتها تؤدي الى السيطرة على البيئة والتحكم فيها .

فالتنوع في ذاته ليس من الأمور التي تحتاج الى نقاش أو التي تحتل الجدل . ولم يقف داروين عند هذا الحد بل انتقل من ملاحظاته وتجاربه الى محاولة الاجابة على هذه الأسئلة التي تعد أس المشكلة .

« كيف تتكون الأنواع في حالة الطبيعة ؟ وكيف يتحقق الانسجام بين عضو متطور وبين الأعضاء الأخرى في جسم الكائن الحي ؟ وكيف يتم التكيف بالبيئة وظروف الحياة ؟ » .

من هذه المشكلة تتلخص المشكلة التي تعين على داروين أن يجابها وأن يجد لها حلا وقد استطاع في النهاية أن يتغلب عليها بنظريته عن تنازع البقاء أو « الصراع من أجل الحياة » « struggle for existence » « فبفضل هذا الصراع تنزع التغيرات التي تطرأ على الكائنات مهما كانت ضعيفة ومهما كانت أسباب حدوثها للمحافظة على أفراد النوع وتنتقل من جيل الى جيل بشرط أن تكون نافعة لهؤلاء الأفراد في علاقاتهم العديدة مع الكائنات الأخرى وملائمة الظروف الطبيعية لحياتهم » .

وفي كثير من كتابات داروين نجد أنه لا يفرق بين « الصراع من أجل الحياة » و « الانتقاء الطبيعي » اذ أن عملية الانتقاء الطبيعي في نظره عملية تلقائية تعين الكائنات على حفظ النوع وبقاء الأصلح وهي تقابل في ميدان الحياة المنزلية عملية الانتقاء المصطنع التي يمارسها هواة تربية الحيوانات للحصول على صفات تلائم أهواءهم وأمزجتهم . ولكن هذه المقابلة لم تمنعه من أن يؤكد ان « الانتقاء الطبيعي قوة هائلة مستعدة دائما للعمل وانها في تفوقها الهائل على مجهودات الانسان الضئيلة تذكرنا بالفرق بين ابداع فن الطبيعة واللوحات التي تصنعها يد الانسان » .

ومن الطريف أن نذكر في هذا المقام أن داروين قد تأثر في نظريته عن تنازع البقاء بالآراء التي أذاعها « مالتوس » (٢) malthus في القرن الثامن عشر عن تزايد السكان . فقد بين مالتوس بوضوح أن جميع الكائنات الحية تنزع إلى التكاثر بسرعة كبيرة ولكن القليل من نسلها أو من نتاجها هو الذي يكتب له البقاء والوصول إلى سن النضج . وذكر أن عدد البويضات التي تضعها إناث الكائنات الحية وعدد حبوب اللقاح التي تنتجها الأزهار والنباتات تبلغ من الكثرة بحيث لو قدر لها أن تصل جميعا إلى مرحلة الاكتمال والنضج لما كان هناك مكان على الأرض يتسع لها .

والإنسان نفسه الذي يتناسل في بطنه إذا قيس تناسله بالكائنات الأخرى يتضاعف عدده كل خمس وعشرين سنة . وهذه النسبة وحدها كافية لولا تدخل عوامل الموت والفناء لكي يصبح سطح الأرض بعد مرور أقل من ألف سنة لا يتسع لوقوف إنسان على قدميه .

واستطاع مالتوس بعد إبداء هذه الملاحظات أن يؤكد أن جميع النباتات والحيوانات تنزع إلى التكاثر وفق متوالية هندسية . ولا يجد من هذا النزوع الطبيعي سوى فناء بعض الأفراد في فترات متفاوتة من حياتها ولو قدر للنتاج جميعه أن يعيش لما استطاع أن يجد ما يتغذى به .

تأمل داروين هذه الملاحظات التي أكدها مالتوس ووجد أنها تنطبق على ما لاحظته على تكاثر النباتات . ثم ما لبث أن وجهه إلى نفسه هذا السؤال : « إذا كانت هناك عقبات تحول دون تكاثر الكائنات وفقا لما تنتجه من بويضات أو من حبوب لقاح فما هي هذه العقبات ؟ » .

وأعترف بأن العلم لم يصل إلى تحديد دقيق للعوامل التي تؤثر في تحديد عدد كائنات نوع معين . ولكنه بملاحظاته الذاتية وتجاربه يستطيع أن يقول « أن كمية الغذاء التي توفرها البيئة والعوامل المناخية وعلى الأخص ظهور فترات استثنائية من البرد والجفاف والأوبئة وأخيرا ضرورة وجود عدد معين من الأفراد لحفظ النوع كل هذه العوامل تؤدي إلى تكاثر نوع معين على حساب نوع آخر وذلك بالنسبة إلى منطقة معينة كما تحول في الوقت نفسه دون تكاثر الأفراد من غير حد » .

« وعلى هذا النحو ينشأ نوع من التنافس العام بين الكائنات ويزداد

(٢) يشير مالتوس بهذه العبارة إلى أن الإنسان يتزوج في حوالى الخامسة والعشرين ثم ينتجب طفلا فيضاعف بذلك عدده .

الصراع حدة كلما كانت الأفراد تنتمي الى نوع واحد اذ انها تقطن مناطق واحدة وتبحث عن غذاء واحد وتتعرض لأخطار متشابهة .

ويكون الصراع على نفس الدرجة من الحدة تقريبا اذا كان الأمر يتعلق « بتنوعات » تنتمي الى نوع واحد . فلو زرعنا مثلا أصنافا مختلفة من القمح في وقت واحد وزرعنا في السنة التالية الحبوب المخلوطة التي نتجت عن المحصول الأول فان الأصناف التي تلائمها التربة والمناخ أكثر من غيرها سيكون محصولها أوفر . ولا تلبث نتيجة لذلك أن تحل في نهاية بضع سنوات محل الأصناف الأخرى وتلغيها تماما .

وبعد أن يعيد داروين الأمثلة التي يدعم بها نظريته ينتهي الى هذه النتيجة الهامة وهي ان « النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التي يعيش فيها » .

هذا الصراع من أجل البقاء ينطوي بلا شك على صور وحشية ومخزية وعندما يفكر المرء فيه - كما يقول داروين في ختام هذا الفصل الرئيسي من كتابه تنبعث في نفسه عوامل الأسى « ولكننا نستطيع أن نعزي أنفسنا حين نوقن ان الحرب ليست حالة دائمة من حالات الطبيعة وان موت الكائنات التي يكتب لها الفناء يحدث في كثير من الحالات بسرعة وبدون ألم وان الكائنات القوية الصحيحة السعيدة هي التي تستطيع أن تعيش وتتكاثر » .



بقي علينا الآن أن نعرف ما هو الأثر الذي يحدثه تنازع البقاء أو الصراع من أجل الحياة على تنوع الكائنات :

يمكننا أن نفهم هذا الأثر اذا أخذنا في اعتبارنا أن تنازع البقاء يترتب عليه كنتيجة حتمية فناء عدد كبير من أفراد النوع كما يترتب عليه كذلك ان الأفراد التي تستطيع أن تواصل الحياة هي الأكثر تكيفا بالبيئة وظروف الحياة . ويقول داروين في هذا الصدد : « اذا كنا قد رأينا أن تدخل الانسان عن طريق التهجين يوجد صفات مستحبة لديه ولكنها كانت لا تفيد الحيوان فكيف تدهش اذا ظهرت بطريق طبيعي هذه المرة - صفات جديدة عند الحيوان ، صفات نافعة له بالذات ومن شأنها أن تعينه على التغلب في هذه المعركة القاسية معركة الصراع من أجل الحياة ؟ ان هذه الصفات « النافعة للحيوان » لابد أن تقوى بدون أدنى شك على مر الأجيال .

وتؤدي الى ظهور سلالات جديدة ثم الى ظهور أنواع جديدة في نهاية الأمر .
واذا كنا لا ننسى انه يولد من أى كائن أعداد تفوق بمراحل ما يكتب له
البقاء منها فيجب علينا أن نعترف بالضرورة ان الأفراد التى تتميز بأية
ميزة مهما كانت طفيفة وضئيلة هى الأفراد التى يكون لها حظ أكبر فى
البقاء والتناسل وذلك على شرط أن يكون تميزها فى صالحها . أما اذا
اعتري الحيوان أى تغير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة كأن يثقل جسمه
فى بيئة تحتاج الى الحركة السريعة والخفة أو يرق جلده فى بيئة باردة
تحتاج لجلد سميك فان هذا الحيوان لا محالة هالك » .

ويختتم داروين تفسيره هذا بقوله : « لقد أطلقت اسم « الانتقاء
الطبيعى » أو « بقاء الأصلح » survival of the fittest على ظاهرة الاحتفاظ
بالتغيرات الفردية النافعة للكائن وعلى ظاهرة اختفاء وتلاشى التغيرات
الضارة به » (٣) .

الاحتفاظ conservation لا الخلق creation هذه هى الحقيقة
التي أكدها داروين والتي لم يفهمها معارضوه . انه لم يقل أبدا ان عملية
« الانتقاء الطبيعى » تخلق صفات جديدة وانما قال فقط انها تعين على
الاحتفاظ بالصفات والتغيرات النافعة التي تظهر بمحض الصدفة ولا تتعرض
فكرة « الانتقاء الطبيعى » بتاتا لتفسير ظهور هذه التغيرات .

هذا الانتقال من مجرد التحسن الذى يطرأ على فصيلة معينة الى ظهور
فصيلة أخرى متنوعة وذلك عن طريق الانتقاء وبقاء الأصلح ثم الانتقال
مرة أخرى الى تكوين نوع جديد يختلف الى حد كبير عن النوع الأصلي -
هذا الانتقال التدريجى الذى يوصلنا فى النهاية الى ما يمكن اعتباره خلقا
جديدا هو فى الحقيقة لب النظرية الداروينية عن أصل الأنواع .



وبعد . . . فان نظرية التطور تعد من أهم ما قدمه علم الحيوان للعلم
والمعرفة والحضارة الانسانية بوجه عام . . . اذ انها لفتت الأنظار الى ميدان
فسيح من ميادين البحث والدراسة ما زال العلماء يجدون فيه كل جديد .

هذا وقد نفذت الطبعة الأولى من كتاب داروين هذا فى يوم ظهوره .
وقد قوبلت نظريته وقتذاك بهجوم مرير ، اذ كان المظنون انها مناقضة
للعقيدة الدينية عن خلق الكون .

(٣) وردت هذه الفقرة فى خاتمة كتاب « أصل الأنواع » .

ولا شك اننا نعتزف بما فى هذا العمل المضنى الذى قام به داروين من صرامة ، وعناد لا حد لهما ، ومن قوة احتمال وصبر ، قل أن تجد لهما نظيرا . وقد استعان داروين بهذا العناد ، وتلك الصلابة فى الرد على مهاجمى نظريته والدفاع عن آرائه . وكانت طريقته فى النقاش تقوم على قرع الحجة بالحجة ، وعلى توخى الدقة كما كان منهج نقاشه يقوم على البساطة ، والاقتناع الذى يصل الى مرتبة اليقين . فكان يبدأ بعرض رأى خصمه عرضا كاملا نزيها ، ويذهب فى ذلك أحيانا الى اقتباس عباراته نفسها ، وبعد أن يبين فى قوة ان هذا الرأى يناقض ما قدمه من تفسير لظاهرة من الظواهر ، يترك هذه الحجة وينصرف الى حجة أخرى أشد خطرا على خصمه ، حيث يبين أن آراءه تنطوى على تناقض داخلى ، وتتعارض فيما بينها أشد التعارض ، وبعد ذلك يعرض داروين تفسيره الذاتى للظاهرة ، وذلك بطريقة موضوعية ، ولا يخشى أن يبين للقارىء فى نزاهة ، نقط الضعف فيها ، وهى النقط التى يجب أن يتجه اليها النقد العلمى النزيه .

وهكذا نرى ان داروين يتسلح فى تفكيره دائما بالصبر والناة ، ولا يتسرع فى تعميم الأحكام ، بل يخضع رأيه لما تثبتته الظواهر والتجارب العلمية . وهو لا يؤكد أو ينفى الا فى حذر شديد . واذا أحس بأنه امتلك الحقيقة عض عليها بالنواجذ ، وجعلها جزءا من كيانه وعقله . وكان يرى ان التفكير السليم يجب أن يكون دائما الى جانب الحقيقة .

ولم يكن داروين يطمح الا فى أن يفهمه علماء التساريخ الطبيعى القلائل ، الذين وهبتهم الطبيعة مرونة فى العقل والذين استطاعوا أن يتخلصوا من الآراء السابقة ومن أشكال التفكير المصبوبة فى قوالب ، أما الآخرون فانه يرثى لهم ، لانهم يفضلون الأسرار الغامضة التى لا يمكن تفسيرها فى ضوء التفسير الوصفى لظواهر الطبيعة الحية .

وكان من الطبيعى أيضا أن يثير مذهب داروين فى الطبيعة وخلق الكون مسألة تدينه وإيمانه بالله . ونزع الناس من معاصريه ، ومن تلاهم فى ذلك كل منزع . ولكن فصل القول فى هذا الموضوع هو ما أكدته داروين نفسه . فقد أكد بقوة قبل موته ببضع سنوات انه لم يكن ملحدا . وهى ذى عبارته التى نشرت فى مذكراته « لقد ترددت كثيرا فى حياتى بين كثير من المعتقدات وتأرجحت عاطفتى الدينية كثيرا بين الصعود والهبوط ، ولكنى فى أشد اللحظات ترددا لم أشعر بانى كنت ملحدا . ولم أنكر قط وجود الله . واعتقد بصفة عامة وخصوصا عندما أخذت

أقترب من الشيخوخة أن اللا أدريّة هي المبدأ الذي ينطبق أكثر من غيره على آرائى الدينيّة ، •



ورغم أن فكرة التطور ، واشتقاق الحياة من اللا حياة ، ليست شيئا جديدا في دنيا الفكر والعلم ، فقد سبق بها أرسطو وتحدث عنها العرب في كتبهم •

الا أن داروين هو الذي أفرغ هذه النظرية في ثوبها العلمى الصارم ، جاعلا منها قانونا وقاموسا ، بعد أن أضفى عليها مظهرا من الوضوح والترابط ، وبعد أن ساق ألوف الحجج والملاحظات على تأييد فكرته • ولم يكن داروين في هذا الذي يقوله عن سنة الحياة والطبيعة من أنها تطور نحو الأكمل والأوفى من خلال الصراع المستمر ، الا عاكسا في الحقيقة روح عصره الذي كان ينمو في هذه الفترة من خلال الصراع ومن خلال اهدار كل القيم القديمة والأخذ بالقيم الجديدة •

غير أن داروين لم يكد يؤلف كتابه ، واصفا نواميس الحياة في هذا القلب القاسى ، حتى أصبحت انجيل العلم والمعرفة لا في علم الحياة فحسب ، بل في شتى فروع العلوم كلها ، فأخذت كل العلوم والمعارف تنسق نفسها على أساس الفكرة الجديدة ، فكرة التطور الدائم والمستمر من خلال الصراع وتنازع البقاء والبقاء للأصلح •

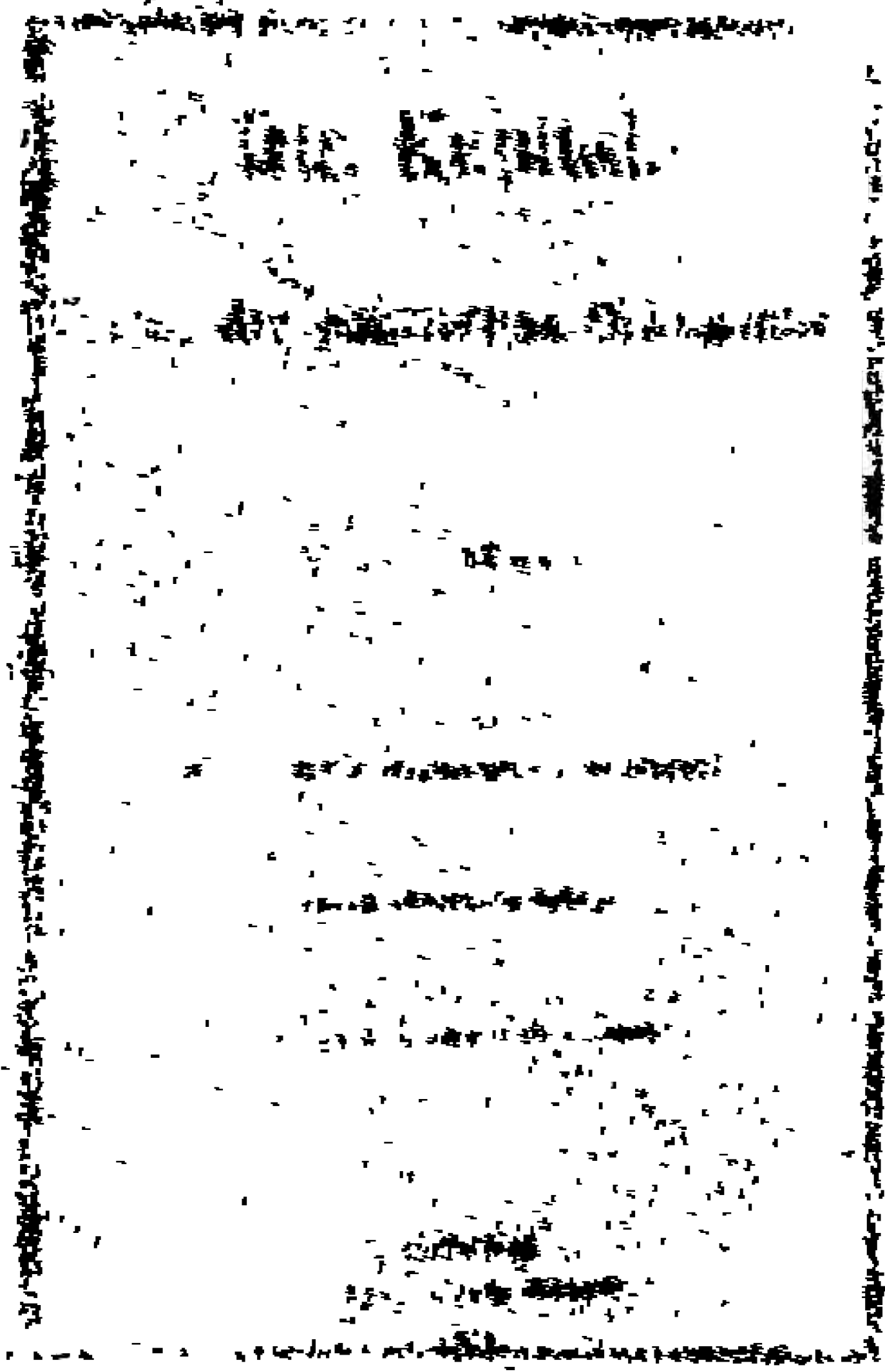
ونحن الآن وبعد وفاة داروين بأكثر من قرن من الزمان ، نستطيع أن نقول أنه أكسبنا من خلال مؤلفه هذا فهما جديدا للطبيعة والكون والانسان • وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل • فان كتاب « أصل الأنواع » قد حمل الى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع في الحيوان والنبات ، وانها جميعا ترجع الى أصل واحد أو أصول قليلة ، وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف في الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات في تغير مستمر •

كذلك فان نظرية التطور ليست معرفة فحسب ، لاننا لا نقتصر فيها على الوقوف على تاريخ الأحياء ، بل نكتسب منها مزايا واتجاها • لانها تجعل التطور مذهباً حيويًا ، والارتقاء ضرورة اجتماعية • ومن هنا قيمتها العالية للفرد والجماعة • اذ هي تشعر الفرد الذي استوعبها انه يجب ألا يركد أو يجمد ، لانه بهذا الركود ، وبهذا الجمود يناقض سنة الوجود ، كما أنها تشعر الجماعة أن تقصيرها في الارتقاء هو مخالفة خطيرة وتحطيم مدمر لأسباب وجودها • فالنظرية ليست معرفة عملية فحسب وانما هي مذهب اجتماعى أيضا •



(١٢) رأس المال

كارل ماركس



رأس المال
لكارل ماركس
١٨٦٧ م

الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع

ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثرا مباشرا قويا فى الجنس البشرى مثل كارل ماركس . فقد كان له على أتباعه ، إبان حياته وبعد موته ، نفوذ فكرى ومعنوى فريد فى قوته ، لا يماثله نفوذ آخر حتى فى ذلك العهد الذهبى - عهد القومية والديمقراطية ، الذى شهد ظهور أبطال وشهداء شعبيين عظماء وشخصيات رومانسية ، بل هى تكاد تكون أسطورية ، سيطرت حياتهم وكلماتهم على أخيلة الجماهير وخلقت تقليدا ثوريا جديدا فى أوروبا . ومع ذلك لا يمكننا القول بأن ماركس كان شخصية شعبية فى أى وقت من الأوقات بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فمما لا ريب فيه أن ماركس لم يكن بأى حال كاتباً أو خطيباً شعبياً . فقد كتب كثيرا ولكن أعماله لم تحظ بجمهور واسع من القراء إبان حياته ، وحتى عندما حظيت مؤلفاته بذلك الانتشار الضخم الذى

صادفه الكثير منها في أواخر العقد الثامن من القرن الماضي ، لم تكن الرغبة التي حدثت بالناس الى قراءتها وليدة ادراكهم لقيمتها الذاتية بقدر ما كانت ناجمة عن نمو شهرة الحركة أو سوء شهرتها التي اقترنت باسمه .

● سيرته من خلال فلسفته ومؤلفاته

ولد كارل ماركس في الخامس من مايو سنة ١٨١٨ بمدينة ترييز بألمانيا عن أب محام يهودى سرعان ما انقلب الى الديانة المسيحية ، بل ان أجداده من الجانبين كانوا ولأجيال متعددة من الحاخامات ولقد كان السبب في تحول والده الى المسيحية هو تهديد مركزه بسبب القوانين المعادية لليهود بعد سقوط نابليون وضم أراضي الراين .

وبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية التحق بجامعة برلين فدرس الحقوق بصفة عامة وتخصص في دراسة الفلسفة ، ودفعه استعداداته الذهنية الرائع الى الانكباب على دراسة التاريخ في نفس الحين .

وفي سنة ١٨٤١ استطاع ماركس أن ينجز دراسته بتقديم مناقشة حول فلسفة ابيقور Epicurus ولقد كان في ذلك الحين تتسلط فلسفة الفيلسوف هيغل على القانون بصفة خاصة وعلى الفكر الألماني بصفة عامة .

ولقد فشلت مساعيه في أن يلتحق بالجامعة البروسية للتدريس بها . فقد كانت محرمة على أمثاله من أصحاب الفكر الحر . وفي سنة ١٨٤٢ انتقل ماركس الى مدينة كولونيا وعمل بالصحافة المتطرفة ، وازدادت كتاباته الثورية واتضح ، فعمدت الحكومة الى فرض رقابتها عليها ثم سرعان ما قررت اغلاقها .

أدرك ماركس من خلال نشاطه في الصحافة أن معلوماته في الاقتصاد السياسي غير كافية فاندفع ينهل من مصادرها . وفي سنة ١٨٤٣ تزوج من كريز صديقة طفولته وقد كانت تنحدر من عائلة نبيلة ، وفي نفس العام انتقل الى باريس ليصدر مجلة مع أرنولد روغه ، وكانت تسمى « الحولية الألمانية الفرنسية » ولم يصدر منها سوى العدد الأول ثم اضطر الى التوقف لصعوبة التوزيع السري والعلاقات مع روغه في المبادئ .

فى عام ١٨١٤ حضر فردريك انجلز الى باريس لقضاء بضعة أيام - وكان انجلز قد بعثه أبوه الى انجلترا للتدريب على الأعمال ، وكان هيجل يسارى استرعى نظره حال الوسط الصناعى فى انجلترا الذى أوحى اليه بكتابه الذى ظهر سنة ١٨٤٦ عن « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا » وقد أصبح فردريك انجلز الصديق الحميم لماركس . وفى يناير ١٨٤٥ طردته الحكومة الفرنسية بناء على طلب سفير بروسيا فلجأ الى بروكسل .

ولقد انتحى ماركس وانجلز الى جمعية سرية تدعى « عصابة الشيوعيين » وبعد ذلك عاد ماركس وانجلز الى مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى الذى انعقد فى لندن وبناء على تكليف من المؤتمر قاما بوضع بيان الحزب الشيوعى .

وعقب ذلك عاد ماركس مرة أخرى الى ألمانيا ليصدر جريدة جديدة وقد كتب فيها عن جميع الحركات العمالية والديمقراطية فى جميع بلدان العالم . ثم أحيل ماركس الى القضاء سنة ١٨٤٩ ثم نفى من ألمانيا ، فانتقل ثانية الى باريس ، ثم طرد الى لندن فعاش فيها حتى آخر عمره . ولقد كانت ظروفه العائلية فى لندن شديدة الفقر . وفى مرحلة انتعاش النشاط فى الحركات الديمقراطية اندفع ماركس من جديد الى النشاط العلمى سنة ١٨٦٢ ، حيث تأسست فى لندن أول جمعية مشهورة « جمعية السفلية العمالية » وكان ماركس روحها ورافع رسالتها واستطاع بعد جهاد مرير أن يرسى دعائم نضال الطبقة العاملة فى مختلف البلدان .

● فلسفة ماركس فى التاريخ :

لم يكن ماركس مجرد مفكر سياسى ، ولكنه كان داعية للثورة والتغيير بل وسعى لترجمتها الى واقع وأفكار ماركس قد ألهمت أيديولوجيات الملايين من البشر فى كافة أنحاء العالم نظرا لمنطقيتها والطابع الانسانى الغالب عليها ومناداتها بتحرير الانسان من الاستغلال والاضطهاد .

وقد اعتقد ماركس كما اعتقد هيجل - ان التاريخ هو المفتاح الى فهم الانسان وصفاته ، ذلك لان هناك نمودجا متميز وهدفا معقولا فى تطوير القدرات الانسانية وثمة أنماط بعينها من النشاط ، سواء أكانت عقلية أم عملية لم تكن لتظهر الا بعد أن نمت الملكات الملائمة لها نموا كافيا وهذه بدورها شجعت على ظهور ملكات ومناشط جديدة لم تكن ممكنة أو متصورة فى مرحلة أشد تبكيرا .

ولقد قسم ماركس تاريخ البشرية الى خمس مراحل رئيسية وذلك طبقا لعلاقات الانتاج ودورها فى تاريخ البشرية :

١ - **مرحلة الشيوعية الأولى** : أو المجتمع البدائى والتى قامت على أساس الشيوع فى الملكية وفى استغلال الموارد الطبيعية .

٢ - **مرحلة العبودية** : حيث تميز المجتمع هنا - ويقصد به المجتمع الاغريقى الرومانى - بظهور الملكية الخاصة وبالتالي ظهور نظام الرق والعبيد كطبقة وظهور نظام الاستبداد كطبقة أخرى .

٣ - **مرحلة الاقطاع** : أو مرحلة القرون الوسطى وتميزت أيضا بوجود الملكيات الخاصة وبوجود الطبقات وأدوات الانتاج الرئيسية .

٤ - **مرحلة الرأسمالية** : أو مرحلة المجتمع الرأسمالى وهى النظام الذى تولد عن انتصار الطبقة البرجوازية وتحطيم النظام الاقتصادى الاقطاعى .

٥ - **النظام الاشتراكى** : أو مجتمع المستقبل الاشتراكى : وهو النظام الذى سيرث النظام الرأسمالى ويرى ماركس انه أولى خطوات الشيوعية التى ينشئ تحقيقها . ويرى ان النظام الاشتراكى حتمى الحدوث وفقا للمادية التاريخية ويتميز هذا النظام بسيادة طبقة واحدة أطلق عليها اسم طبقة البروليتاريا حتى يتم التحول للشيوعية وتختفى الطبقة نهائيا .



● كتبه ومؤلفاته :

تأثر ماركس بالظروف فى انجلترا - الدولة التى عاش فيها بعد نفيه من ألمانيا - حيث أدرك ان الأوضاع فيها فى ظل النظام الرأسمالى فى التصنيع تعتبر أكثر تدنيا مما ساد فى ألمانيا مما جعله يعمم تحليله ليس فقط من واقع ألمانيا ولكن أيضا من الظروف السائدة فى وقته وتعتبر أفكار ماركس متكاملة وتكون أساس ما يعرف « بالاشتراكية الثورية » التى درج على تسميتها « بالشيوعية » والتى تختلف عن غيرها من الاشتراكيات فى انها اشتراكية علمية كما أطلق عليها ماركس على خلاف الاشتراكيات المثالية : حيث تركز على فلسفة محددة وحتمية للتاريخ كما انها ثورية

حيث تختلف عن الاشتراكيات الديمقراطية التي تنبذ الثورة وتهدف الوصول الى الاشتراكية بوسائل تدريجية بدلا من الثورة التي جعلتها الشيوعية أساسا لتحقيق أهدافها ، وفى هذا المجال يؤكد ماركس رأيه قائلا : « ان المفكرين السياسيين طالما سعوا الى التعرف على العالم ولكن الفكرة الأساسية هي تغييره وليس التعرف عليه » .

والمتتبع منا لحياة ماركس يجد أن هناك ثلاث تيارات أثرت على أفكاره :

١ - الفلسفة الكلاسيكية الألمانية : حيث تأثر بمنهاج وفلسفة الفيلسوف الشهير هيغل Hegel .

٢ - الاشتراكية الفرنسية التي واكبت الثورة : فلقد تأثر بأفكار العديد من المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال « بابيف » و « سان سيمون » Sain Simon .

٣ - الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الانجليزى :

ولقد بدأ ماركس كتاباته الاشتراكية المحددة بالبيان الشيوعى « المانفيسستو » وقد وضعه بالاشتراك مع صديقه انجلز ، ولقد نشر هذا البيان فى ثلاثة وعشرين صفحة ، تنطوى على أفكار كل من ماركس وانجلز، مصاغة فى شكل مبادئ وخطط على قدر المستطاع بأسلوب يتميز بالحماسة والثورية والهجومية .

ولقد افترض ماركس هذا البيان بعبارته الشهيرة : « ان تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات ومعنى النضال بين الطبقات هو ان كل شعب يحتوى فئات مختلفة فى المعيشة والمستوى الثقافى وسائر المستويات الأخرى وان هذا التباين هو ما يولد المسيطر والمسيطر عليه . ومن هنا تنبعث هوة تؤدى الى الحرب الدائمة بين الطبقتين وان هذه الحروب لا تنتهى دئما الا بثورة أو بانهيار الطبقتين » .

ولقد تبع ذلك البيان ، كتاب هام هو مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى ثم تبعه بكتابه الأسطورة « رأس المال » ذلك الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع ، فلقد استودع ماركس هذا الكتاب خلاصة نظريته الاقتصادية وحللها تحليلا دقيقا وأوضح الطريق للوصول اليها .

وكتب ماركس أيضا عدة كتب أخرى منها : « الأيديولوجية الألمانية »

و « الصراعات الطبقيّة في فرنسا » و « بؤس الفلسفة » و « حول المسألة اليهودية مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيجل » و « الإقتصاد السياسى والفلسفة » و « العائلة المقدسة » ، « تاريخ المذاهب الفلسفية » .

هذا وقد عاش ماركس خمسة وستون عاما عانى فيها من الفقر والبؤس والمرض كأشد ما يكونوا ولقد رأى وهو بكامل صحته أول جزء من كتابه « رأس المال » بعد طبعه ، ولكن سرعان ما وهن القلم فى يده قبل ارساله المجلد الثانى والثالث الى المطبعة ، وفى السنوات العشر اللذين سبقوا وفاته عانى أشد المعاناة من المرض الى أن توفى عام ١٨٨٣ بمدينة لندن .

● رأس المال وقوانين التنظيم

الاقتصادى

فوجئ العالم الأكاديمى بالمجلد الأول من كتاب كارل ماركس « رأس المال » Daskapital عام ١٨٦٧ ، وقد صدره بمقدمة قال فيها : « هذا المؤلف الذى أعرض القسم الأول منه على أنظار الجمهور ، هو استمرار لكتابه المنشور عام ١٨٥٩ بعنوان « نقد للاقتصاد السياسى » .

ولم يمتد بماركس الاجل كى يخرج بقية الكتاب الذى يعتبر بحق أعظم مؤلفاته ، ووقع العبء على انجلز الذى راح يجمع المسودات وينقحها ويربط بين أجزائها ، وبذلك أخرج المجلدين الثانى والثالث فى عامى ١٨٨٥ ، ١٨٩٤ على التوالى ، ثم جاء كارل كاوتسكى فأشرف على اخراج المجلد الرابع وهو من ثلاثة أقسام ويتضمن عرضا للمذاهب الاقتصادية . وقد ظهر هذا المجلد باسم Theorien uber den mehwert خلال السنوات ١٩٠٤ - ١٩١٠ .

وكان لظهور المجلد الأول من هذا الكتاب حدثا هاما فى تاريخ الاشتراكية الدولية وفى حياة ماركس نفسه . وقد كتب على صورة بحث شامل فى قوانين التنظيم الاقتصادى للمجتمع الحديث وطريقة تكوينه ، يهدف الى وصف عمليات الانتاج والتبادل والتوزيع كما تحدث بالفعل ، وتفسير حالتها الراهنة بوصفها مرحلة بذاتها من مراحل النمو أوجدها حركة الصراع الطبقي ، أو فى عبارة ماركس نفسه « لاكتشاف قانون

الحركة الاقتصادية في المجتمع الحديث ، عن طريق كشف القوانين الطبيعية التي تحكم تاريخ الطبقات . وجاءت النتيجة مزيجا غريبا من النظريات الاقتصادية ومن التاريخ وعلم الاجتماع ، مزيجا لا ينطبق عليه أى نمط من الأنماط المألوفة . ولا شك في ان ماركس كان يعتبر مؤلفه هذا في جوهره بحثا في علم الاقتصاد ، فالاقتصاديون السابقون ، في رأيه ، قد أساءوا فهم طبيعة القوانين الاقتصادية عندما قارنوها بقوانين علم الطبيعة والكيمياء وافترضوا انه على الرغم من أن الظروف الاجتماعية قد تتغير فان القوانين التي تحكمها تبقى ثابتة لا تتغير ، وكانت النتيجة أن جاءت نظمهم اما منطبقة على عوالم خيالية يسكنها أشخاص حددت أنماطهم الاقتصادية على نسق المعاصرين للكاتب ذاته ، ومن ثم جاءوا عادة مزيجا من سمات لم تبرز بوضوح الا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، واما انها تصف مجتمعات اختفت منذ أمد بعيد ، اذا كانت قد وجدت أصلا . ومن ثم فقد رأى ماركس أن مهمته هي أن يبتكر نظاما جديدا من المفاهيم والتعريفات تنطبق بصورة محددة على العالم المعاصر وتوضع بحيث تعكس التكوين المتغير للحياة الاقتصادية ، لا في علاقتها بالماضى فحسب ، بل وفي علاقتها بالمستقبل كذلك . وقد حاول ماركس في المجلد الأول في وقت واحد أن يضع سردا منظما لنظريات أساسية معينة في علم الاقتصاد ، وأن يصور بصفة خاصة ظهور النظام الصناعى الجديد باعتباره نتيجة للعلاقات الجديدة بين أصحاب الأعمال والعمل التي خلقها تأثير التقدم الفنى على وسائل الانتاج .

ومن ثم فقد تناول المجلد الأول من « رأس المال » عمليات الانتاج ، أى العلاقة بين الآلة والعمل من ناحية ، والعلاقة بين المنتجين الفعليين (العمال وأولئك الذين يستخدمونهم ويوجهونهم) من ناحية أخرى . وأما المجلدات الباقية ، التي نشرها منفذو وصية ماركس بعد وفاته ، فقد تناولت الأساليب المستعملة في تسويق المنتجات المنتهية ، أى نظام التبادل والجهاز المالى الذى ينطوى عليه ، كما تناولت العلاقات بين المنتجين والمستهلكين التي تحدد سعر الفائدة والربح .

والفكرة العامة التي تتخلل المؤلف كله تشبه التي وردت في « البيان الشيوعى » ، وفي كتابات ماركس الاقتصادية السابقة . فهي تتبع ظهور البروليتاريا الحديثة عن طريق ربطها بالنمو العام للوسائل الفنية في الانتاج . اذ عندما تصبح هذه الوسائل ، خلال تطورها التدريجى ، أكثر كلفة وأكثر تعقيدا من أن يستطيع كل فرد تكييفها لاستعماله الخاص ، يسيطر بعض الأفراد ، عن طريق تفوقهم في المهارة والقوة والقدرة على

التنظيم . أو عن طريق حادث من حوادث المصادفة ، على الآلات والأدوات ، وهكذا يجدون أنفسهم فى مركز يسمح لهم باستئجار عمل الآخرين بأن يعرضوا عليهم مكافآت ، فى صورة أجور منتظمة ، تفوق ما يحصلون عليه كمنتجين مستقلين يحاولون دون جدوى تحقيق نفس النتائج بوساطة الآلات القديمة العديمة النفع التى لا يملكون سواها ، وهكذا أضحى هؤلاء الرجال بأنفسهم ، نتيجة بيعهم عملهم لآخرين ، سلعا فى السوق الاقتصادى لعملهم سعر محدد يتقلب كما تتقلب أسعار السلع الأخرى تماما .

والسلعة هى أى شئ يتضمن عملا بشريا عليه طلب اجتماعى ، فهى بذلك كما عني بإيضاحه ماركس فى كتابه ، مفهوم لا ينطبق الا على مرحلة حديثة نسبيا من مراحل النمو الاجتماعى ، وليس مفهوما أبديا ، شأنه فى ذلك شأن أى قالب اقتصادى آخر . وذهب ماركس الى أن القيمة التجارية للسلعة تتكون مباشرة من عدد ساعات العمل البشرى التى يقتضيها صنع نموذج متوسط من نوعها بيد منتج متوسط (وهى وجهة نظر مستمدة من مبدأ شبيه بذلك على حد ما قال به « ريكاردو » Ricardo والاقتصاديون الكلاسيكيون) . وقد ينتج عمل يوم واحد يقوم به عامل شيئا ذا قيمة أكبر من قيمة الحد الأدنى من السلع التى يحتاج اليها هذا العامل لسد حاجات المعيشة ، وهكذا ينتج شيئا أثمن مما يستهلكه ، بل هو اذا لم يفعل ذلك فلن يكون لدى سيده أى سبب اقتصادى يدعوه الى استخدامه . فان قدرته ، بوصفها سلعة فى السوق ، يمكن الحصول عليها مقابل مبلغ « س » الذى يمثل الحد الأدنى الذى تتطلبه المفاضلة على حياته فى حالة صحية تسمح له بأن يقوم بعمله بكفاية ، والبضائع التى ينتجها « ل » ، والفرق بين « س » و « ل » يمثل مدى ما أضفاه من زيادة على جملة ثروة المجتمع ، وهذا هو الفائض الذى يضعه صاحب العمل فى جيبه . وحتى استنزال المكافأة المعقولة مقابل ما يقوم به صاحب العمل بوصفه منظما ومديرا لعمليات الانتاج والتوزيع فسيظل هناك فائض ضرورى من دخل المجتمع يوزع ، فى رأى ماركس ، لا على المجتمع كله فى مجموعه ، بل يقتسمه فى رأيه - فى صورة ايجارات أو فوائد على الاستثمارات أو أرباح عمليات تجارية - أعضاء المجتمع الذين يطلق عليهم الرأسماليون أو البورجوازيون وحدهم ، وهم الذين يميزهم عن سائر أفراد المجتمع انهم وحدهم يحصلون ، بوصفهم الملاك الوحيدين لوسائل الانتاج ، على مثل هذه الزيادة التى لم يبذلوا فيها أى عمل ، ويكدسونها . وسواء فسر مفهوم ماركس فى القيمة على أنه يعنى سعر السوق الفعلى للسلع ، أو المعيار المتوسط الذى تدور حوله الأسعار ، أو الحد المثالى الذى تتجه نحوه الأسعار ، أو أنه السعر الذى يجب أن يكون فى أى مجتمع منظم على أسس

عقلية ، أو أنه شيء أكثر ميتافيزيقية وهيكلية بوصفه جوهرًا لا يدرك يضيفه العمل البشرى الخلاق على المادة الصماء ، أو هو ، كما يقول النقاد الذين لا يميلون إلى ماركس ، مزيج مشوش من هذا كله ، وسواء كانت فكرة الوجود الموحد الذى يسمى العمل البشرى « غير المميز » (الذى تتكون منه القيمة الاقتصادية تبعاً لهذه النظرية) والذى لا يمكن مقارنة تعبيراته المختلفة إلا من ناحية الكم وحدها ، صحيحة أو غير صحيحة — فليس من اليسير الدفاع عن الطريقة التى استعمل بها ماركس أى المفهومين — سواء كان هذا أو ذاك فإن نظرية الاستغلال التى تعتمد عليها تظل متأثرة نسبياً . والفكرة الأساسية التى اجتذبت العمال ، الذين لم يفهموا فى أغلب الأمر الدقائق المعقدة فى رأى ماركس عن العلاقة بين القيمة التبادلية والأسعار الفعلية ، هى أنه لا يوجد سوى طبقة اجتماعية واحدة ، هى طبقتهم ، تنتج ثروة أكثر مما تتمتع به ، وأن هذا الفائض يستولى عليه أشخاص آخرون لا شيء إلا بفضل مركزهم الاستراتيجى بوصفهم المالكين الوحيدين لوسائل الإنتاج ، أى للموارد الطبيعية والآلات ووسائل النقل والائتمان المالى وما إليها ، لأنه بدون هذه الوسائل لا يستطيع العمال أن ينتجوا ، بينما تمنح السيطرة عليها أولئك الذين بيدهم هذه السيطرة القدرة على إرغام بقية الجنس البشرى على التسليم بشروطهم تحت تهديد الموت جوعاً .

ويصور الكتاب الأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية على أنها أسلحة فكرية ومعنوية القصد منها تنظيم العالم لصالح أصحاب الأعمال . فان هؤلاء يستخدمون جيشاً من الايديولوجيين : من خبراء الدعاية والمفسرين والمدافعين والذين يتولون مهمة الدفاع عن النظام الرأسمالى وينمقونه ويخلقون حوله جواً أدبياً وفنياً الغرض منه زيادة الثقة والتفاؤل لدى أولئك الذين يستفيدون فى كنفه وجعل هذا النظام يبدو مستساغاً فى نظر ضحاياه . بيد أنه إذا كان تقدم الأساليب الفنية ، كما اكتشف « سان سيمون » (١) بحق ، قد منح ملاك الأرض ورجال الصناعة والمال — وكل نوع من أنواع الوسطاء — هذه القوة الفريدة لفترة ما ، فان تقدمها الذى لا يمكن التحكم فيه سوف يدمرهم بنفس الحتمية .

بعد ذلك يفرق ماركس بين جزأين من رأس المال ، وهما رأس المال الثابت constant الذى ينفق على وسائل الإنتاج (المباني ، الآلات ، المعدات ، الوقود ، المواد الأولية الخ) ، ورأس المال المتغير variable capital

(١) سان سيمون : فيلسوف اجتماعى فرنسى (١٧٦٠ - ١٨٢٥ م) .

الذى ينفق على قوة العمل (الأجور) ، ولكل من هذين الجزأين دور مختلف فى انتاج فائض القيمة . فوسائل الانتاج لا تخلق أية قيمة عن طريق اشتراكها فى عملية الانتاج ، بمعنى ان قيمة رأس المال الثابت تنقل بصورة كلية أو جزئية الى المنتج التام الصنع . أما رأس المال المتغير فينمو عن طريق خلق فائض القيمة فى أثناء عملية الانتاج . ونسبة فائض القيمة الى رأس المال المتغير تمثل درجة استغلال رأس المال للعمل ويقال لها معدل فائض القيمة النسبى . ويتحقق هذا الفائض المال الكلى (الثابت + المتغير) تمثل معدل الربح . .

ويحدث نمو فائض القيمة بطريقتين ، أولهما اطالة يوم العمل ويطلق ماركس عليه اسم فائض القيمة المطلق . أما الطريق الثانى فيتمثل فى انقاص وقت العمل الضرورى ، ويسمى هذا فائض القيمة النسبى . ويتحقق هذا الفائض النسبى عن طريق زيادة انتاجية العمل ، فكلما زادت انتاجية العمل وانخفضت قيمة المنتجات قل وقت العمل الضرورى وبالتالي زاد وقت العمل الفائض ، وهذه هى الزيادة التى تحدث فى تلك الفروع من الصناعة التى تصنع للعمال تلك الضرورات للحياة التى تحدد قيمة قوة العمل . كذلك يحدث الخفض فى وقت العمل الضرورى نتيجة لازدياد انتاجية العمل فى الفروع التى تنتج وسائل الانتاج التى تستخدم فى عمل السلع الاستهلاكية .

وقد يحاول الرأسماليون الفرديون أيضا الحصول على مزيد من فائض القيمة اذا أدخل أحدهم تحسينات فنية لا يستخدمها الآخرون ، وبهذا فالرأسمالى الذى يستخدم أساليب تكنولوجية متقدمة يحصل على فائض قيمة يزيد عن المعدل المعتاد . ولكن المنافسة ترغم الآخرين على أن يحذوا حذوه بأن يدخلوا فى عملياتهم الانتاجية تحسينات فنية .



وعندما حلل ماركس خلق فائض القيمة النسبى بحث ثلاثة مراحل تاريخية من زيادة انتاجية العمل فى ظل الرأسمالية ، وهى :

١ - التعاون البسيط .

٢ - والصناعة اليدوية .

٣ - والصناعة الآلية الكبيرة .

والتعاون البسيط الرأسمالى هو تركيز عدد كبير من العمال الأجراء تحت اشراف أحد الرأسماليين حتى يصنعوا نفس النوع الواحد من المنتج .

ان الانتاج يقوم على تكتيك الحرفة اليدوية ، وليس فيه تقسيم للعمل ،
ولكن تجميع مثل هذا العدد الكبير من العمال يحدث زيادة فى الانتاجية •

والصناعة اليدوية هى تعاون رأسمالى مبنى على تقسيم العمل ولكنه
لا يزال مرتكزا على تكتيك الحرف اليدوية • هذا النوع يجعل فى الامكان
رفع انتاجية العمل بالقياس الى التعاون البسيط ، ولكنه لم يتمكن من
القضاء على الانتاج الصغير ومن أن يصبح الشكل الغالب من الانتاج غير
ان الرأسمالية استطاعت أن تحقق السيادة الكاملة حين انتقلت الى الصناعة
الآلية •



هذا وقد تنبه ماركس فى كتابه « رأس المال » بأن الأزمات الدورية
الناجمة عن الاقتصاد الذى يعوزه التخطيط وعن الصراع الصناعى الذى
لا ضابط له ، لابد بالضرورة أن تزداد فى عددها وحدتها ، ولابد من قيام
حروب على نطاق واسع لم يعرف لها مثيل من قبل تدمير العالم المتمدن
الى أن يتحقق فى النهاية حل عنيف لمتناقضات النظام الهيجلى (٢) التى
يعتمد استمرارها على صراع يتزايد أثره المدمر باستمرار بين الأجزاء التى
يتكون منها • وسوف ينتهى أمر مجموعة الرأسماليين الذين يأخذ سلطانهم
السياسى فى التناقص باستمرار ، عندما يخلعهم العمال الذين يكون هؤلاء
الرأسماليون أنفسهم قد دربهم تدريبا ممتازا وجعلوا منهم هيئة متساندة
منظمة • وباختفاء آخر الطبقات المالكة ينتهى نهائيا الصراع بين الطبقات
الذى هو وحده السبب الكافى فى الندرة الاقتصادية والتشاحن
الاقتصادى •

ويقول ماركس فى نبذة مشهورة وردت فى الفصل الثانى والعشرين
من المجلد الأول من كتاب « رأس المال » : « بينما يتناقص عدد أقطاب
الرأسمالية بصورة متزايدة تكون هناك بطبيعة الحال زيادة مماثلة فى
مجموع الفقر والاستعباد والامتهان والاستغلال ، ولكن دور الطبقة العاملة
يزداد قوة باطراد فى نفس الوقت - وهى الطبقة التى يزداد عددها
باستمرار ، وتدريبها وتوحيدها وتنظيمها نفس آلية الأسلوب فى الانتاج
الذى ازدهرت معه وفى ظله • الى أن يبلغ تركيز وسائل الانتاج وازدياد

(٢) هيجل : فيلسوف ألماني (١٧٧٠ - ١٨٣١) ، فلسفته مثالية مطلقة • وفلسفة
هيجل أثر كبير على ماركس الذى أقام مذهب المادية الجدلية على أساس منطق الجدول الهيجلى •

عدد العمال نقطة يصبحان فيها غير متناسبين مع الاطار الرأسمالى الذى يوجدان داخله . وهنا ينفجر هذا الاطار ، فتدق الأجراس معلنة نهاية الملكية الخاصة ويجرد الذين كانوا يجردون غيرهم .

أما الدولة ، وهى الأداة التى كانت تستعمل فى فرض سلطة الطبقة الحاكمة بطريقة مصطنعة فستختفى بعد أن تكون قد فقدت وظيفتها ، وأخيرا نصل الى المجتمع المثالى ، الذى طلاه أصحاب المدن الفاضلة فى الماضى بألوان أكثر خيالا وأكثر بساطة مما ينبغى ، مجتمع لا سيد فيه ولا عبد ، لا غنى ولا فقير ، مجتمع تنتج سلع العالم فيه وفقا للمطالب الاجتماعية ولا تعرقل فيه نزوات الأفراد انتاجها ، ويتم توزيعها ، لا بالتساوى - فهذه فكرة عرجاء أخذها العمال عن الأيديولوجيين التحرريين بمفهومهم النفعى عن العدالة بوصفها مساواة حسابية - بل على أساس عقلى ، أى على غير مساواة : لانه كما تختلف حاجات الانسان وقدراته ، فان جزاءه ، اذا أراد أن يكون عادلا ، يجب أن يكون وفقا للقاعدة التى جاءت فى « البيان الشيوعى » « لكل حسن حاجته ، ومن كل حسب قدرته » . ويبدأ الناس ، وقد تحرروا أخيرا من طغيان الطبيعة وطغيان أنظمتهم التى أسىء تكييفها وأسىء الاشراف عليها فاستبدت بهم ، فى تنمية قدراتهم الى أقصى حدودها . وهكذا تتحقق الحرية الحقيقية التى أشار اليها هيجل فى كثير من الغموض . وعندئذ فقط يبدأ التاريخ البشرى بمعناه الحقيقى .



هذا الذى قدمناه خلاصة مسرفة فى الايجاز لم نقصد بها سوى التعريف بأهم الأفكار التى تضمنها هذا الكتاب الذى أثر فى التاريخ المعاصر بأكثر مما أثر أى كتاب آخر ، بل أن أثره يعادل تحطيم الذرة بالنسبة الى العالم الفيزيقي .

● الكتاب الذى قامت باسمه الثورات

هذا وقد هيا ظهور كتاب « رأس المال » آخر الأمر أساسا فكريا محددا للاشتراكية الدولية بدلا من تلك المجموعة المبعثرة من الآراء الغامضة المتعارضة . وقد كشف هذا الكتاب الضخم عن الاعتماد المتبادل بين كل النظريات الاقتصادية التاريخية والنظريات السياسية التى بشر بها ماركس

وانجلز ، كل منهما على الأخرى ، وأضحى هدفا يتركز حوله الهجوم والدفاع على السواء . وأصبحت جميع صور الاشتراكية اللاحقة تعرف على ضوء موقفها من الوضع الذى يرسمه . وتفهم وتقسم بالنسبة لأوجه الشبه بينها وبينه . ولم يلبث بعد فترة قصيرة من الركود أن بدأت شهرته تنمو حتى بلغت حدا غير عادى ، واكتسب قيمة رمزية أكثر من أى شئ آخر كتب منذ عصر الايمان ، بل لقد أصبح هذا المؤلف موضع تقديس أعمى وموضع حقد أعمى أيضا من ملايين من الناس الذين لم يقرأوا منه حرفا واحدا . أو هم قرأوا أو لم يفهموا أسلوبه ، وقامت باسمه ثورات فلم تلبث الثورات المضادة أن حشدت جهودها لمصادرتة باعتباره أقوى أسلحة العدو مضيا وأشدّها خداعا . وقام نظام اجتماعى جديد يعتنق مبادئه ويرى فيه تعبيرا نهائيا لايمانه الذى لا يتغير . وأدى الى ظهور جيش من المفسرين وأصحاب الفتاوى الذين بذلوا جهودا لا تنقطع قرابة ثلاثة أرباع قرن دفنت الكتاب الأصيل تحت جبل من التعليقات التى بز أثرها هذا السفر المقدس نفسه .

أما فى حياة ماركس نفسه فقد كان نشر الكتاب لحظة حاسمة . لقد قصد من كتابه أن يكون أعظم ما أسهم به فى تحرير البشرية ، فضحى من أجله بخمسة عشر عاما من حياته وبكثير من طموحه ومطامعه ، نعم ، فلقد كان الجهد الذى بذله فى تأليفه ضخما حقيقة . ومن أجله تحمل الفقر والمرض والاضطهاد الشخصى والعالم ، عانى كل ذلك لا بسرور طبعا ، ولكن بطريقة رواقية فيها من القوة والخشونة ووحدة الهدف ما أثر فى كل من اتصل به وأضافه .

وقد علقت زوجته على هذا الكتاب بقولها : انها كانت تفضل أن يكون لزوجها رأس مال ، بدلا من الكتابة عن رأس المال . . !
ولسنا نعدو الواقع اذا قلنا أن « رأس المال » أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، بل انه كتاب بدأ عملية تغيير مجرى التاريخ .





(١٣) النظرية النسبية

أينشتاين

النظرية النسبية لأينشتاين ١٩٠٥ م

أعظم قانون عرفه البشر

في صمت وهدهوء أحدث أينشتاين ثورة هائلة في العلم .. ثورة أذهلت العالم . قلبت في العقل البشري مفاهيم الزمان والمكان والحركة والمادة والطاقة وغيرها .. بل انها امتدت الى اعادة تشكيل نظرتنا الى المستقبل .

ولا أظن ان أحدا استطاع أن يحدث أثرا في العلم أعظم مما فعل ألبرت آينشتاين .. لقد أحدث ثورة عميقة في مجال علم الفيزياء سوف تمتد آثارها بغير شك الى أجيال أخرى قادمة .. وهي بغير تجاوز حدود الموضوعية والأمانة تعد ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مفاهيم ومدلولات .

فقد كان لما جاء به آينشتاين الفضل الأول في تلك الطفرة العلمية التكنولوجية التي شهدتها العالم في الربع الأخير من هذا القرن . ولا أعتقد اننى في حاجة الى الحديث عن آثار هذه الطفرة العلمية التكنولوجية في

مختلف مجالات الحياة • فنحن نعيش وسط ما نحققه من معجزات علمية تتدفق كطوفان هادر من حولنا كل يوم ، ومن ثم فإن ما أحدثه آينشتاين فى تاريخ البشرية هو ثورة بحق وبصدق وبغير ادعاء •

ولقد وضعه برناردو شو مع عدد قليل من عظماء التاريخ فى مكانة سامية ، ووصفهم بقوله : « انهم بناء التاريخ والعالم » • وقال عنه أعظم الكتاب العلميين فى انجلترا وهو ج • صلفين « انه أحد ثلاثة فقط فى تاريخ العلم يجلسون على القمة » • بل لقد وصفه بعض العلماء الذين يعرفون قيمة نظرياته العلمية بأنه « انسان فوق مستوى البشر » •

وقد يملأنا العجب اذا علمنا انه قد كتب عن آينشتاين منذ نشأته الاولى سنة ١٩٠٥ وحتى سنة ١٩٥٢ وقبل وفاته بثلاث سنوات ٤٣٠٠ كتاب كامل ولا يدخل فى هذا العدد الكتب التى وردت فيها اعمانه العلمية وهى تعد بعشرات الآلاف !!

● جذور العبقرية

واذا أردنا أن نحدد ملامح العبقرية عند آينشتاين • نجد انها مؤلفة من عناصر مختلفة ومتناقضة :

ثورة على التقاليد •• قدرة على النقد الصائب ونقد لنفسه ونظرياته •• حب الهدم والعناية بالبناء •• نظرة شاملة للأمور تتناول جميع نواحي الموضوع وتسعى الى تفسير عام شامل على أساس علمى واحد •• خيال خصب وقدرة مذهلة على التركيز •

وساعد على ذلك الظروف التى نشأ فيها آينشتاين • فقد ولد فى يوم ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ فى مدينة أولم بألمانيا – وهى نفس المدينة التى ولد فيها القائد الالماني الاسطورى روميل – وكانت طفولته لا تنبئ بأدنى قدر من العبقرية • فقد بدا طفلا متخلفا بدرجة هائلة • وظل عاجزا عن الكلام حتى بلغ الثالثة من عمره •

وفى سنوات عمره الاولى لم تكن هناك أية ملامح نبوغ تبدو عليه • كان متباغبا يثير المتاعب لمدرسيه بكثرة أسئلته والى الحد الذى قال له مدرس يوما ما : « أنت لن تفجح مطلقا فى حياتك •• ولن تكون شيئا على الإطلاق •• »

ولكن المدرسين لم يعرفوا آينشتاين جيدا •

وهو فى الخامسة من عمره عشر على بوصة صغيرة . . أذهله هذا الجهاز الصغير - ما هى القوة التى تجعل الابرّة تأخذ هذا الاتجاه دائماً . كان متدينا الى درجة كبيرة خلال سنوات عمره الأولى . . فى السادسة عشرة من عمره استنبط أول نظرية جديدة . . ليس فى المعمل ولكن فى عقله . . دارت النظرية حول انتقال الضوء . . فى هذه الفترة كانت العقول الضخمة تؤمن ان الضوء مادة . . تنتقل كما تنتقل المواد الأخرى . . ولكن آينشتاين كان أول من تصور أن انتقال الضوء مختلف وأنه ينتقل فى شكل موجات . .

كان والده قد افتتح محلا تجاريا فى ألمانيا ولكن تجارته فشلت . . فقرر الأب أن يزاوّل نشاطا تجاريا آخر فى إيطاليا . .

وجد آينشتاين نفسه مضطرا الى ترك المدرسة والى ترك جنسيته الألمانية أيضا . . كان طالبا فى مدارس ميونيخ . ثم قرر الالتحاق بمعهد التكنولوجيا فى زيوريخ . رسب فى الامتحان . لم يحصل على الدرجات المطلوبة فى علم الحيوان واللغات . دخل مدرسة خاصة لرفع مستواه فى هذه المواد . . ثم عاد بعد عام للمعهد التكنولوجى . .

ولكن ثورته الداخلية كانت مستمرة . لم يكن يحضر الدروس ولا يستمع الى المحاضرات . كان يقرأ فقط ما يمتعه وما يستهويه من المواد العلمية . كان مصرا على البقاء فى المعمل بدلا من الذهاب الى قاعة المحاضرات . وصف مدرس الرياضيات هرمان منيوسكى . الطالب آينشتاين خلال هذه الفترة بأنه كالكلب الكسول ! فى نهاية العام . . طلب آينشتاين من زميل له أن يقدم له كراسية المحاضرات . . بهذه الكراسية وبقراءة ما فيها بسرعه وعلى عجل نجح آينشتاين فى امتحان نهاية العام . ولكى يتخرج من المعهد سنة ١٩٠٠ كانت درجاته ضعيفة لهذا لم يحصل على منصب فى المعهد ولم يصبح بين هيئة البحث أو التدريس فقرر أن يكسب عيشه من خلال حل المسائل الرياضية كباحث فلكى . فى سن الثالثة والعشرين عثر آينشتاين على وظيفة ممتحن فى هيئة تراخيص فى مدينة برن بسويسرا . كان اسم الوظيفة هو « خبير تكنولوجى » من الدرجة الثالثة . .

ويقول آينشتاين : وقد أنقذت هذه الوظيفة حياتى . . ذلك لانه من خلالها وجدت المأكل والمسكن - وعرفت زميلتى - كان اسمها ميلكا ماريك . . تزوجتها . . ومن خلال فحصه لبراءات الاختراع الجديدة عرف الكثير واستطاع أن يفرق بسهولة بين ما هو حقيقى وما هو زائف !

ورفعه هذا العمل بالذات الى التفكير فى علوم الطبيعة « الفيزياء » . .
كان لديه الكثير ليفكر فيه . نظريات نيوتن للجاذبية . وقد دخلت القرن
الثانى من عمرها . لم تكن هذه النظريات كافية عند آينشتاين لتفسير
العديد من الظواهر .

وفى نهاية القرن التاسع عشر - كانت نظريات نيوتن تعاني من
فجوات حادة . . مثلا . . يقول نيوتن : أن الضوء جزئيات . أو موج من
الجزئيات . . ولكن التجارب أكدت ان الضوء ليس جزئيات ولكنه موجات . .
بل ان عالمين هما سكوت جيمس ماكسويل وميشيل فاراداي Faraday
قد أعلنوا أن المغناطيسية الكهربائية والضوء لا يخضعان لنظريات نيوتن ! . .
ولكن اذا كان الضوء موجات فكيف ينتقل ؟

الكون حول الارض فراغ . لكى ينتقل الضوء من الشمس للأرض
لا بد من شئ ينتقل من خلاله . . لابد أن هناك شيئا ما ينتقل لها . . لهذا
سماها العلماء : الأثير . . ! والموجات هى موجات الأثير . . !

ولكن لابد لصحة النظرية من اثبات وجود هذا الشئ الذى سموه
الأثير . . لابد من العثور عليه . . لابد من الامساك به . . فحص خواصه . . !
لابد من معرفة مصدره وسببه . . !

قال عالم اسمه ألبرت هيكلسون وزميل له اسمه ادوارد مورلى
morley انهما أجريا تجربة هامة عام ١٨٨٧ تأكدا من خلالها من وجود
الأثير . . قال : ان الأرض تدور حول الشمس بسرعة تصل الى ٣٠
كيلومترا فى الثانية . . وهذه الحركة فى حد ذاتها هى التى تولد الأثير . .
والتجربة هى أنه حينما يسير شخص يركب دراجة فانه يحس بنىء
بارد يلفح وجهه . هذا الشئ غير موجود لو كان الشخص واقفا على قدميه
بدون دراجة . . لابد أن هذا الشئ هو الأثير !

واستمر العالمان فى تجاربهما وفرحا بنتيجة هامة ومؤكدة . . وهى
انه ليس هناك شئ اسمه الأثير !

واستمرت الآراء تتدفق عن نظرية نيوتن ، حتى جاء آينشتاين ليقدم
وهو فى السادسة والعشرين الاجابة المقنعة . . وهى نظرية النسبية . .

كان ذلك فى عام ١٩٠٥ . . وفى بحثين لم يلتفت اليهما كثير من
العلماء يومها جاءت النظرية الهامة . البحث الاول والثانى لم يكن لهما
اسم نظرية النسبية - كان الاول بعنوان « حول الديناميكا الكهربائية
للأجسام المتحركة » .

رفض آينشتاين تماما فكرة الأثير من أساسها . . . قال : ان الضوء يسير بسرعة ثابتة لا تتغير مهما تحرك مصدر الضوء . . . أى ان حركة المصدر لا تؤثر على سرعة الضوء مطلقا - لو انطلق الضوء من جسم ثابت فان سرعته هى نفسها سرعة الضوء المنطلق من طائرة سريعة !

شئ يصعب تصوره . . . ! ليس هذا فقط - بل ان آينشتاين قال : ان نيوتن أخطأ حين تصور ان الوقت شئ مطلق وأنه ليس مرتبطا بشئ آخر - وهو يتدفق من الماضى نحو المستقبل . قال ان الوقت شئ نسبى . .

قال آينشتاين ان نيوتن أخطأ حينما قال ان وحدات القياس ثابتة . . . والصحيح أن وحدات القياس نسبية أيضا ! وان الثابت الوحيد فى الكون هو سرعة الضوء . . !

الوقت نسبى ! المكان نسبى . . ! والمساحة نسبية . . ! والمادة نسبية . . !

والثابت الوحيد : سرعة الضوء !

كيف هذا . . ؟!

● النسبية الخاصة

RELATIVITE RESTREINTE

فى هذا البحث أدمج آينشتاين بعبريته الزمان والمكان ، واعتبرهما وحدة لا غنى للواحد منها عن الأخرى ، فليس لك أن تتحدث عن الزمان دون المكان ولا عن المكان دون الزمان ، ولا يعتقد القارىء ان هذا مجرد رياضة للفكر أو فلسفة لا أثر لها على حياتنا ، فقد استنتج آينشتاين من هذه الوحدة أعظم قانون عرفه البشر ، وذلك ان المادة هى الطاقة وان الطاقة هى المادة وأوجد المتساوية التى نعرف بمقتضاها قدر الطاقة من قطعة من المادة أيا كان نوع هذه القطعة ، علاقة أدخل فيها مربع سرعة الضوء ، كذلك أكد ان الطاقة بدورها يمكن أن تتحول الى مادة ، وقد خلق أخيرا « لورانس » Lawrence فى أمريكا بروتونا وهو أحد جسيمات نواة الذرة من الطاقة ، وعلى هذا الأساس فان هذا القلم الذى أخط به هذا

الكتاب هو مادة وهو اذن طاقة ، وهذه الورددة الجميلة التى أمامى هى مادة ، ولو أمكن تحويلها بأكملها الى طاقة لأمكن أن نسير بها قاطرة من القاهرة الى أسوان ونعود بها الى القاهرة ، ويتبقى من طاقتها ما قد نستطيع أن نسير بها هذه القاطرة مرات أخرى .

وهذه النسبية الأولى علمتنا أن سرعة الضوء هى سرعة كونية لا يجوز النحدث عن سرعة تعلوها ، وان انتقال الضوء فى غير حاجة الى هذا الأثير الذى فرضه العلماء لتفسير انتشار الضوء وسيران الكهرباء .

ترى ما الذى حدا بآينشتاين وهو فى السادسة والعشرين من سننى حياته أن يدخل بشاغب فكره فى قضية الزمان والمكان ؟ ما الذى حدث فى زمانه وقبل زمانه أى قبل سنة ١٩٠٥ ، السنة التى نشر فيها أول نشراته عن النسبية ، ليحمله على أن يتأمل موضوع حقيقة الزمان والمكان ويتعمق فيهما بطريقة لم يتعمق فيهما غيره من قبل .

ما هو الحادث الذى أثاره وجعله يفكر فيخرج على العالم بالنسبية التى هزت العالم هذا ؟ ما هى المسألة التى حاول أن يتعرض لها فى هذه السنة المثمرة سنة ١٩٠٥ ، فلما أصاب فى حلها كتب له الخلود .

هذا الحادث كان خاصا بالتجربة التى يعرفها كل من جلس فى صفوف الدرس وهى تجربة « ميكلسون » (١) و « مورلى » (٢) .

كانت أول تجربة لميكلسون – التى اشرنا اليها – لاثبات سرعة الأرض فى الأثير ، هذا الوسط الفرضى الذى يملأ الكون ، وقد أجراها سنة ١٨٨١ فى بوتسدام بألمانيا وكان عمر آينشتاين سنتين ! .

كانت النتيجة السلبية فى تجربة ميكلسون ومورلى عجيبة بالنسبة للعقيدة العلمية السائدة والمتأصلة من أن الأرض والكواكب تتحرك فى الأثير ، وهكذا خلقت التجربة موضوعا محل دهشة العلماء فى كل بقاع الأرض .

ولقد أعيدت التجربة التى أعطت هذه النتيجة الغريبة بواسطة مورلى والعالم الكبير ميلر miller سنة ١٩٠٢ وأعطت النتيجة السابقة . ولو أننا اعتبرنا ان شعاع الضوء يسير مرة مع اتجاه سير الأرض

(١) ميكلسون : البرت ابراهام ميكلسون : استاذ فى جامعة شيكاغو بامريكا حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٧ وتوفى عام ١٩٣١ .
(٢) مورلى : استاذ الفيزيكا اشترك مع ميكلسون فى تجربته الخالدة التى شرحناها .

ومرة في الاتجاه المضاد ، فباعتبار ان سرعة الضوء هي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية وسرعة الأرض هي حوالى ٣٠ كيلو متر في الثانية فالمفروض في هذه التجربة الأخيرة أن تكون النتيجةان ٣٠٠ ألف + ٣٠ « ٣٠٠ ألف - ٣٠ » .

قد يقول القارئ ان فارق السرعتين وقدره ٦٠ كيلو متر في الثانية بنسبة سرعة الضوء وهي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية بسيط جدا لدرجة أن يكون هناك ما يسمونه الخطأ التجريبي اذ ان النسبة هنا هي ٦٠ على

٣٠٠ ألف أى ——— . ولكن كل هذا أخذ في محل الاعتبار ، وان
٥٠٠٠

القياس كان دقيقا للغاية .

وانتظر العالم في حيرة الى أن جاء أينشتاين سنة ١٩٠٥ وبعد التجربة السابقة برقع قرن بتفسير رائع فوضع للزمان والمكان تعاريف جديدة ووضع لسرعة الضوء تعريفا ثابتا لا يتعلق بالمركبة التى تحمله .

وفي هذا رفض أينشتاين فكرة المكان المطلق كما رفض أيضا فكرة الزمان المطلق ، وكان ذلك سببا مباشرا ليكتشف أعظم قانون في الوجود وهو علاقة المادة بالطاقة ، ولا نود أن ندخل في المعادلات الصعبة الخاصة بهذا البحث ، وانما نذكر أن أينشتاين وصل الى هذه النتيجة الباهرة بتعليل بسيط ، فقد اعتبر ان كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد سرعته ، وحيث أن الحركة هي نوع من أنواع الطاقة فان مقدار الكتلة الزائدة للجسم المتحرك تنتج من طاقته الزائدة ، وبالاختصار فان للطاقة كتلة ، وقد استطاع أينشتاين ايجاد مقدار الكتلة المعادلة لوحددة الطاقة ، واستنتج من ذلك أن :

$$\text{الطاقة} = \text{الكتلة} \times \text{مربع سرعة الضوء} \cdot \cdot$$

أى ان الطاقة المخزنة في أى جزء من المادة تعادل مقدار كتلة المادة مقدره بالجرام مضروبة في مربع سرعة الضوء مقدره بالسنتيمتر في الثانية .



ومنذ أن طالع أينشتاين مع الفهم والوعى والتعمق نتائج تجربة « ميكلسون » و « مورلى » بدأ يراجع عقيدته في الزمان والمكان .

منذ القدم والعلماء يعتبرون المكان والزمان شيئين مستقلين ومنفصلين. تماما بعضهما عن بعض ، واذا رجعنا الى ما سطره نيوتن نجد انه عرفهما كما يأتى :

« المكان المطلق ودون الرجوع الى شىء خارجى يظل أبدا الدهر متشابها وساكننا - الزمان المطلق يسرى بانتظام على الدوام دون الرجوع الى شىء خارجى » .

ولقد أدرك أينشتاين ان حادثين يفصل بينهما فاصل مكاني يمكن ان يؤدي بهما هذا الانفصال المكاني الى وجود فرق زمنى بينهما عند رصدهما من جهاز آخر فى حالة من الحركة .

وهكذا برهن أينشتاين فى النسبية الخاصة بما لا يقبل الشك بانه من الخطأ الاعتقاد بوقوع حادثتين فى وقت واحد فى عالم غير متصلة اجزائه .

وكان من الضرورى ايجاد قاعدة جديدة للمحصلات فى الميكانيكا عند التحدث عن السرعة فى الاتجاهات الثلاثة المعروفة يدخل فيها عامل الزمن وسرعة الضوء ، كذلك فى حالة كتله من المادة فى حركة عندما يقارن الباحث وصف مجموعتين متحركتين - وقد وجد أينشتاين ضالته وأكد ان الزمن والمسافة كميتان متغيرتان ، فالساعة تؤخر كلما زادت سرعة الجسم ، ولكن المسطرة تنكمش ويقل طولها فى اتجاه حركتها ، فاذا وصلت الى سرعة الضوء كان طولها صفرا أى انها تنعدم أما الساعة فانها تقف تماما .

وذكر ان العادة هى التى أملت علينا معتقداتنا الاولى الخاطئة ، ناك الأخطاء التى هى من رواسب رسخت فى عقولنا فى سن المراهقة .

وهكذا بينت النظرية النسبية الخاصة ان الفضاء والزمن شيان سببان يتغيران بحركة الشخص المراقب وكان من نتيجتها اولى انتصارات أينشتاين من أن المادة هى الطاقة ويمكن ان تتحول اليها وان الطاقة هى المادة ويمكن أن تتحول اليها .



● النسبية العامة

LA RELATIVITE GENERALE

بعد أن حكمت العلوم قوانين نيوتن المعروفة في الحركة وفي الجاذبية قرنين من الزمان سمحت لأمثال « لاجرانج » والذين أخذوا عنه و « لابلاس » و « فرنل » و « كوشي » والذين تتلمذوا عليهم بتوسيع فروع العلوم المختلفة والوصول الى تطبيقات غاية في الروعة للميكانيكا النيوتونية ، والذين رغم جهودهم وذكائهم الخارق ظل التفسير الميكانيكي للكون غير مفهوم ، حتى ان قانون الجاذبية لنيوتن الرائع في تطبيقه السهل في معرفته لم يصبح مفهوما في القرن الذي نعيش فيه ، اذ كيف ان الجاذبية تنتقل من جسم الى آخر دون وسط ينقلها وفي غير ما زمن ، الأمر الذي تراءى لآينشتاين انه غير معقول .

كان قانون الجاذبية عند نيوتن يصف أن جسمين يجذب بعضهما الآخر بقوة تساوي حاصل ضرب كتلة الجسمين مقسوما على مربع المسافة بينهما دون فهم للزمن الذي يمر لتصل قوة الجذب من أحدهما للآخر ولا للوسط الذي تنتقل فيه هذه القوة .

أما قانون الجاذبية عند آينشتاين فهو لا يشمل الاشارة الى أي قوة بل يصف سلوك الأجسام في الكون أو في « الفضاء زمن » سلوكا يحتمه وجود المادة في الكون ، وقوانين آينشتاين الجديدة تصف خواص المجال المتصل « الفضاء زمن » وقد أمكن تفسير بعض الظواهر الفلكية بالطريقة الجديدة ولم يمكن تفسيرها بقوانين نيوتن .

مثال ذلك ملاحظة خاصة بمدار كوكب المريخ الذي يدور في شكل القطع الناقص ولكنه يتقدم بمقدار ٤٣ ثانية في الزوايا أي في القوس كل قرن من الزمان كذلك عطارد أقرب الكواكب الى الشمس فان له فوق دورانه حول الشمس ذبذبة بسيطة وبطيئة فسرتها رياضيات آينشتاين ولم تفسرها رياضيات نيوتن وهي الظاهرة المعروفة باسم ذبذبة عطارد .

ولقد كان ثاني انتصار لآينشتاين تنبؤه بظاهرة كونية جديدة لم يحلم بها عالم من قبل ، وهي تأثير وجود الأجسام على الضوء الذي هو في الواقع تعديل لفكرة الجاذبية .

لقد علمنا من النسبية الأولى ان الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء ، وباعتبار ان الضوء نوع من الطاقة أي ان للضوء

كتلة لذلك فانه يجب أن يتأثر في مجال الجاذبية أى بجوار الأجسام ،
فينشأ عن ذلك انحراف الشعاع بجوار الكتلة .

وقد استطاع آينشتاين أن يستنتج من هذه الاعتبارات ان الضوء
مثل أى جسم مادي ينحرف عند مروره في مجال الجاذبية جسم ذى كتلة،
واقترح لاختبار صحة نظريته ملاحظة مسار شعاع ضوئى صادر من نجم
بعيد عندما يقترب الشعاع من الشمس ، ولما كانت النجوم لا ترى نهارا
فلا توجد الا فرصة واحدة لرؤية الشمس والنجوم معا فى السماء وذلك
عند كسوف الشمس ، ورأى أن تؤخذ صور للنجوم القريبة من الوجه
المظلم للشمس أثناء كسوفها ، وتقارن بصور نفس النجوم فى وقت واحد
وبعد الكسوف .

وقد حسب آينشتاين ان درجة انحراف الشعاع ستكون ١.٧٥ ثانية
فى الزوايا من القوس ، وانتظر العلماء فى كل أنحاء العالم على لهف نتائج
بعوثهم التى سافر خمسة منها الى المناطق الاستوائية لتصوير كسوف
الشمس الذى حدث فى يوم ٢٩ مايو سنة ١٩١٩ ، ووجدوا أن انحراف
أشعة النجوم بلغ حوالى ١.٦٤ ثانية فى مجال جاذبية الشمس ، وهو مقدار
قريب جدا من نبوءة آينشتاين ، ويتفق فى حدود الخطأ التجريبى ، ولعل
هذا أكبر انتصار شهده عالم معاصر فى حياته .



وهكذا أصبح آينشتاين بطل العلم ، وقد خصصت فى الولايات
المتحدة الأمريكية جائزة قدرها ٥٠٠٠ دولار للمخلص النظرية النسبية ،
لا يتجاوز حجمه ٣٠٠٠ كلمة . وقد دهش آينشتاين ، وعبر عن دهشته
قائلا : « اننى فى الحقيقة لا أدري كيف أن بعض الشخصيات النادرة فى
أرجاء العالم ، بعد كتابة عدد قليل من البيانات ، هم وحدهم الذين قدروا
ما وصلت اليه من شهرة » .

وتتويجا لهذا المجد ، منح آينشتاين جائزة نوبل للسلام ، وقد بادر
بتوزيع قيمة الجائزة (٤٥٠٠٠ دولار) مناصفة بين زوجته واحدى
الجمعيات الخيرية . ولم يتأثر آينشتاين بما أحرزه من نجاح ، واعتبر
نفسه مجرد خادم متواضع للبشرية . وهو فى ذلك يقول : « ان الاهتمام
بالإنسان وبقدره ، يجب أن يكون دائما فى المحل الأول بين جميع الجهود
الفنية . ان الحياة التى تكرر للآخرين ، هى وحدها الجديرة بأن تحيا » .

ثم واصل آينشتاين أبحاثه ، ففي عام ١٩٢٩ أصدر نظريته عن
« الحقوق المتحدة » لكى يلخص بها ، عن طريق مجموعة من المعادلات ،

القوانين التي تتحكم في القوتين الرئيسيتين في الكون ، وهما الجاذبية والكهرومغناطيسية . وقد ظل يعمل في بحث هذا الموضوع طيلة الثلاثين سنة الأخيرة من حياته .

● النتائج الفلسفية والمعلومات العامة

نتيجة نظرية النسبية

قد يهم القارئ بعد دراسة هذه النظريات العويصة التي اصطحبناه فيها محاولين التبسيط قدر المستطاع أن نذكر نتيجة تلك الأبحاث التي قام بها ذلك العالم العبقري .

فقد أمكن لاينشتاين أن يستنتج من بعض الحقائق الفلكية ومن مجهوداته السابقة ان الكون ليس كما تصوره اقليدس وكما ظنه العلماء بأنه كون لانهاثي - انما هو كون محدود ، وقرر ان التركيب الهندسي للكون كمجموعة يجب أن يتشكل بتأثير مجموعة الأجرام المادية فيه ، فكل تركيز مادي في الكون لابد أن يصحبه تحريف في متصل « الفضاء زمن » ، وكل جرم سماوي وكل مجرة لابد أن تخلق حولها وبين نجومها تحويرات محلية وغير منتظمة ، وكلما زاد تركيز المادة كلما زاد انحناء الفضاء زمن ، والنتيجة النهائية أن يصبح متصل الفضاء زمن كله منحنيًا يتبع تحويرا وانحناء ناتجا من مجموعة الأجرام المادية في الكون التي تسبب انحناء المتصل حول نفسه ، ويصبح الكون كله مقفلا على نفسه ، وعلى ذلك فالكون محدود وليس كما تصوره اقليدس ، وأحسن تشبيه له ما قاله السير جينز jeans : « انه كفقاعة الصابون التي بسطحها تجعيدات والكون في هذه الحالة ليس داخل الفقاعة بل انه مادة السطح نفسها ولفقاعة الكون أربعة أبعاد ثلاثة منها الفضاء والبعد الرابع الزمن » .

وحيث ان انحناء الكون يمكن تقديره بالأجرام الموجودة فيه فان المسألة الكونية ممكن حلها بالحصول على الرقم الذي يبين متوسط كثافة المادة في الكون - وقد قدر العلماء المعاصرون ، بدراسة عينات من مساحات السماء لمدة عدة سنوات من أن يعرفوا متوسط المادة في الكون ، وأن يقدروا ان متوسط الكثافة يبلغ واحد على ١٠ أس ٢٨ جرام في كل سنتيمتر مكعب من الفضاء ، وبتطبيق هذا الرقم على معادلة المجال

لاينشتاين حيث قدر ان نصف قطره كرة الكون تبلغ ٢٥ بليون سنة ضوئية والبيون هو ألف مليون ، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة بسرعتة المعروفة وقدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، ولو أراد القارئ أن يحسب هذا الطول فما عليه الا أن يضرب هذا الرقم في ٦٠ لكي يحصل على المسافة التي يقطعها الضوء في الدقيقة ثم في ٦٠ ليعرف المسافة التي يقطعها الضوء في ساعه ثم في ٢٤ ثم في ٣٦٥ يوما ليعرف المسافة التي يقطعها الضوء في السنة وسيرى ان الرقم يساوى تقريبا ١٠ أس ١٣ أى ١٠ مليون المليون كيلومتر .

وقد قدر آينشتاين أن يكون لنصف قطر الكون علاقة بالجذر التربيعى لمربع الكثافة فيه ، فقد كان تقديره 2×2220 ميل وبحساب السنين الضوئية نجد انها قريبة من ٣٣ أو ٣٥ ألف مليون سنة ضوئية ، وبهذه الطريقة أمكن بواسطتها لاينشتاين وليمتر وغيرهم من حساب كتلة الكون فى مجموعه بل معرفة عدد ما به من ذرات .

كل هذا كان خاف على عقولنا ، ولقد قال آينشتاين « المؤمنون هم الذين يعلمون علم اليقين ان هناك أشياء تخفى على علمهم » .

ورغم ان غالبية العلماء يميلون الى تجنب كلمة « الله » عندما يشيرون الى غوامض الكون ، فان آينشتاين لم يتبع هذا الطريق ، ورغم ان البعض وصفه بالكفر ، ومع ذلك فقد قال : « ان دينى يشمل الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التي تكتشف فى ثناياها بعض التفصيلات القليلة التى لا تستطيع عقولنا المتواضعة ادراكها ، وهذا الايمان القلبى العميق هو الذى يدفعنى الى الاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع ادراكها خلال ذلك الكون الغامض الذى يلهمنى بفكرتى عن وجود الله ! » .

ويقول لينكولن بارنت فى كتابه « العالم وآينشتاين » انه يوجد الآن فى العلوم الحديثة نافذتان يطل منهما الانسان :

الأولى : المنظار الجديد فوق جبل بالومار فى كاليفورنيا الذى يبلغ قطر مرآته العاكسة ٢٠٠ بوصة .

الثانية : النظرية الجديدة لاينشتاين الخاصة بالمجال الموحد .



● مراجع مختارة

- ١ - أصول الكتب الثلاثة عشرة
- ٢ - ابن سينا : تأليف : د. أحمد الأهواني
- ٣ - أفلاطون : تأليف : د. أحمد الأهواني
- ٤ - آينشتاين والنسبية : تأليف : بارنت ، ترجمة محمد عاطف البرقوقي
- ٥ - تاريخ الانسانية : تأليف : أحمد حسين
- ٦ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه : تأليف : د. عبد الحليم منتصر
- ٧ - تاريخ الفكر السياسي : تأليف : جان توشار
- ٨ - الخالدون العرب : تأليف : قدرى حافظ طوقان
- ٩ - دائرة معارف الشعب
- ١٠ - ديكارت : تأليف : د. نجيب بللى
- ١١ - الطب والأطباء : تأليف : د. محمود دياب
- ١٢ - العلوم عند العرب : تأليف : قدرى طوقان
- ١٣ - الفسك الحسنى من كونفوشيوس الى ماوتسى تونج : تأليف : ه. ج. كريل
- ١٤ - قادة الفكر الاقصادى : تأليف : روبرت هيسلبر وتز - ترجمة د. راشد البراوى
- ١٥ - قصة الحضارة : تأليف : ول وايريل ديورانت
- ١٦ - كارل ماركس : تأليف : ايسيا برلين - ترجمة عبد الكريم أحمد
- ١٧ - محيط العلوم : تأليف : نخبة من العلماء العرب
- ١٨ - المذاهب الاقتصادية الكبرى : تأليف : جورج سول - ترجمة د. راشد البراوى
- ١٩ - من اعلام الطب العربى : تأليف : أبو الفتوح التوانسى
- ٢٠ - مؤلفات ابن سينا : تأليف : جورج شحاتة قنواى
- ٢١ - نظرية التطور : تأليف : سلامة موسى
- ٢٢ - نفائس الفلسفة الغربية : تأليف : د. عثمان أمين

المؤلف في سطور

- ① رئيس قسم الوثائق والمعلومات بدار الهلال منذ عام ١٩٦٨ .
- ② عضو نقابة الصحفيين .
- ③ كتب في عدة مجلات أدبية وإسلامية مختلفة منها :
الهلال - المصنثور - الكواكب - التصوف الإسلامي -
الدوحة - الأمة الإسلامية .

فهرس

كتب غير الفكر	٥
تقديم	٧
المقدمة	١١
١ - الكتب الخمسة لکنفوشيوس	٢٦
٢ - الجمهورية : أفلاطون	٣٩
٣ - أصول الهندسة : اقليدس	٦٤
٤ - القانون في الطب : ابن سينا	٧٦
٥ - المقدمة : ابن خلدون	٩٦
٦ - البخيل : ميكافيل	١١٧
٧ - التأملات في الفلسفة الأولى : ديكارت	١٤٤
٨ - المبادئ : اسحق نيوتن	١٦٤
٩ - روح القوانين : مونتسكيو	١٧٨
١٠ - نزوة الأمم : آدم سميث	٢٠٢
١١ - أصل الأنواع : تشارلز داروين	٢٢٤
١٢ - رأس المال : كارل ماركس	٢٤٤
١٣ - النظرية النسبية : آينشتين	٢٥٩
مراجع مختارة	٢٧٣
المؤلف في سطور	٢٧٤

● ● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

اسم المؤلف	اسم الكتاب
برتراند رسل .	١ - أحلام الأعلام وقصص أخرى
ي . رادونسكايا .	٢ - الألكترونيات والحياة الحديثة
ألدس هكسلى .	٣ - نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	٤ - الجغرافيا فى مائة عام
زايموند وليامز .	٥ - الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوربس	٦ - تاريخ العلم والتكنولوجيا . ج ٢ .
ليستر ديل راى	القرن الثامن عشر والتاسع عشر
والتر ألن	٧ - الأرض الغامضة
لويس فارجاس .	٨ - الرواية الانجليزية
فرانسوا دوماس .	٩ - المرشد الى فن المسرح
د . قدرى حفى وآخرون	١٠ - آلهة مصر
أولج فولكف .	١١ - الانسان المصرى على الشاشة
هاشم النحاس .	١٢ - القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
ديفيد وليام ماكداول .	١٣ - الهوية القومية فى السينما العربية
	١٤ - مجموعات النقود
	صيانتها . . تصنيفها . . عرضها
عزيز الشوان	١٥ - الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	١٦ - عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س . بى . كوكس	١٧ - ديلان توماس
	مجموعة مقالات نقدية
جون لويس	١٨ - الانسان ذلك الكائن الفريد
	١٩ - الرواية الحديثة . الانجليزية - والفرنسية
بول ويست	ج ١
د . عبد المعطى شعراوى	٢٠ - المسرح المصرى المعاصر . أصله وبدايته
أنور المعداوى	٢١ - على محمود طه . الشاعر والانسان
بيل شول وأدنبيت	٢٢ - القوة النفسية للأهرام
د . صفاء خلوصى	٢٣ - فن الترجمة

اسم الكتاب	اسم
٢٤ - تولستوى	رالف ثى ماذ
٢٥ - ستندال	فيكتور بروه
٢٦ - رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوج
٢٧ - الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ - التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ - فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع أدنى
٣٠ - أدب الأطفال . (فلسفته - فنونه - وسائله)	هادى نعمان ال
٣١ - أحمد حسن الزيات . كاتبنا وناقدا	د . نعمة رجب
٣٢ - أعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل ا
٣٣ - فكرة المسرح	فرنسيس فرجو
٣٤ - الجنحيم	هنرى باربوس
٣٥ - صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ - التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب بروه
٣٧ - هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د . روجر س
٣٨ - تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	أ . سينسر
٤٠ - النحل والطب	د . ناعوم بين
٤١ - سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهم
٤٢ - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تش
٤٣ - كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون ش
٤٤ - الصحافة	بيير ألبير
٤٥ - أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريد
٤٦ - الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د . رمسيس
٤٧ - حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعيم
٤٨ - الفكر الأوروبى الحديث ج١	فرانكلين ل .

اسم المؤلف	اسم الكتاب
شوكت الربيعي	٤٩ - الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ - ١٩٨٥
د . مجتبی الدین احمد حسين	٥٠ - التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج . دافلي أندرو	٥١ - نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف : كونراد	٥٢ - مختارات من الأدب القصصي
د . جوهان دورشمن	٥٣ - الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟
	٥٤ - مبادرة الدفاع الاستراتيجي
طائفة من العلماء الأمريكيين	حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حزب الفضاء)
د . السيد عليوة	٥٥ - إدارة الصراعات الدولية (دراسة في سياسات التعاون الدولي)
د . مصطفى عناني	٥٦ - الميكروكمبيوتر
مجموعة من الكتاب	٥٧ - مختارات من الأدب الياباني (الشعر - الدراما - الحكاية - القصة القصيرة)
فرائيكلين ل . باومر	٥٨ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٢ (الاتصال والتغير في الأفكار) من ١٦٠٠ - ١٩٥٠
جابريل باين	٥٩ - تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
أنطوني دى كرسبني	٦٠ - أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
وكينيث مينويج	
فرائيكلين ل . باومر	٦١ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٣
دوايت سوين	٦٢ - كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكي ف . س	٦٣ - الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوي	٦٤ - أجهزة تكييف الهواء
بيتر ر . داي	٦٥ - الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
جوزيف داهموس	٦٦ - سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
س . م بورا	٦٧ - التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	٦٨ - مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
رونالد د . سمبسون	٦٩ - العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د . أندرسون	
د . أنور عبد الملك	٧٠ - الشارح المصغري والفكر

اسم المؤلف	اسم الكتاب
والث روستو	٧١ - حوار حول التنمية
فريد هيس	٧٢ - تبسيط الكيمياء
جون بوركهارت	٧٣ - العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبر	٧٤ - التذوق السينمائي
سامى عبد المعطى	٧٥ - التخطيط السياحي
فريد هويل	٧٦ - البنور الكونية
شندرا ويكرا ماسينج	٧٧ - دراما الشاشة ج ١
حسين حلمى المهندس	٧٨ - الهيروين والايدز
روى روبرتسون	٧٩ - الفكر الاوروبى الحديث ج ٤
فرائكلين ل. باومر	٨٠ - نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	٨١ - صور افريقية
دوركاس ماكلينتوك	٨٢ - الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. محمود سرى طه	٨٣ - دراما الشاشة ج ٢
حسين حلمى المهندس	٨٤ - المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بيتر لورى	٨٥ - وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف	٨٦ - الهندسة الوراثية
ويليام بينز	٨٧ - تربية أسماك الزينة
ديفيد الدرتون	٨٨ - كتب غير الفكر الانسانى
أحمد محمد الشنوانى	

يعرض هذا الكتاب لثلاثة عشر من الكتب الرائدة التي
أثرت تأثيراً عظيماً على الفكر الإنساني على مدى العصور
منذ أن كتب كنفوشيوس العظيم كتابه الخمسة قبل الميلاد
إلى أن ألف أينشتاين كتابه الخطير عن النسبية في أوائل
هذا القرن.

وقد أبرز المؤلف الدور الخطير للكتاب في تغيير مجرى
الأحداث تغييراً كلياً ، ولم يشأ مؤلفنا أن يقف مع الكتب
الثلاثة عشر ، التي عدّها - بحق - رائدة في مجالها دون
أن يقف مع مؤلفيها الذين كانوا رواداً في ميادين خالفتهم ،
بما يتكافأ مع جهدهم وريادتهم في إلقاء العلم والفكر

والغرض من نشر هذا الكتاب هو اكتشاف الكتب التي
كان لها أعظم الأثر على التاريخ والثقافة والمدنية والفكر
العلمي على مدى التاريخ ، فهو يقدم عرضاً مشيراً للكتب من
عصور عدة تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة على التقدم
البشري.